

297.04
641mH
ع.ا
محمّد الغنّزالي

من معالم الحق

الناشر
دار الكتاب العربي ببيروت
محمد علي النيناوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤ م

مقدمة

إن التجارب التي بلوتها في الأيام الأواخر ردت إلى الصواب فيما يحس تقدير الناس وتقويم منازلهم واكتشاف خباياهم . . .

عرفت لماذا أحس رسول الله أن الرجال قليل ، وأن نسبتهم فيمن ترى لا تسكد تبلغ الواحد في المائة . ولذلك قال : « الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة » .

أجل . إن الذين يُعَوَّل عليهم في اقتحام الصعاب وتحطيم العقاب وإدراك الغايات أندر — إلى حد بعيد — مما يفرضه حسن الظن وتوقع الخير .

وما أحكم قول الله عز وجل « وَإِنْ تَطِيعُ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » . . .

وإلى جانب قصور الهمم ووهن المناكب وضعف الإدراك وما إلى ذلك من رذائل المعجز المبعثرة بين العامة والهمل ، تجد رذيلة أخرى إذا لحقت بالأقوياء شانتهم وحطتهم ، وهي سوء النية ، أو بتعبير أدق ، غش النية .

فإن القصد المدخول يحمل الرجل يأتي عمل الأخيار — وهو بضميره بعيد عنهم — فيخرج منه ضعيفاً لا يصل إلى هدفه ، أو منحرفاً لا ينتهي إلى موضعه .

ثم إن صاحب هذا العمل محسوب على قوى الإيمان والإخلاص في حين أنه دسيسة مقحمة فيها . أو هو في الحقيقة جرثومة تعمل ضدها وتثير داخل كيائها الملل . . .

ولم أعرف نفاسة قول رسول الله : « إنما الأعمال بالنيات » حتى خالطت المئات والآلاف فوجدت في سيرتها الأعاجيب .

طالما بحثت عن الإخلاص المحض لله ولرسوله لآنس به وأستمع ، أو لألؤذه وأستجير ، فكانت سوءات الهوى المستور تفجؤني فتزدني محزوناً لا ألوى على شيء . . . !

هناك ناس فاتهم من حظوظ الدنيا ما يكسبهم الوجهاء المنشودة ، فالتحقوا

بميدان الدعوة إلى الله يرجون فيه العوض الذي فقدوه . فتحوّل الميدان الظهور بهم إلى مضمار يتهارش فيه فرسان الكلام وطلاب الظهور وعشاق الرياسة .

وانتقلت موازين الحياة الدنيا وتقاليدها ومؤامراتها وأساليبها تبعاً لذلك إلى ميدان الدعوة فماذا تنتظر من هذا الخلط إلا أن تقع فتنة في الأرض وفساد كبير ؟ لقد خلصت من تجارب هذه الأيام التي مرت بي إلى أن العمل للإسلام لا يقبل إلا ممن يعمل به . وأن الذين يفشلون في إقامة أمر الله بينهم أعجز من أن يقيموه بين الناس ، وأن الله لا يمكن لأمة باسمه إلا إذا نضجت في هذه الأمة عناصر الخير وربت منابع البر ، حتى إذا ملكت نضجت على العالمين من طبيعتها العالية ، فأشاعت الرحمة والعدل ، وعلمت الطاعة والتقوى ، وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر ! وذلك مصداق قوله سبحانه : « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور » .

إن الإيمان الصحيح يجعل نفس المسلم تستجيب لدواعي الخير المختلفة كلما أهابت بها . فهو في السلم والحرب ، في الصحة والمرض ، في الأمن والروع ، في الخصب والجذب ، في كل حال يقدرها الله له ، يواجهها بما يفرض اليقين عليه ، لا ينكص ولا يزيغ . . . !

يصبر في الضراء ويشكر في السراء ، ويكرم عند النفقة ويقدم عند الروع ، ويقيم الفرائض الموقوتة ويهجر المعاصي المحرمة ، ويبغض المبطلين ويشغب على ضلالهم ، ويحب المصلحين ويشد أزرهم . . . !

ذاك شأن المسلم . إن الخضوع لأمر الله والمبادرة إلى إنفاذه استعداد كامن دائم فيه . « إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا : سمعنا وأطعنا . وأولئك هم المفلحون » .

وقد تلت هذه الآية آيات أخرى تفصل حقيقة الطاعة المطلوبة ، وتبين أن مشاعر الخضوع لله ، المستكنة في نفس المسلم موصولة لا تنقطع متمسكة لا تنفصم . وأن الزعم المجرد عن العمل لا قيمة له في حقيقة التقوى .

هب رجلاً أعجبه دفء الفراش ساعة الفجر وآثر لذة النوم على غيرها من ذكر وقربى أحسب ذلك يقدر على جهاد خشن في ميدان غليظ ؟

هب رجلا أغراء فتون الفاحشة فقلوث بها في أيام الرخاء والسعة أترأه يطيق
مرضاة الله في الانحلال عن الدنيا لو طلب إليه أن يفتدى أمته بنفسه يوما ما ؟
إن الرجال الذين يسيئون في القليل لا ينبغي تصديقهم إذا أقسموا في الكثير .
وهذا ما بدأت الآيات الكريمة تفيض فيه « وأقسموا بالله جهنم أيمانهم : لأن
أمرتهم ليخترجن . قل : لا تقسموا ، طاعة معروفة » ، إن الله خير بما تعملون .
نعم ، طاعة معروفة ! إن المتكاسلين في الصلاة ، الباخلين بالزكاة لا يقبل منهم
حلف على الفداء والتضحية .

إن الناكين عن خدمة الحق بكلمة هادئة لا يحلفون على خدمته ببذل الدم .
طاعة معروفة .

ما أحز هذه الكلمة في جلود الخادعين المخدوعين ، الذين يظنون محالهم
منطليا على الله . . .

ثم شرعت الآيات تجر أولئك إلى صراط الله الذي يزعمون أنهم أوغلوا فيه
وهم لما يهتدوا إلى مطالعته « قل : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول . فإن تولوا فإنما
عليه ما حمل وعليكم ما حملتم » .

والطاعة المعنوية هنا قوامها تصحيح العقيدة وتطهير القلب وإدامة الصلاح
و لزوم التقى .

وتجلية هذه المعاني يحىء في إبانها . فإن الآيات نزلت في المدينة . والنبي الكريم
يكافح قوى الشرك ويُرسي قواعد الدولة التي يريد بناءها .

وفي هذه الظروف يقبل المغامرون من طلاب الدنيا ليشاركوا في الجهاد طلبا
للغنيمة . وقد يتطلعون إلى الحكم رغبة في الإمارة لا إقامة لدين الله . فتعلما لهؤلاء
أطردت الآيات تنذر وتبشر ، وتمعد بالنصر والتمكين الطائمين المخلصين وحدهم .

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض
كما استخلف الذين من قبلهم ، وليكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم
من بعد خوفهم أمنا » .

لكن ما شرط ذلك ؟ وما مقدماته الصحيحة ؟

« يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً . . . » .

« ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

وعادت الآيات تكرر أوامر الخير وأسباب الفلاح « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون » .

وهذه مدارج الفضل والسناء . وأى مجتمع تهى فيه عُرَا الأخلاق ، وتضعف فيه مقومات النفوس الكبيرة هيئات أن يوفق إلى تأسيس دولة مكيمة أو إقامة حكم رشيد . . .

إن النفوس الدنيا لا يمكنها أن تقيم أحكام السماء ، ولا تستطيع — وهى مُخلِدة إلى الأرض — أن تستجيب لآمال الوحي ، أو تستقيم مع جوه النقي الطهور .

أرأيت امراً خليعاً يشرع دساتير الأدب ويطبقها . أرأيت امراً خواراً يشرع دساتير الكفاح ويؤججها ؟

إن ينابيع الخير التى اخضبت بها الحياة وازدانت . . لم تنبجس من نفوس متحجرة ، بل فارت بالرى العذب من نفوس مفعمة بالكمال ، فياضة بالبر والسكينة والجمال .

وغيوم الشر التى لوئت الآفاق وأذت البلاد والعباد . . لم تنفخها أنفاس لاهثة يقطعها الإعياء والوجل ، بل عصفت بها نفوس لها فى الحياة فعل الاعاصير المجتاحة ، كانت قوتها فى الخير هى السبب الأول فى اندحار الشر أمامها . . .

والنفوس التى انحصرت فى أهوائها الصغيرة لا تفقه الدين ، ولو فقهته ماصلحت به شيئاً فضلاً عن أن تصلح هى به . .

إن الحقيقة الأولى فى الإسلام زكاة النفس وسناؤها ، وفقدان هذه الحقيقة فقدان الأصل الذى لا يسد مسده عوض ، ولا يغنى مكانه صلاة ولا صيام ولا جهاد ولا قيام . . بل فقدان هذا الأصل يجعل العبادات التى يأتىها البعض نوعاً من الفساد الملفوف ، فإن النيات المدخولة والقلوب الحالكة لا يصلح معها عمل أبداً . .

إن الله أمر الناس أن يزكوا أنفسهم وأن يزكوا بيئتهم ، ومن ثم يكون

جهادهم العام في ترقية الجماعة جزءا من جهادهم الخاص في تهذيب غرائزهم وتقويم مسالكهم . .

فإذا رأيت رجلا يشتغل بجهاد الناس وهو مدهول عن جهاد نفسه فاعلم أنه خطاف يريد الاشتغال بالسلب والنهب تحت ستار الدين .

إن تقوى الله عز وجل لباب الدين وسياج نظمته الدقيقة والجليلة ، ورباط تعاليمه في المجتمع والدولة . ولو أفلحنا في إقامة هيكل كبير يمثل شرائع الله كلها وتبرز فيه صور الإسلام الممهودة والمنشودة ثم حفت بهذا الهيكل نفوس خلت من الله وضامئ لا تحسن رقابته ما كننا بهذا كله قد أقننا إسلاما ولا خدمنا إيمانا .

ولسنا ننكر قيمة القانون في حراسة ظاهر الحياة ، ولكننا ننكر أن يكون للقانون أثر يذكر في موازين الخير والأمانة والنهوض والوفاء وحسن التقدير وسلامة القصد . .

بل إن القوانين أعجز من أن تحاكم الإيمان والنفاق والرياء والإخلاص .
وهذه لها ما لها في قيادة الجماعات إلى النى أو الرشد . .

في عصرنا هذا نظم القضاء ، ورتبت محاكمه ، ووزعت أعباء الدفاع والاتهام والموازنة والتمحيص على رجاله ، وهيئت الفرص لتدارك الخطأ ، واتسمت ضروب التقاضي فأمكنحت محاكمة الدولة والفرد جميعا . بيد أن هذه الوسائل العديدة لتوفير العدالة وإشاعة السكينة لا تجدى شيئا إذا التاثت النفس الإنسانية وأضلها الهوى فإن النفوس المجرحة لا تمسك الحق إلا كما تمسك الماء الغرايبيل .
ولذلك يقول الله لداود — وهو نبي وحاكم .

« يا داودُ إنا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديدٌ بما نسوا يوم الحساب » .

وكل مستخلف في الأرض يكون قربه أو بعده من الله على قدر بصره بالحق وانصياعه له وأخذه نفسه والناس به .

ونحن لو تركنا الهوى يقيم حدود الله لقطع المسروق وترك السارق
وقدم المفلوك وآخر الماجد ، وأعطى حيث يجب أن يمنع وخفض حيث يجب
أن يرفع .

أفتحسب ذلك ديناً ، أم ذلك هو الفساد المبين ؟
إن أولى الناس بالله من حكموا الله في أنفسهم ، وخضعوا لدينه في طواياهم ،
وعاشوا له في شئونهم التي لا يراها إلا هو — جل اسمه — قبل أن يتظاهروا بالعيش
له في كل زحام ، والغضب له في كل خصام .

هبك فتحت المصحف فوجدت فيه قوله الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كونوا
قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . . »
وقوله أيضاً « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى . . »

إنك — كأي مسلم — مطالب باحترام النداءين ، واجابة الأمرين ، على أن في
مقدورك هذه الساعة قبل غيرها أن تقيم العدل بين من تحب ومن تكره ولو بكلمة ،
أما إنفاذ القصاص الواجب فقد تقيمه غدا إن عجزت عنه اليوم فهل تحسبني آمنك
على هذا الإنفاذ المنشود لو رأيتك تهدر النص الأول وتجدد كلمة حق تقر بها
العدالة وتقوم بها مخلصاً لله رب العالمين !!

لا يا صاحبي . . إن أولى الناس بالله من يقيم في جوانب نفسه سلطان الحق
ويهزم نوازع الهوى فإذا أذنت له الأقدار بامتداد كان البر بعباد الله أول ما ينتظر
منه ، وكان الجور عن الطريق آخر ما يرمى به . .

من خمسة عشر عاماً وهذا القلم يكتب للإسلام يشرح نظامه ويبرز أحكامه
ويغري الناس بالأخذ به والدخول فيه ومذلت عرا الحكم الإسلامي في عصرنا
وسقطت دولته تطلع المؤمنون إلى يوم أغر يعلو فيه لواء الدين وتسود شريعة الله . . .
وأى مسلم لا يداعب نفسه هذا الأمل الحلو ؟ وأى مسلم لا يعمل له وعلى لسانه
قول الشاعر :

منى إن تكن حقا تكن أعذب المنى وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا
لكن من يقيم هذا الحكم المرغوب ؟ وما هي الأدوات التي تمكن له ؟
إن الدولة المسلمة لن تجيء إلا ثمرة أمة مسلمة ، وإذا صدقنا أن الوثنيين يقيمون

حكماً للتوحيد صدقنا أن يقيم الدُّعَا حِكماً للفضيلة ، وأن يقيم المهازيل نظاماً للرجولة ، وأن يصنع العبيد منهاجاً للسيادة . . .

إن أول ما ينتظر في جماعة تبغى الحكم بما أنزل الله أن يصحب بعضهم بعضاً على هذا الأساس ، وأن يعامل بعضهم بعضاً بهذا المنطق .

لذلك جزعت عندما رأيت بعض من يتنادون بدستور السماء يعيشون في وساوس الأرض وأوحالها .

لقد كان القرآن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى أن ما دعا الناس إلى اتباعه جعله صقال روحه وملاك أمره ومعقد شمائله ودعامة سيرته . .

كان محمد عليه السلام نقي السر والعلن . طهور الظاهر والباطن ، لا يوجد بين حياته الخاصة وحياته العامة حجاب . فسيرته في نفسه وفي بيته كسيرته بين الناس ، ودعوته التي يعرض على الناس أصولها كان أول الناس احتكاماً إليها وأخذاً بها ، وقد ظل بارزاً للأصدقاء والخصوم سنين طويلة ، فما عرفت عنه ريبة ولا وقع تناقض بين سلوكه الخاص وسلوكه العام .

إن الرسالة التي نادى بها هي الرسالة التي عاش فيها ، وهي التي ضبطت أحواله كلها سواء الذي اطلع عليه الناس والذي خفي عن أعين الناس .

ومثل ذلك لا يطيقه الأدعياء من أصحاب الشهوات ومن ذوى الرجولة المريضة والأخلاق الملتوية . ولقد حاول خصوم رسالته أن يستدرجوه إلى المداهنة والمسلك المزدوج فأبى وهو القائل : « ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً » .

وفي ذلك يقول القرآن « فلا تطع المكذبين . وُدُّوا لو تدهن فيدهنون » . والحق أن صاحب الرسالة العظمى قد زوده الله بزاد من الشرف والصرامة والثبات هي كفاء ما حمل من أمانة وبلغ من رسالة .

ولن يصل صاحب رسالة نبيلة إلى غايته إلا إذا مشى في هذه السبيل المشرقة . ثم إن هذا الرسول لم يفرط أدنى تفريط في صبغ النفوس بتعاليمه وضبط المجتمع بأدابه ومحكمة الصغير والكبير إلى معالنه .

بل إنه لم يتساهل في تطبيق ذلك على جثث الموتى ، ففي معركة أحد كان يسأل

— وهو يستعرض رفات الشهداء — : أيهم أكثر أخذاً للقرآن ؟ فيدينه منه في الصلاة ويقدمه على غيره في الالحد !!

فانظر ماذا صنع المحسوبون على دعوة الله في زماننا هذا ؟ داسوا موازين الإيمان والأمانة وجاءوا برجل لا يدري من شرائع الله شيئا ليقود ركب الدعاة إلى الله ! فكان أن قادهم إلى مواطن الحزى والندم . . .

إن المسلم الذي يفقد ضميره لإيثار شخص بمنصب كيف يرجي منه أن يحكم بما أنزل الله حين يتولى مهام الدولة ويملك أزمته الكبرى ؟

فإذا غلغلت النظر في خبء هؤلاء وجدت تقربا سره الزلفي ، وإغماضا سره الجبن ، وفصلا سره الحق ووصلا سره الإدلال ، وصداقة سرها الهوى !!!

فأين « ما أنزل الله » بين قوم هذه حالهم ؟

إننا لن نوفق إلى الحكم بما أنزل الله حقا إلا إذا نمت أعوادنا في مغارس الفضيلة فكفنا عدولا مع أنفسنا قبل أن نكون عدولا مع الناس . . .

وتربية الأجيال الجديدة لتسكين أخلاق عظيمة ومسالك رائعة خطوة لا بد منها في هذه السبيل .

وقد هيمنت على مرارة الإحساس بهذه الحقيقة فجعلتني أصرخ بالألم في كثير من المقالات المثبتة هنا .

إن الاضطراب الشديد داخل الجبهة الإسلامية والغارة الشمواء على العالم الإسلامي جعلاني موزعا بين الدفاع والهجوم .

دفاع ضد أعداء أقوياء متربصين .

وهجوم ضد أعوان بله وانين متقاعسين ! .

دفاع رجل يخشى أن يصاب من ظهره لأن المنتمين إلى الإسلام ينالون منه ، وكأنه عدو ، وهو الصديق الودود ! !

وهجوم رجل يُعَيَّرُ ببجالات غيره وهو يكافح فكرة « العيش بلا دين » .

تلك الفكرة التي ترحف وسط أمواج دافقة من العلم المادى والحضارة المدنية البحتة ؟

محمد الغزالي

سنة مطرودة

[يجب على المسلمين أن يستوعبوا هذه الحقائق
قبل جولة أخرى مع بني إسرائيل ...]

(١)

قد تكون نعمة الله على أمة ما بالتمكين والنصر ، كفاء ما حملت من عناء
وأبدت من صبر ، وعندئذ تبقى هذه النعم مابقيت الأعمال التي أهلت لها والأحوال
التي قادت إليها . .

إن الرجل إذا حصل على منصب كبير بمواهب عرفت له وكفايات قدرت فيه ،
فهو مقيم في هذا المنصب ما ظل مطيقاً لأعبائه قائماً على حقوقه موصول الماضي
والمستقبل بالجد والإخلاص . .

أما إذا وصل المرء إلى القمة ثم فقد القدرة على الصعود فإنه سوف ينحدر عنها
حتماً ليعود من حيث أتى . .

إن المحافظة على المجد ليست أيسر من بلوغه ، بل قد تكون استدامة النعمة
أصعب من تحصيلها ! .

ألا ترى الثمرة قبل بُدوِّها تحتاج إلى جهود متلاحقة في غراسها وسقيها
وتعهداها حتى إذا نضجت احتاجت إلى جهود أخرى في المحافظة عليها من آفات
العفن وأسباب التلف ! .

وشر ما يعتري النعم بعد اكتمالها أن يحسب أصحابها أنها جاءتهم اتفاقاً من غير
مبررات اكسبتها ولا مقدمات ساقتها ، أو يحسبون أنهم نالوها بمجاجة من الأقدار
أو اختصاص مبهم أو بدعوى العظمة الكاذبة والاستحقاق الباطل كما قال قارون :
« إنما أوتيته على علمٍ عندي » ! .

هذا كله مما يبحث أصول الخير ويستعجل نقمة الملك الأعلى .

لقد ذكر القرآن بنى إسرائيل في آيات شتى فأبان أنهم بلغوا من منازل الفضل
ومعارج الارتقاء ما سبقوا به أهل الأرض قاطبة ، وانظر إلى قوله تعالى :
« ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذابِ المُهِينِ من فرعونَ إنه كان عالياً
من المسرفين .

ولقد اخترناهم على علمٍ على العالمين » .

أى أن الله اصطفاهم لاعتن محابة بل عن عدالة وحكمة ، فلولا أن الشعوب الأخرى في زمانهم كانت أبخس حظاً في المعرفة والقدرة ما حملهم القدر رسالة ولا آتاهم من الآيات ما آتاهم « ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الأمر » .

وإن الإنسان لينظر إلى اليهود أيام محنتهم فيرى بقايا الاختيار القديم لأمة في سيطرتهم — وهم قلة — على أموال العالم ، واستمرار عنصرهم يغالب الحياة ويتشبث بها رغم سياسة الاستئصال المنظم التي تبعتها العالم حيالهم . .

وإن القرآن الكريم لينذكر هؤلاء اليهود بأجسادهم الأولى ويذكرهم بإمكان العودة إليها لو أطرحوا الغدرات والأباطيل فيقول : « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم » ثم يقول : « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين » .
ما الذي جعل أمور هذه الأمة تنقلب رأساً على عقب ؟

ما الذي جعلها بعد أن كانت النبوات ترحم ديارها وأنوار السماء تخطط طريقها وبركات الله تنهمر فوقها وتحتها تتحول إلى أمة أخرى تحذرنا شعوب الأرض وتترصد بها الدوائر وتتوصى بالنيل منها والكيد لها ؟

ذلك أن بني إسرائيل ظفروا بإكرام الله حقاً مكتسباً لهم بحكم الجنس فهو مقرون بهم لاحتالة مهما صنعوا . .

أجل لقد ظنوا بإيثار الله لهم ضربة لازب كما يؤثر الرجل بنيه عن غريزة غالبية وعاطفة دافعة . .

ثم تأدى بهم هذا الظن إلى التفريط والتكاسل ، بل إلى الحيف والتعامل فأمسوا يفتاسدون ويتجاهلون وهم مع ذلك موقنون بأن كفهم على سائر الناس أرجح ودرجتهم عند الله أعلى وأعلى . .

والغريب أن هذا الوهم سرى إلى من بعدهم ممن ورثهم فنعى الله عليهم جميعاً هذا الغرور بالمعاصي وهذا الانتماء إليه بالزور « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل : فلم يعد بكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشرٌ من خلق ! » .

والبشر جميعاً يتساوون في أصل الخلق ويتفاضلون بعدئذ بحسن العمل وليست بين الله وبين عبدٍ مَّا ، أو أمةٍ مَّا ، صلة خاصة تبيح المروق من الدين أو تسقط الحقوق المنوطة بأعناق المكلفين . .

ورب العالمين يختبر عباده بالعسر واليسر ويبعث بالرءاء بعد الشدة لا ليخرج المروعون من اللجج المخوفة ويسيروا على شاطئ الأمان مرحين معربين ، كلا بل ليعتبروا بماضيهم ومستقبلهم معاً ، وإلا فالأمر كما ذكر الله في كتابه : « وإذا أذقنا الناس رحمةً من بعدِ ضراءٍ مستهم إذا لهم مكرٌ في آياتنا قل : الله أسرعُ مكرًا إن رُسُلنا يكتبون ماتمكرون » .

وربما وهل الناس إن أجلّ نعماء الله على بني إسرائيل هذا الإغداق السمح الذي يسر لهم أطعمتهم من السماء موائد حافلة باليمن والسلوى ! كلا . .
إن تأمين أمة على أرزاقها شيء عظيم حقاً ، فكم تذل الأمم بالسنين المضوض .
ولكن اليهود ظفروا بمكاسب روحية كبيرة إلى جانب ما نالوا من إشباع وتأمين ، فإن الله تعهدهم بالأنبياء يعلمونهم بالوحي ويقودونهم بتوجيه السماء ! وكان وعاظهم ومدرسهم رجالاً معصومين يدعون إلى الله على بصيرة ويستعملون على أهواء الدنيا عن عصمة ! .

وتلك نعمة لا تدانيها نعمة . .

كم يشعر الإنسان بالحاجة الملحة إلى إمام حكيم يؤنسه بالله ، ويُعده للقائه إعداداً حسناً ، ويلقى على روحه رواء طهوراً يجعله في هذه الدنيا ملكاً يفكر في الخير وحده ويهفو إليه أبداً . .

إنك ترجح نصف الطريق إلى الحق يوم توفق إلى الهادي المدرب اللبيب ، وفي طريق الدعوة إلى الله يوجد علماء وخطباء وقادة وساسة وعباد ونقدة ومحتدون ومقلدون ، وفي الطريق كذلك يوجد الأغرار والمهرة والأتقياء والفجرة والمحدثون والمجازيب ، ترى كم من الجهد يوفر والعناء يقتصد ، يوم يقع المرء على قائد استدرج النبوة بين جنبيه ففي منه شعاع ينطق بالحكمة وفي ضميره روح يلهم الصواب ؟ إن صحبة الأنبياء والاستماع إليهم والاهتداء بهم مجدٌ نال . . وقد غمر الله شعب إسرائيل بهذه الأجداد ، إلا أن كل مبذول مملول ، وكل مرتخص مهممل . .

ألف اليهود مئات الرسل يغسدون بينهم ويروحون ، فما أ كبروا لهم قدراً ولا اقتبسوا منهم خيراً ، بل لقد تجرأوا عليهم ، وغمطوا حقهم ، فإذا وقف نبي أمام هوى جامع ليرده ويحمي الأمة شره لم يجد الأشقياء حرجاً من التخلص منه « لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رُسُلًا ، كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا ، وفريقاً يقتلون ، وحسبوا ألا تكون فتنة فَعَمُوا وَصَمُوا ، ثم تاب الله عليهم ، ثم عموا وصموا — كثير منهم — والله بصير بما يعملون » .

قال رسول الله : إن الله تبارك وتعالى أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات ، أن يعمل بها وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ، وإنه كأنه كاد أن يبطل بها فقال له عيسى : إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ، فإذا أن تأمرهم بها ، وإما أن آمرهم أنا بها ، فقال يحيى : أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب . . فجمع الناس في بيت المقدس فامتلاً المسجد وقعدوا على الشرف . . فقال : إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأن آمركم أن تعملوا بهن ، أولهن أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً . . فإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله . . بذهب أو ورق . . وقال : هذه داري وهذا عملي . . فاعمل وأدِّ إلى . . فكان يعمل ويؤدى إلى غير سيده ! !
فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟ .

وإن الله تعالى أمركم بالصلاة . . فإذا صليتم فلا تلتفتوا . . فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت . .

وأمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صُرَّة فيها مسك كلهم يعجبونه ريحها . . وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يديه إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه . . فقال : أنا أفدى نفسي منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم ، وأمركم أن تذكروا الله . . فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً ، حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم .

وكذلك العبد لا يحجز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى . .

أتدري ما كانت نهاية الرجل الذى أسدى لقومه هذا النصح ؟ إن صدودهم عن الحق وقلة انتفاعهم بالتذكير جعلاه يبطيء - أو كاد - فى تبليغهم فلما ثابر على دعوتهم . . وكافح الفساد الشائع فيهم أهدروا دمه ، وقتلوه . .

وتبدلت حال الأمة الكبيرة فبعد أن كانت تحمد فى العالمين ، وتعد أفضل أهل الأرض تنزل السخط عليها فى الآفاق وسارت بمذمتها الركبان ، فإذا هى ملعونة حيث حلت وحيث ارتحلت ، وعلى لسان من طعنت هذه الأمة ؟ إن الحملة عليهم لم يقدها صحافيون مرتزقة ولم تتوسع فيها دعايات مغرضة ، كلا ، إن أنبياء الله أنفسهم هم الذين تولوا قمع هذه الأمة وإذلال كبريائها وفضح خباياها « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

ثم غرست هذه اللعنة فى أرض إسرائيل لثمر الغضب والنقمة على كره الدهور ، ولتثقل من الأجداد عدوى الخسة والفدر إلى الأحفاد ، ولتنشر الكراهية ، فى أنحاء الدنيا للذرائع النابتة بعد الأجيال المنقرضة .

وكما تجمعت مشاعر المقت فى أحد العصور ثار بها مغامر جبار فقاتل اليهود واستباحهم استجابة للنعنة الخالدة ، وتمشيا مع قول الحق فى كتابه « واذ تأذن ربك ليعمثنَّ عليها إلى يوم القيامة من يسوئهم سوء العذاب . . إن ربك لسريع العقاب وأنه لغفورٌ رحيم » .

إنه على قدر عظمة النعمة تكون بشاعة الجحود وتكون صرامة العقاب ، وليس ذلك قانونا خاصا بجنس ، أنه عدل الله فى أهل الأرض طرا . . فإيؤثر الله أمة إلا بمقدار ما تنطوى عليه من خير ، وما يهين أخرى إلا بمقدار ما تسلف من إثم « ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون » . . . « ولكل درجة مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون » .

ومدخل الشر إلى نفوس الأفراد ، الجماعات هو ظن السوء بالله ، أعنى الظن بأن الله يخفض ويرفع دون حكمة باعثة على الخفض والرفع . وهذا ضلال كبير .

عند ما يتوهم الطائر أنه يحلق من ذاته لا من جناحيه فيخلعهما عنه . فسوف يبقى في مكانه لا يريم . ولن يرتفع عن الأرض قيد أنملة .
وقد حدث الله عن موسى فأبان أنه وهبه الحكم والعلم بعد ما اكتملت قواه ونضجت ملكاته .

« ولما بلغ أشده واستوى آتيناها حكما وعلمًا . وكذلك نجزي المحسنين » فكان إحسان موسى هو الذي رشحه لهذا الإكرام الأعلى .
أفتراه ينال شيئاً من ذلك لو بدا عجزه وظهرت فجأته ؟

وقال الله عز وجل مبينا — سنته في قيادة الأرض ووراثته خيرها : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون . إن في هذا لبراعاً لقوم عابدين » فهل يعنى ذلك إلا أن وراثته الأرض هي من حظوظ الصالحين وحدهم — وأن الذين فسدت عقولهم بالجهل وفسدت قلوبهم بالهوى لن يمكن لهم أدنى تمكين في شبر ضيق من أقطار العالمين !!

الحزن في تاريخ الأفراد والجماعات أن العصاميين يظنون معتزّين بفضائل الكفاح والعمل صاعدين إلى القمة بأساليب التقدير الصادق والتفكير السليم حتى إذا استقروا ، تغير المنطق القديم ! فإذا بهم يكرمون المناصب والأنساب ولو كانت إلى جانب الصم البكم الذين لا يعقلون . . . !

ولقد نسى اليهود نشأتهم الأولى والأحوال التي نالوا بها رضوان الله . وحسبوا أنهم لو تغيروا فلن يغير الله ما بهم ، فكان من عقابهم ما رأيت . .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خبيراً بطبائع الأمم وأسرار المجتمعات يوم اخترق أسداف الغيب ، ثم تصور أن أمته قد يعتريها ما اعتري غيرها فقال — منفراً محذراً — لياثين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل ، حتى لو كان فيهم من أتى أمه علانية لكان فيهم من يصنع ذلك . . . »

وقال : « لتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتهم ! قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فن ؟؟ . .

فهل درنا في الدوامة نفسها التي أغرقت الأولين ؟ إن تمثال الخلافة الإسلامية في الآستانة سقط من ثلاثين سنة ، أما الأمة نفسها فهي — من قبل ومن بعد — قد قطعت أمما يتنادى اللثام على أكلها ، فإذا فتحت عينيك على مصير المسلمين الكالح لم نلبث أن نغمضهما على القذى ! فكيف كان ذلك ؟

(٢)

هل يدري المخمور ما يصنع عندما يفقد وعيه وتترنح خطاه ذات اليمين وذات الشمال ؟ لا . إن صوابه الضائع يخيل إليه الأمور معكوسة . . فقد يغنى ويضحك حيث يجب عليه أن يبكي ويحزن !!

لكن الذين يرقبونه عن قرب أو بعد يعرفون ما يقع منه ، ويبنون أحكاما على مسلكه أدنى إلى الحق من أحكام هذا السكران على نفسه ومن تصوره لما يفعل ويترك . . .

وحال المسلمين ومن قرون قريبة المشابه من حال هذا المخبول الذي دارت العقار برأسه .

فقد انطفأت مصابيح الإسلام بأيديهم وأمسوا يسرون بلا خطة ويحكمون بلا شرعة ، ويفكرون بلا عقل ، فلو قست مسافة ما بينهم وبين الرسالة التي آلت إليهم لكانت بعد ما بين المشرقين !

كانوا في عالمهم الحالم لا يدركون ما انتهوا إليه من ضعف في أفكارهم وفي أعمالهم وفي وسائلهم وفي معاشهم .

لكن أعداءهم الأبقاظ لم يغفلوا عن هذا المصير ، فوقفوا يتربصون به ومعهم المaul التي يحفرون بها قبره . . .

وهل غفل أعداء الإسلام يوما عن الكيد له ؟ إن الغزو الصليبي الأول ظل طيلة قرنين عنيدا في محاولاته اليائسة يعني أن يبحث أصوله ، فلما ارتد مدحورا عاد أدراجه ليتأهب لا ليستريح . . . فلما كر بعد إعداد طويل لم يكن في المرة الأخيرة وحده ، بل كانت معه الصهيونية الحانقة ، وقد حشدت بني إسرائيل معها . . . نعم ! بني إسرائيل !

قد تقول : ومن أين جيء بهم بعدما مزقوا شر ممزق وحاقت بهم لعنة الله فنبت بهم البلاد ، وأوغرت عليهم صدور العباد ؟

والجواب أن اليهود لم يفكروا منذ كسر الصحابة شوكتهم في القرن الأول أن يدخلوا مع المسلمين في حرب ما ، ومرت أحد عشر قرناً من تاريخ الإسلام ، واليهود لا يخطر بأنفسهم — ولو مع الأمانى الطائشة — أن يدخلوا مع المسلمين في حرب أبداً ، كيف وحسبهم النجاء حيث كانوا ؟ حتى رأوا بأعينهم الأمة المرهوبة تضمحل . وتذوى فضائلها . ويدل جانبها ، وتهز الفتى الساحقة كيائها ، فعملوا أن أمرها أدبر ، وأن غضب السماء إذا كان قد نزل بهم مرة ، فقد نزل بعدوهم مرة ومرة . ومن ثم تحرشوا بالمسلمين ، وما زالوا يناوشونهم حتى اغتصبوا منهم فلسطين ، ثم تهادى الفرور بهم حتى صاروا يزعمون أن أرض إسرائيل من الفرات إلى النيل . ! أرايت كيف كنا وإلى أين انتهينا ؟ فهل ظلمنا ربك ؟ كلا . ولكنه أنزلنا على سننه الخالدة ، كما أنزل غيرنا من الأمم .

إن الله لم يكره من اليهود أنهم دم معين ، وإنما كره منهم أخلاقاً إذا تحولت إلى غيرهم تحولت معها الكراهية إليهم

لقد انتصر السابقون الأولون من المسلمين لأن أسباب النصر المادية والأدبية ترعرعت في بيئتهم حين صفت منها بيئات أخرى . فانظر إلى أحوال أمتنا من خلال هذه الصور التي أعرضها عليك .

لم ييخل اليهود بالمال لإنجاح قضيتهم . بل عرفوا كيف يكسبونه كثيراً وفيراً ، وينفقونه كثيراً وفيراً كذلك لبلوغ مآربهم وتحقيق آمالهم ، فعند ما نهض زعيم الصهيونية الكبير « هرزل » لينشر دعايته في ربوع العالم التقى « بالبارون دى هيرش » الذى أسس جمعية الاستعمار اليهودى وغرضها إسكان مشردى إسرائيل في بعض أقطار أمريكا وكان قد رصد لذلك عشرة ملايين من الجنيهات من ماله الخاص . ! ! ! رجل واحد ينخلع عن هذه القناطير المقنطرة كلها في سبيل عشيرته ؟ في الوقت الذى يضمن فيه أصحاب الثراء الواسع عندنا عن بذل عشر معشار ذلك في سبيل ربهم

وأمتهم ! بل في الوقت الذي تستغل فيه معارك الجهاد لاقتناص المال سحتنا من
التجارة بالسلاح المغشوش !

والعاطفة التي بعثت اليهود على أن يجودوا بأموالهم جعلتهم يمتلكون الأرض
عن طريق الشراء السهل ، قبل أن يمتلكوها عن طريق الغصب المسلح .

إنهم على البعد شرعوا يصوغون قصائد الغزل في أرض فلسطين ، ويقصدون
خصبها وجديها ، ويملقون الأفئدة بحبها والفناء فيها ، وانظر إلى أغانيهم في تعشق
الوطن المفقود « إن للحمامة البيضاء عشاً صغيراً ، وللشعب وكراً ، ولكل إنسان
وطنه ، إلا اليهود فلهم القبور ! » .

وجاء على لسان البطل في إحدى الروايات « تسأليني عن أعز أمنية عندي ؟
وجوابي : هي أرض الميعاد ! وتسأليني عما يداعب أحلامي فأقول : أورشليم !
وتسأليني عما يستهوى فؤادي ، فأقول : أنه الكفيس ! أجل ، أريد كل ما فقدناه
في سالف الزمان ، وما تهفو إليه نفوسنا ، وما جاهد آباؤنا وأجدادنا في سبيل
استرجاعه . . بلادنا الجميلة وعقيدتنا القدسية وعاداتنا البسيطة وتقاليدنا القديمة » .

هذه الحرارة التي نشيء عليها بنو إسرائيل قبل هجومهم علينا ، أين غابت عما ؟
وكيف يقاس بها الشعور البارد الميت الذي جعل أناساً من العرب يفقدون
إعزازهم للأرض التي عاشوا عليها دهوراً ، فيتركونها لخصومهم بثمن بخس ؟
أعرف أن الفتى ورجال الفقه أصدروا أحكاماً مشددة بارتداد من يبيع أرضه .
بيد أن تكوين الأمم لا يحىء عن طريق الفتاوى المخوفة .

إن الأمم قبل كل شيء قلوب تهزها العواطف الجياشة وعقول تقودها
الأفكار السليمة .

ويوم تجمد القلوب فلا تنبض بعاطفة . ويوم تقف العقول فلا تتحرك بفكرة ،
فما تراه موضع الفتوى منها ؟ .

إن المسلمين في تخلفهم الهائل عن قافلة العالم كانوا لا يدرون شيئاً ذا بال عما يقع
في أقطار الدنيا القريبة منهم بله البعيدة عنهم ! .

أكانوا يتابعون أنباء المؤتمرات التي يعقدها اليهود بين الحين والحين ؟ والتي كانت مطامعهم تثب فيها إلى الأمام وثباتاً .
كم كنت أضحك محزوناً وأنا أقرأ أن العمال العرب كانوا أحظى عند المزارعين اليهود من غيرهم ، لرخص أجورهم ! .

وأمس قرأت النبا الضخم في صدر إحدى الصحف « الجنود المراكشيون يتمردون على ضباطهم الفرنسيين » فصحت مرة أخرى أسفاً . . إن هذا الخبر لا يدل على ميلاد الحرية في شعب مسلم مستضعف قدر ما يدل - في نظري - على الهاوية التي انحدرنا إليها ، إن هؤلاء المسلمين المسخرين في بلادهم للأجانب الطائرين ، والذين استأنسوا فصاروا عمالاً لليهود ، أو جنوداً للفرنسيين هم أشبه ما يكون بقطار من الجمال البلهاء يقودها طفل . . .

لقد مرحوا في بلادهم دهرًا وهم آمنون من مكر الله ثم صحووا وقيود الهوان تغل أيديهم وأرجلهم . . .

أما ملوك المسلمين في هذه الأعصار الكئيبة ، فحدث ولا حرج ! .

حدث عن قرودة وخنازير ، لا عن رجال أمناء مسئولين .

كم كانوا يقتتلون على الإمارة ويتواطئون مع المستعمرين ليطمئنوا على بقاء الملك في بيوتهم الرفيعة ! ولو ضاعت في سبيل ذلك شعوب مسالمة !

وقبل أن نذكر لذلك المثل من قضية فلسطين نفسها ، نذكر الحوار الذي دار بين زعيم إسرائيل ومنسوب حكومة إنجلترا حين كان الزعيم اليهودي يسمى في إيجاد وطن لقومه من أربعين سنة وفي سبيل ذلك أسدى لإنجلترا خدمات جليلة تستحق المكافأة فقال له لويد جورج : إنك أديت للدولة خدمات عظيمة وأود أن أطلب إلى رئيس الحكومة أن يوصي بك عند صاحب الجلالة فيمنع عليك بوسام رفيع ! فأجابه قائلاً : إني لا أريد شيئاً لنفسى .

قال : ألا نستطيع أن نقدم لك شيئاً عرفانا لجميلك وما قدمت يدك لهذا البلد ؟
قال : بلى أريد أن تعملوا شيئاً من أجل الشعب الذي أنا واحد من بنيهِ .
كان هذا الحوار هو اللبنة الأولى في إعطاء فلسطين لليهود .

وبعد أن حدث بنيف وثلاثين سنة اجتمع برلمان إسرائيل في أرض الميعاد ليختار « حايم وايزمان » رئيسا للدولة اليهودية الأولى بعد ألفي عام !
والرجل لاريب أهل لهذه المنزلة في قومه .

وليت حكمانا - نحن المسلمين - في مثل هذا الإخلاص للأمم التي يرأسونها .
إن الجبهة الإسلامية يوم استصدر « وايزمان » ، تصريح « بلفور » كانت
تمسة سقيمة .

حاف الترك على العرب .

وغدر العرب بالترك .

وتحركت البيوت النزاعة للشرف والسيادة ! تشدد مجد أربابها وتحاول إقامة
ملك عربي لها .

كذلك فعل الملك حسين وأبناؤه بالمسلمين .

ولندع أحداث التاريخ تتكلم قال اسرائيل كوهين : سافر « وايزمان » إلى
العقبة لقاء الأمير فيصل بن الحسين شريف مكة . وكان الأمير قد أعلن الثورة
في وجه الأتراك بعد أن تصل « بمكهاون » المندوب السامي البريطاني في القاهرة
وبعد أن وعده هذا المندوب أن يحكمته تمنح ! الاستقلال للعرب الذين يقدمون
مساعات فعالة للحلفاء (كذا) .

قال اسرائيل كوهين : وادرك فيصل أن فلسطين لا تدخل ضمن الأراضي التي
ستضم للدولة العربية الهاشمية . عندما زار لندن ووقع بصفته مندوبا عن الدولة العربية
اتفاقا مع « وايزمان » بوصفه ممثلا لفلسطين !

قال : وفي ٦ فبراير سنة ١٩١٩ أشار الأمير فيصل رئيس وفد الحجاز
في مؤتمر الصلح إشارة رسمية إلى فلسطين حينما ذكر أنه يترك مسالتها ذات الطابع
الدولي ! يتولى دراستها أصحاب الشأن وفيما عدا ذلك طالب باستقلال المناطق العربية
الواردة في مذكرة وفد الحجاز !

انظر كيف يبني زعماء اسرائيل وطننا لقومهم ، وكيف يبني أمراؤنا
ملكا لأنفسهم ؟

إن الفتنة الحيرة أن يتصدى لخدمة الإسلام أناس تجردوا من فضائل الإيمان ومن فضائل الرجولة جميعا على حين يتصدى لخدمة النزعات الأخرى قوم لهم عقول للاحه وهم سباقه .

وما يكون مصير عراك تفاوتت أركانه وانصاره على هذا النحو ؟

حق تنصره الشهوة وباطل يشده الإيثار ؟

دين عطل من أولى الأيدى والأبصار وإلحاد يعينه العباقره والمهالقة ؟
إن النتيجة المخزية لا محيص منها . .

والله عز وجل لا ينصر الحق بوضوح أدلته واستقامة طريقته . ولا يخذل الباطل بموج دعوته وسوء خاتمته وإنما يبلو أصحاب الحق بأصحاب الباطل . وعلى قدر ما يبذل كلا الفريقين من جهود ونضحيات تكون النهاية الحاسمة . . « ذلك ولويشاء الله لا تنصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض » .

ويؤلمني أن أقرر الحقيقة المرة أن الرجال الذين ساندوا قضية اسرائيل في غضون قرنين وخاصة في أثناء الحرب العالمية الأولى كانوا أصحاب عقيدة وجلد وبذل .

أما الأمراء الذين وقعت أزمة المسلمين في أيديهم فقد كانوا دون ذلك ، والأمر كما قيل :

إذا جعلت أذنا بنا أروسا لنا غدونا بحكم الطبع نمشي إلى الورا

في ١٣ فبراير سنة ١٩١٩ وقف شكري غانم رئيس الوفد السوري في مؤتمر الصلح يطالب بإنشاء دولة ديمقراطية مستقلة في سوريا . أما عن فلسطين فقد صرح بأنها تعد الجزء الجنوبي من سوريا ، إلا أن الصهيونيين يطالبون بها ! ولما كان السوريون قد قاسوا من الألام مثل ما قاسى اليهود فإنهم يتركون لهم أبواب فلسطين مفتوحة مصاريحها ! وليأت كل من عانى الاضطهاد وذاق العذاب . ولتمنح استقلالاً ذاتياً على أن تنضم لسوريا في صورة اتحاد « فيدرالى » .

هل سمعت هذا الكلام السقيم وهذا التصور الخبول لتطور الحياة العامة ومطامع الآخرين في تراث الإسلام ؟

بهذا الفكر هزمت قضايانا وتقهقرت أمتنا وتضاعفت خسائرها وبهذا اللون من الزعامات السياسية عندنا سار اليهود قدما في إنفاذ برنامجهم الخطير .

وزعيم الوفد السوري يشير في كلامه إلى مآسي الحكم التركي وما أنزله بالعرب في مصر والحجاز وسوريا من هوان . . . وجدير بنا أن نقف قليلا لنمحص هذا الكلام ونستكشف خباياه ونستبين وزنه .

قد يكون من حق العرب أن ينقموا على الترك بطشهم بهم وجهالتهم عليهم . ولكن ليس من حق العرب أن يتدفعوا بذلك إلى اهدار الوطن الإسلامي العام ووحدة المسلمين الكبرى . .

إن للجنسين العربي والتركي خصائص بعضها عظيم وبعضها تافه . .

وقد حكم العرب باسم الإسلام وحكم الترك باسم الإسلام فلم يخل كلا الحكمن من أعمال تسريت إليها النزوات الصغيرة وربما كان الأتراك أشد أثره وأقسى قلوبا غير أننا لا ننسى أن استبداد سلاطينهم قد أساء إليهم مثما أساء إلى غيرهم .

وعندى أن فظاظة الترك في معاملة العرب جريمة ما كان قصاصها أن ينضم العرب للانجليز في حربهم للترك .

إن هذه الخيانة المظلمة أخذت — في ظاهرها — طابع الثأر من دولة الخلافة الجائرة . . بيد أنها في باطنها لا تعدو أن تكون مطامع أفراد دينهم هواهم ووسائلهم كل ما أمكن من حلال أو حرام .

إن تصوير هذه الخيانة بأنها ثورات شعوب مضطهدة واتها فرصة التحرر فتشبت بها أمر بعيد عن الحقيقة .

لقد أفلحت سلطة الاحتلال في مصر أن تجند نحو مليون ونصف عامل كانوا سندها في إبادة الجيش التركي في المعارك التي دارت بصحراء سيناء وجنوب فلسطين !

ووثب الأعراب المشايخون للشريف حسين على الحاميات التركية في الحرمين وأنحاء الجزيرة وأمكنهم أن يفنوها في مجازر رهيبة !

وأكل اليهود هذه السلسلة من الهزائم الشائنة . فعندما دخل النبي مدينة « أورشليم » تألفت منهم عدة فرق اشتركت في مطاردة الفلول العثمانية المشخنة بجراح الغدر والوقية . قال اسرائيل كوهن : فلم تمض سنة حتى كانت فلسطين مطهرة من العناصر الأجنبية^(١) .

وهكذا انقضى عهد الأتراك بعد أن دام ثلاثة قرون . . !

وأتى مصطفى كمال فصول المأساة فأعلن كفر الدولة بالإسلام والعرب . ونجحت سياسة انجلترا في إخراج المسلمين من هذه الحرب أمة لا وزن لها ولا مكانة .

لقد خان ساستنا القدامى دينهم وتاريخهم وحالفوا انجلترا ففدرت بهم .

ووفى اليهود لدينهم وتاريخهم وحالفوا انجلترا فاحتضنت قضيتهم .

ترى أى الفريقين كان أبصر بمواقع قدمه وأحفظ ليومه وأمسه وغده ؟ ؟

(٣)

لم يجيء غلب اليهود علينا صدفة عارضة أو معجزة خارقة أو قدرا قاهرا ، كلا ، بل جاء نتيجة متسقة مع مقدماتها كما يجيء حاصل الجمع أو باقى الطرح صحيحا فى حساب الأرقام .

كان المكس — لو وقع — وهو الأمر الذى يستحق التساؤل ويحتاج إلى ألف تفسير !!

وصحيح أن جمهور المسلمين خاض المعركة وهو واثق من كسبها ، إنه فى طوفان الخطب الرنانة والمقاتلات الحاملة لم يحسن تقدير شيء مما عند خصومه ، بيد أن قوانين الكون لا تلين مع من يجهلها . .

هب قرية فى الريف تركت الحقول من غير غرس وسقى ، ثم اجتمعت فى المسجد تبتهل إلى الله أن يمنحها ثمرا طيبا .

(١) النصوص التاريخية المثبتة هنا منقولة عن كتاب « هذى هى الصهيونية » .

أوهب جماعة من العزاب ترهبوا وانقطعوا في صوامعهم وطلبوا من الله أن يرزقهم البنين والبنات .

إن هؤلاء وأولئك ستنشق حناجرهم بالدعاء ثم تعود أيديهم صفرا . . .

ولقد أحسست — بعد بلاء طويل — أن مافاتنا في مضمار الخلق الشخصي والتعاون الجماعي ، يشبه مافاتنا في ميدان العلم المادى ووسائل الكشف والاختراع ، والصناعات والإنتاج .

ولندع علماء الحياة في بلادنا يلهمثون وراء أساتذتهم في الغرب يقتبسون منهم وينقلون عنهم . ويحاولون جاهدين أن يرقوا بأوطانهم في نواحي المعرفة وآفاق الحضارة ، لندع علماءنا هؤلاء في جهادهم الحميد ، ولنرقب يوما تشاد فيه المصانع الخفيفة والثقيلة لتمدنا بمحاجتنا الماسة إلى ما يدعم جانبنا في السلم والحرب على سواء ولتغنى فقرنا الفاضح في شئون العمران كلها ، ولتضع نهاية لقول الشاعر :

إن الذين بنى « المسلة » جدهم لا يحسنون لإبرة تشكيلا !!

نعم ، لندع هؤلاء في جهادهم ! ولنتجه — نحن الربيين — إلى ميدان آخر لا تزال تتمتع في ساقته أو مؤخرته بينما ملك غيرنا الطليعة ومضى في سباقه لا يلوى على شيء .

يجب أن نصارح أمتنا بأن حصيلتها من أخلاق الحياة الصحيحة وتقاليدها الجماعات الموقفة أُنقذت من حصيلتها في علوم الذرة . . . !!

وما بنا من عشق للأزراء على أمة نحن منها ، يزينا ما يزينا ، ويشينا ما يشينها !

إنما هي رغبتنا في الإصلاح ، وفي علاج الأدواء الدفينة ، تجعلنا نصيح محذرين أو نلكرز النيام موقظين . وخصوصا إذا كان العليل مخدوعا في نفسه ، لا يجهل علمته فحسب بل يحسبها بعض ما أوتى من قوى . .

وقديماً رأى العلماء أن الجهل المركب أغلظ من الجهل البسيط ، وأن الأدعياء — من كل لون — لا يرجى لهم خير . .

إن الأمثال تضرب لفساد « الزوتين » الحكوى عندنا ، وهذه الكلمة غطاء
لقصور أو تقصير جمهور الموظفين وتراخيهم الحزن في أداء واجبهم .
وذوولهم التام عما حملوا من أمانات ، وجروا من تبعات .
ومسلك كثير من الموظفين يظهر تقطع الأواصر بين الفرد والأمة التي نبت
فيها والدولة التي تشرف عليها .

وقد تنقلت في إدارات ومصالح شتى فوجدت العيب الأول في الموظف نفسه ،
لا في النظام المرسوم له مهما كان معقدا ، فهو يوم يريد إنجاز أمر يعنيه يوطئ له
الطريق ويسيره بسرعة البرق ، وإلا أداره في حلقة مفرغة لا يخرج منها أبداً . .
أى إن المشكلة في « الخلق » و « الضمير » قبل كل شيء .

ولما كانت أمعاء الدولة داخل هذه الدواوين الراكدة ، وبين أصابع مديري
وكتبة من هذا الطراز ، فلا عجب إذا أزمى فيها « المغص » وتعفت فيها
حاجات الناس .

وتعدو الأداة الحكومية إلى غيرها من نواحي مجتمعنا الأخرى ، فيروعك
في القرية وفي المدينة جميعاً أن المسلمين صرعى تقاليد بالية وأفكار مريضة .

فالعبادة في فهم القدر كسرت الهمم وأقعدت الآمال .
والعبادة في فهم التوكل أشاعت الفوضى وأغرّت بالكسل .

ولما كانت الغرائز الدنيا أقوى من أن تكفها الأخطاء السائدة في فهم الحياة
فقد انطلقت تخط لنفسها مجالا بدائياً يسر ارتكاب الجرائم واقتراف الدنيا حتى بلغ
عدد الجنايات عندنا حداً مروعا .

وإنك - للنظرة الأولى - تلمح الانهيار والتفكك الغالبين على النفوس
مع أن ذلك - في حكم القرآن - من أمارات الكفران والبعد عن الله « ولا تُطعْ
من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » .

وقد اضطرت - وأنا أعظ الناس أحياناً - أن أنفي القدر الذي يرادف
في أذهانهم الجبر ،

وأن أنفى التوكل الذى يعنى فى أفهامهم السكون .
وأن أنفى الرجاء الذى يجعلهم يتوقعون رحمة الله بغير عمل ، ونصره بغير جهاد .
إن تأخرنا الاجماعى يجب أن ينتهى على عجل ، وإنى أسوق هنا قصصا عرفتة
من تجوالى جنوبي فلسطين عقب محقتها الأخيرة ليقارن العقلاء بين أحوال اليهود
وأحوالنا . وليعرفوا سر انتصارهم وخذلاننا .

قال لى أحد رؤساء العشائر : خرب الدولار الذى يستخرج الماء من البئر
فى حقنا . فذهبت إلى الإخصائى اليهودى فى المستعمرة القريبة كىما يأتى لإصلاحه !
وبكرت إليه أنعجله فإذا به يقوم بأعمال موكولة إليه فى المستعمرة فوقفت أحداثه
وأتبسط معه وناولته « سيجارة » ! فأخذها ووضعها على أذنه ثم قال : إن الوقت
إلى الساعة الثانية بعد الظهيرة من حق المستعمرة فلا أحب أشغله بشيء .
وعندما أنتهى منه أذهب إليك مساء .

وحسم الموقف ليستأنف خدمة أمته ورعاية شئوننا .
ونزع يهودى من « ألمانيا » إلى فلسطين فى أثناء اضطهاد « هتلر » لقومه ،
وكان الرجل ذا ثروة كبيرة ، تركها خلفه وهو هارب . فلما تغيرت حكومة ألمانيا ،
وعوض اليهود عما فقدوا أرسلت لليهودى النازح أمواله ، وكان آتئذ فقيرا يشتغل
خفيرا فى إحدى المستعمرات .

فقال له عربى يعرفه : إن الثراء هبط عليك فجأة ، فهل ستشتري المستعمرة كلها
لتصبح مالكها ، فقال اليهودى الخفير : ما أفعل بالمال لنفسى ! إن أولادى يتعلمون
بالمجان فى المدرسة ، وقد كبرت سنى ! فسأهب هذا المال كله لشئون المستعمرة
العامة ، ولن أطلب من المسئولين إلا أن يغيروا الكلب الذى يساعدنى فى الحراسة
فقد ضعف بصره . . . !

أرأيت إلى ما نحلى به هؤلاء الناس من إثار وإخلاص ؟ ثم أرأيت إلى ما تخلفنا
نحن عنه من فضائل الكفاح وأدواته ؟

من أجل أى شيء ينصر الله الجهل على العلم والفوضى على النظام ؟ ؟
لقد كان جند الإخوان المسلمين أحسن من تصدى لقتال اليهود والدفاع عن

الأرض المقدسة . ومع ذلك فلن أنسى أبدا تفاصيل أول معركة دارت بين شباب الإخوان ومستعمرات « ديروم » وهي المعركة التي فقدنا فيها اثني عشر شهيدا من خيرة أهل الأرض إيمانا وشجاعة ، ولم تفقد فيها المستعمرة الصهيونية إلا الرصاصات القاتلة . . . ! ! ولم ؟

لقد رسم خطة الهجوم طفل كبير ، لا يدري من فنون القتال إلا قراءة الأوراد وإطلاق المسدسات فكان ما كان . . ! !

يا عجبنا ! تعوزنا أخلاق البذل والإقدام ، فإن وجدناها فقدنا مواهب القيادة الصحيحة !

لقد أسسنا مقاتلي اليهود رجال العصابات ، وكلمة عصاة تعني نفرا من اللصوص يشتغلون بالسلب والنهب ، يسطون على الأمنين . ويتحينون الفرص للغدر والفرار . . فهي على النقيض من كلمة حكومة التي ترمز إلى رياسة محترمة وإدارة نابهة ونظام واضح ! ! وعندما اشتبكت عصابات اليهود مع دول الجامعة العربية السبعة لم يتوقع المسلمون إلا أن هذه الحكومات المهيبة ستؤدب العصابات الثائرة وتسترد منهم الأرضين والأموال التي أغاروا عليها وأخذوها .

فلما التقى الجمعان علم المخدوعون أن المناوين المزورة لا تغني عن الحقائق السكريهية . إن باعة البصل ينادون عليه في أسواقنا بالزمان ، وباعة الترمس يصيحون عليه بالوز ! ! وهيئات أن ينطلي هذا الدلال على أحد . .

الوكالة اليهودية كانت حكومة مزودة بأذكي الخبراء وأقوى الجيوش وأعتى الساسة ، فلو سألت الجهة المختصة فيها عن شبر من صحراء النقب لأعطتك بيانا شافيا عن طبيعته وقيمته ومدى قربيه أو بعده عن الماء ، ولاستخرجت لك مصورات جغرافية وجيولوجية تشرح كل شيء فيه . .

أما رؤساء اليهود فهم رسامو العقائد الصهيونية وجامعو الشمل الممزق في المشارق والمغارب . .

وأما اليهود أنفسهم فقد أبنا لك طرفا من الحياة التي جمعت بينهم وصهرتهم خلقا جديدا . .

كانوا شعباً فتياً يطلب الحياة ويبنى مستقبله . .

فكيف كنا نحن ؟ اشتركت بعض دول المسلمين في القتال بقوى رمزية لأنها . .
لا قوة لها !! وقنع البعض الآخر بالدفاع عن حدوده وحسبه أن ينجو بجلده !!
والبعض الآخر كانت قيادته في أيدي أعدائه المحتلين . .

أما مصر ، كبيرة دول الجامعة ، وقطب هذه الحرب ، فقد كانت تحكمها عصابة
تشتغل بالسلب والنهب والاغتial . .

ففي ظل دستور لم تحترم منه مادة . قتلت حسن البنا ، وأهدرت دمه ! وفي ظل
دستور يجعل الشعب سيد نفسه سلبت جميع السلطات ووضعت في يد غلام عابث
يسمى صاحب الجلالة الملك . .

ورصدت الألوف المؤلفة لتحرير فلسطين ، فسرقت شطرها وشرى بالشطر الآخر
أسلحة لاجدوى منها . .

ودارت الحرب ، فرسم خططها رجال لو التحقوا بالجيوش الأخرى لجردوا من
أوسمة القيادة لأنهم لا يحسنون شيئاً أبداً . .
فوقع ما لم يكن منه بد . .

وطارت القشور التي صنعها الخداع ، فإذا بعصابات إسرائيل جيش مخدور
الفتك ، وإذا بكثير من حكوماتنا عصابات سطت على الحكم فسلبته .
وغررت بالأمة الحائرة فأهانها وأذلتها . .
كيف تبارك السماء هذه المهازل ؟ .

إن المسلمين أحوج أهل الأرض طراً إلى أن تشخص لهم عيوبهم كي ينأوا
عنها ، فإن الذين يتجاهلون الحقائق ربما دفعوا ثمن هذا التجاهل اجتياح بقيتهم
واستئصال شأفتهم . .

إذا كانت بضاعتنا الوهن والخلط والنكوص ، وبضاعة أعدائنا الجرأة والأمل
والحكمة ، فأين نربح ؟ .

إن القرآن عاب اليهود قديماً بأمور معينة ، وصف تخوفهم من الناس وحذرهم

من الخلق — مع جراتهم على الله بالمعصية — فقال : « لأنتم أشدُّ رهبةً في صدورهم من الله . . . ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » .

ووصف تقطع أواصرهم بالهوى واختلاف قلوبهم بالضعائن فقال : « تَحَسَّبُهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قومٌ لا يعقلون » .

ووصف طمعهم في أموال الناس وحرصهم على أكلها سحتاً ، فلا يردونها إليهم إلا عن إلحاح ويقظة منهم . فقال : « ومنهم من إن تأمَّنه بدinarٍ لا يؤدُّه إليك إلا ما دمت عليه قائماً » .

ووصف غرورهم بالانتساب إلى الله وأمل عامتهم في نيل النعيم المقيم دون عمل خطير وبذل جسيم فقال : « ومنهم أُمِّيُّون لا يعلمون الكتاب إلا أمانىً وإن هم إلا يظنون » .

ووصف تحاسد العلماء وغمطهم لصاحب الكفاية وتحقيرهم لما آتاه الله فقال : « ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردُّونكم من بعد إيمانكم كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » .

ووصف تحجر طبائعهم ونضوب الرحمة من قلوبهم ولعهم بالنصوص التي نزلت لهدايتهم فقال : « فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسيةً يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظاً مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على خائنةٍ منهم » . .

استقص هذه الرذائل التي أسقطت غيرنا ، ثم سل نفسك . أليست لها نظائر بيننا ؟ نظائر ؟ إنها هي بعينها . .

فر اليهود الأخلاف منها وتهاوينا نحن فيها . .

فإذا التقينا بهم في صدام عنيف فكيف يُدِيل الله لنا منهم ؟ .

والغريب أننا لا نعترف بعلمنا ونبدأ في التخلص من شؤمها .

وقف من شهور وكيل للإخوان يقول للسامعين : إن الشرق والغرب يأخذان

نظام الحياة من جماعتكم ويقتبسان الدقة من أعمالكم (!) وحملق أحد العقلاء

في صاحبه كأنه يسأله عن عقبي هذا الهراء . . إن المسلمين يُعدون جبهة مغايرة لسلطانا

الجهتين المتخاصمتين في الشرق والغرب ، ذلك بلا ريب ما تقتضيه تعاليم الإسلام ، وما توجيه آيات الكتاب والحكمة ، فافرض جدلاً أن زمام العالم أفلت من أيدي الروس والأمريكان لتتسلمه هذه الجبهة الثالثة ، ترى ما يحدث — والحالة هذه — ؟ .
إن حركة العلم والصناعة سيعروها توقف مباغت ، والدنيا المأججة بفنون لا حصر لها من المشاعر النابضة والأفكار اليقظة ستشل !!

قد نقول : لكن الربانية والفضائل والطاعات ستفتش وتشتت ، وهنا لا أملك نفسى من الضحك ! إن مسامى مصر والحجاز واليمن أمثلة حسنة ولا ريب لهذه المعانى !! وإني لأتخيل هذه الأقطار في وضعها الراهن — تحتل أما كن الصدارة في العالم ، فتأخذنى حيرة مظلمة !! ..

إن فاقد الشيء لا يعطيه ، والذين عجزوا عن تحكيم الإسلام في نفوسهم وبيوتهم وصفوفهم لهم أعجز عن تحكيمه في حدود دولة صغيرة بله حدود العالم الكبير . .
ألا فلنعرف أنفسنا ولنصلح شئوننا ، يغير الله ما بنا ، وإلا فالأمر كما قال الله :
« وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم » . .

(٤)

في هذا الجزء المنكود المنزع من وطننا الكبير يحاول بنو إسرائيل ترسيخ أقدامهم ومضاعفة قواهم .

وإنهم ليقبعون وراء الحدود الموهومة التي أحاطوا بهادولتهم لا ينقصهم جد ولا عبوس ، يتأهبون ليوم آخر قد تفكش فيه هذه الحدود حتى تتلاشى وقد تنسع حتى ترضى أمانى الغيرين الغامرين .

وطالب الملك لا يأسى على مغرم ولا ينكص عن تضحية .

وكما قال امرؤ القيس قديماً لصاحبه :

فقلت له : لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنموت . .

وعلى أطراف الأرض التي اقتطعها اليهود والتي لا تزال الدماء تقطر من حزّ السيف في تمزيقها .

على هذه الأطراف المحزونة يسكن العرب اللاجئون . أصحاب البلاد
الطرودون ، وقد بلوا بأشياء كثيرة من الجوع والخوف ونقص الأموال
والأنفس والثمرات .

إننى عشت معهم ليالى وأياما ، عرفت فيها نفوسهم عن قرب ، وسمعت أزيز
البكاء الذى يغلى فى أجوافهم لغدر الأقارب والأبعاد بهم ، وخسونة الحياة التى سحقت
كرامتهم وأكرهتهم أن يتسولوا الإعانات من قاتليهم وكانوا قبلأهل جاه ومنعة ..
فبينما نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نتنصف
فأفّ لدنيا لا يدوم نعيمها تقلّب تارات بنا وتصرّف

كنت بعيداً عن أَسْرَتِي . فكلمنا أقبل ولد من بعيد نفرست فيه ملامح أولادى
وكما انتحب طفل على ذراع أمه التى أنحفها الفقر الدائم وجَفَ فؤادى . وقد أقارن
بين أولئك اللاجئين الحيارى وبين أهل الاسكندرية عند ما فروا من الفارات فى
الحرب الأخيرة فخرج النساء والأولاد والرجال يطلبون النجاة فى المدائن والقرى من
الرجوم المهلكة التى تهددت مدينتهم . . .

لكن الفرق بعيد ، إن أهل الاسكندرية وجدوا إخوانهم فى أنحاء الوادى
يخففون روعهم ويسكنون جأشهم . أما أولئك اللاجئون فهم محبوسون فى مخيماتهم
لا يدرون ما يأتى به الغد فرب رجل جثا بعد مهابة ، وأم تبذلت بعد احتشام ،
أما الأجيال الغابئة فى هذا التيه المائج فإن الخططة المرسومة لها أن تنمو وليس لها
صلة بأرض ولا ثقة بأهل ، ولا رضا فى حاضر ولا أمل فى مستقبل ، وهل يدع سمار
الحرمان فسحة فى قلب أو فسحة من وقت لشيء من هذا . .

إننى لا أعجب لشيء عجبى لأن اللاجئين بقوا إلى اليوم أحياء مع أن الاستعمار
الغربي هياكل كل شيء للإجهاد عليهم وإسلامهم لموت محقق . .

وما عقبى التحسر وما جدواه ؟؟ إن اليهود ماضون فى إعدادهم الرتيب القوى
للجولة المرتقبة ، وسوف يدفعون فرقهم يوما ما لتنازلنا فى موقف حاسم ، وليس

أمامنا إلا أن نلقاهم ، فإما كشفنا السواد الذى صبغ وجوهنا بالعار ، وإلا . فبطن الأرض خير لنا من ظهرها . .

والدول العربية التى تحقق بإسرائيل لن يعجزها أن تحمى ذمارها وأن ترد الغزو الصهيونى من حيث جاء . .

بل إن دولة واحدة فحسب من دول العرب الكثيرة يجب أن تضطلع بهذا العبء واليهود فى البقعة التى احتلوها لن يزدوا عن مليونى نفس فهم لا يضاهئون أقل دولة عربية من حيث العدد !! إلا إذا اعترفنا فى صراحة أن الجنس الإنسانى قد انحدر فى دمائنا وخصائصنا إلى هاوية لا تغنى معها كثرة العدد واتساع الرقعة ، وقرب الوسائل وإمكان النجاح . . . !!

من الصدف العجيبة أن يقع فى يدي مقال رائع صادق كتبه الأستاذ « أحمد رمزى » قبل معارك فلسطين الأولى ، وشرح فيه سياسة « الصهيونية » فى كفاحها ضد العرب وأسباب الغلب التى استجمعتها قبل أن تسدد إلينا ضربتها .

وأجندنى منساقا مع الكاتب الصادق إلى ترديد العبارات والمعانى التى هتف بها من بضع سنين ولم تجد وعيا صحيحا يتلقفها ويجعل منها نبأسا . . .

إن اليهود لم يربحوا الجولة الأولى ضد أمم العروبة مجتمعة لأن ملائكة السماء نزلت تعينهم ، أو لأن الخوارق القاهرة صنعت من أجلهم ، فقد علمت أن انتصارهم جاء وفق سنن مطردة ، وأن الوسائل التى رجحت كفتهم عادية بحتة ، وأنا يوم نعمل مثل ما يعملون ونجهد مثل ما يجهدون فلن يقر لهم قرار . . .

والحرب فى هذه الأعصار نضال شامل تحشد فى سبيله طاقات الشعوب كلها مادية ومعنوية ، ونظرة عجيلى إلى مالدى الصهيونيين من عناصر القوة ترينا ما ينقصنا قبل أن نتعرض لنتائج جولة أخرى ، وما ينقصنا الآن يتصل بكياننا الاقتصادى ، وإنتاجنا الصناعى ونهوضنا النفسى والعلمى .

وسأنقل العبارات المطولة التى وصف بها الأستاذ أحمد رمزى أسلحة

اليهود في صراعهم الخطير ضد أمتنا وديننا لعلنا نعرف منها ما نفتقر إليه من عدة الفوز .

قال عن الاقتصاد الصهيوني :

إنه ينفرد عن غيره بأشياء .

(١) بمزية الاعتماد على رءوس أموال طائلة لانحاسبه ، أى يفترض أنها تنفق في أعمال الإنشاء الضخمة فليس يراعى فيها نسب الدخل المعتادة ، بل لا تحسب للخسارة حسابا . فهي من قبيل الأموال التي ترصدها الحكومات لإحياء الموات من الأرض من غير نظر إلى فائدة عاجلة أو منتظرة .

والمفروض أن تبقى الأوضاع كذلك مادام العمل سائرا في طريق تحقيق وتوطيد الوطن اليهودى وغرس مظاهر الحياة فيه .

(٢) ثم ينفرد الاقتصاد الصهيوني بمزية لا نظير لها في الشرق العربى وهى سيره على خطة مرسومة وبرنامج منسق للشئون العمرانية المختلفة ، زراعة كانت أم صناعية بناء على نظرة إيجابية ودراسة شاملة ولا يعمور هذا السير تبديل أو تغيير إلا وفق ماتمليه التجارب الحاسمة ، ثم قال الكاتب :

« حينما سارت الوكالة اليهودية فى سياستها نحو دعم الاقتصاد الصهيونى معتمدة على هذه الميزات وضعت نصب أعينها من المبدأ الأخذ بأساليب التعمية الاقتصادية الشاملة : فهى فى كفاحها الإنسانى سواء فى الناحية الزراعية أم الصناعية ، لم تعرف يوما ما مواجهة البطالة أو الإضراب ، لأن هذا الاقتصاد لم يؤسس على قاعدة العرض والطلب ، أو الخضوع لرغبات الأسواق ، ولم يرم إلى استيعاب العناصر الفلسطينية اليهودية وإيجاد العمل لها فحسب ، بل بنى وعمل على استيعاب قوات متزايدة متلاحقة من هجرة مستمرة لفئات من العمال اللاجئين روعى فى اختيارهم وتشجيعهم للهجرة تحقيق أهداف اقتصادية معينة .

فالاقتصاد الذى بنيت أسسه على هذا التوسع الإنسانى والذى لا يمكن حصر مداء أو تحديده جاء قويا ومتشعبا لدرجة أنه حقق هدفين باستمرار ... هما :

١ — إبعاد اليد العاملة العربية إبعادا تاما عن المنشآت اليهودية بأكملها .

٢ — إيجاد عمل مستمر دائم لآلية مجموعة من العمال تأتي من الخارج .

ولقد نجحت هذه الآلة المحكمة في السير بانتظام لمدة عشرين عاما بدون أن يعتورها ما يقفها عن تهيئة العمل لعشرات الآلاف من هؤلاء ومع تمسكها بمبدأ دفع اليد العاملة العربية بعيدا عن المصانع اليهودية والمنظمات العمالية تغلبت على الهزات الاقتصادية المختلفة ، سواء كانت محلية — أى مصدرها حركات عربية ، مثل المقاطعة أو الإضراب العام — ، أم كانت من تصرف سلطات الانتداب وجودها بسياستها وتشريعاتها ونوم مشاريعها المختلفة في وزارة المستعمرات البريطانية .

أقول :

وهكذا تماوت القدرة المادية والكفاية الأدبية على إنهاض الاقتصاد اليهودي وجعله أداة طيعة في أيدي بناء « إسرائيل » .

ولك أن تسأل . هل كنا نستطيع أن نطوِّع بالصدقات لإقامة اقتصاد عربي في فلسطين كما فعل يهود العالم وهم ملوك المال ؟

والجواب : نعم إن الله وضع في بلاد العرب من البركة ، وأفاء على أهلها من الأموال ما يجعلهم أملاً أهل الأرض غير أن التبذير المهلك في فنون اللهو جعل ما امتازوا به من فضل يذهب سدى كما تذهب أموال الفيضان في أعماق البحر المتوسط .

أين تضع أثمان « البترول » السيال من يقايح الجزيرة ؟

كم أنفق الإقطاعيون من أثمان القطن في ملاهى « أوروبا » ؟

إن المال في الشرق كثير لكن الشهوات أكثر ، ومن ثمَّ تبدد في مواطن العبث ما كان ينبغي أن يتحول أرصدة للإنشاء والتعمير . . . !

وإننا نرحب بكل ثورة تختم هذه المآسى ، وتقيم على الانقراض الأولى صرحنا الاقتصادي الجديد .

ولنعلم أن استمدادنا الحق لن يبلغ تمامه إلا إذا صحب توفير الأموال حُسْنُ

توظيفها وبذل الجهد في الاستفادة منها ولا حرج علينا إذا استعنا بأولى الخبرة من الأجانب في هذه السبيل .

انظر إلى الأستاذ أحمد رمزي وهو ينصح العرب قائلًا : على الذين يقدمون البذل والعطاء أن يتعرفوا الحقيقة الماثلة أمامهم في حياة صهيون الجديدة فيعلموا أن اليهودى القادم إلى فلسطين لا يدخلها كمتحق في وقف خيرى جاء ليحيا حياة الصديقين بل يدخلها كحارب جاء ليحيا حياة المكافحين ، وليُسهم في إنشاء هذا العالم الجديد حيث يعتمد الفرد على الجماعة ، وحيث يحيا المجتمع اليهودى معتمدا على نفسه مستقلا عن جيرانه العرب ، وعن حكومة فلسطين .

أصبح هذا المجتمع يدور حول فكرة واحدة ، وتحركة عقيدة واحدة ، وعقلية واحدة تملخص في العمل على إنشاء هذا الوطن في هذا العالم الأرضى لا في العالم الآخر ، وأن يكون إخراجهم من صنع أيديهم لاعتمادا على معجزات التوراة ونبوءات أنبياء بنى إسرائيل .

هذه هى القوة الدافعة التى لازمت العمل في المبدأ والنهاية ، وستلاحقه في السلم والحرب ، وستلازمه في الهزيمة والمطاردة ، والدفاع والهجوم .

والحديث عن الصناعة في الشرق الإسلامى يخزى له المرء ، ويندى له الجبين ! ! فنحن في هذه الناحية الجلييلة من حضارة العالم الحديث لا نزال نحبو في دنيا يحوب أقطارها المالقة ، وبين أيديهم وأرجلهم وعن أيمانهم وشمائلمهم ، نتاج يهر العقل والبصر ، من بدائع الآلات والمحركات . .

وأحسب أنه لو كان للتفوق الصناعى — في عهد الصحابة الأولين — من الخطر ، مثل ماله في عصرنا هذا — لعلمهم النبي صلى الله عليه وسلم إدارة الآلات ، كما يعلمهم السورة من القرآن . . .

إن تطور الحياة يجرى بأسرع مما نتصور ، والشعوب التى تفقد المهارة الصناعية ، وتمجز عن تشكيل موارد أرضها ومواهب بنيتها وفق مقتضيات التقدم الهائل الذى أحرزه العقل الإنسانى أخيرا ، لا يمكن أن تجد لها مكانا كريما ، بل لا ينبغي أن يكون لها هذا المكان . .

ومن المؤسف أن صناعة السيوف عرفت في اليمن على عهد الجاهلية ، وتعنى

الفرسان بما في الصفائح اليمانية من قوة وبريق ! ولا أظن لهذه الصناعة وأمثالها
أثرا اليوم . . في حين تقذف المصانع بأدوات القتال في الشرق والغرب فنقف
أمامها حيارى مشدوهين .

إننا لم نقف حيث انتهينا ثم سار غيرنا !

لقد مضى غيرنا إلى غايته ورجعنا نحن القهقري .

واليوم دخلت الكهرباء البيوت لتغسل الملابس وتسخن الماء وتبرّده وتضيء
الحجرات وتكسبها ، ووسائل ذلك كله بعيدة عنا . تستورد من الخارج .

أما وسائل النقل فقد تشعبت وبلغت شأوا بعيدا من الجودة، في البر والبحر والجو .
ولا يزال في بلادنا من يشدُّ وراءه عربة تحمل البضائع ، وكأنه بدل دابة (!) .
ومصانع الغرب هي التي تغمر الأسواق بهذه المحركات . .

وقد شرعت مصر - بعد سنين من معارك فلسطين - تقيم المصانع الأسلحة الصغيرة .
وكان المفروض قبل أن يعتمد الجهاد الإسلامي على صناعات الكفار (!) .

أليس من حق الدنيا أن تضحك منا ؟

لقد أغار علينا اليهود وإنتاجنا الصناعي في درجة الصفر . فانظر ما يقوله الأستاذ
أحمد رمزي في وصف قوى اليهود الصناعية قبل الجولة الأولى ! ! .

« وفي اجتماع عقده حاكم الجزء الشالى بمدينة حيفا ، صرح اتحاد أصحاب المصانع
اليهودية أن الصناعة الصهيونية مستعدة لمساعدة الإمبراطورية البريطانية بكل قواها
وأنها تلبي طلبات وسائل الدفاع اللازمة للجيش البريطانى ابتداء من خطوط التليفون
وآلات التراسل والمتاريس والحصون الخفيفة والسيارات المدرعة وصهاريج المياه
وأدوات البناء وغير ذلك من لوازم الحرب ، وكان من نتيجة هذا أن وضعت الأراضي
اليهودية في المناطق العربية البحتة تحت تصرّف الجيوش ، وأنشئت عليها المعسكرات
البريطانية وغيرها ، وهي المستعمرات المحصنة التي قاومت العرب ، ولولا الحرب
ما وصلت طلائع الصهيونيين إليها وما جرؤوا على زراعتها واستغلالها .

وحققت هذه السياسة ما يأتى :

- ١ - الاطلاع على أسرار الجيوش المحاربة وحاجاتها .
- ٢ - تسلم معسكرات كاملة الأهبة والتحصين عند نهاية الحرب .
- ٣ - الحصول على المواد الخام لصناعاتهم باعتبارها من ضرورات الحرب .
- ٤ - أن الصناعات التى كانت تمون الجيوش الأجنبية ، أصبحت تمون قوات الدفاع اليهودية ضد العرب بأحدث معدات القتال ولا تحتاج إلى الخارج للحصول عليها .

ثم إن هناك حقيقة يجب أن نذكرها تماما وهى أن الصهيونيين ينظرون للشعوب العربية والشرقية كافة ، نظرة الأوربي إلى الشعوب التى لم تنضج بعد ، ولم تستكمل وعيها أو فهمها لحقيقة الأشياء أو التى إذا فهمت بعض الأشياء تفقصها وسائل التنفيذ ، وإذا بدأت فى خطة أو عمل شغلها أشياء كثيرة عن إتمامها .

إذن فالدوافع الكبرى فى نفسية الشعوب العربية غير دأمة ولا مستقرة ، فى نظرهم وقدرة القادة على مواجهة الأمور قاصرة ، وهذا ما يجعل أطعاهم فى سيادة هذا الشرق غير محدودة ، وهم يعتقدون أنهم سيرثون السيطرة الأوربية على بلادنا . ونحن نجاهر بأن القول بإخفاء هذه الحقائق عن الشعوب جريمة لا تغتفر . بل يجب أن نذكرها باستمرار .

إننا إزاء قوة تتطلب حشد كل ما لدينا من وسائل ونُحتم علينا أن نقف لمحاربتها بعقل وفكر وإرادة ، ولا يكون ذلك بغير العلم : العلم الذى هو قوة ثورية هائلة والذى يمكن صاحبه من القدرة والغلبة والانتصار . نعم سيكون العلم سلاحا قاطعا فيصلا لحل مشاكنا معهم .

ولقد تعلمنا أن الظروف المحيطة بنا لا تخلق حسب أهوائنا حتى نحل متاعبنا ومشاكلنا طوع إرادتنا ، ووفق أهوائنا .

إن هذه الظروف نتيجة تطور بعيد المدى ، وإن الوصول إلى نتائج ثابتة ، يقضى بدراسة كل حالة وتعرفها ، على طريقة منظمة ، وتبعاً لمنهج منطق تحليلي ، فالحوادث كلها يجب أن تدرس :

حوادث الماضي والحاضر والمستقبل ، ولو كانت نتائج الدرس ضد ما ألقناه ،
ولو كانت أحكام البحث تحملنا مسؤولية الأخطاء التي فرطت منا .

إن المنهج هو القوة الوحيدة النهائية الفاصلة التي لا تحد ، والتي لا يمكن أن يقف
أمامها شيء في الوجود من غير أن نجد له حلاً .

وقضية فلسطين أمام العمل والمنطق والمنهج العلمي يجب أن نجد لها حلاً ،
والحل القذ هو التغلب على الصهيونية ، ولا شيء غير ذلك .

إننا إزاء نكبة من أكبر نكبات التاريخ ، تتمثل في تعريض مليون عربي
للهجرة من بلادهم .

إن القوات التي تحف على فلسطين بقلوب عامرة وتأتي من البر والبحر والجو ،
طلباً للشهادة في الأرض المقدسة التي وعدنا بها ، تقوم بدور تاريخي فاصل :

إنقاذ عروبة فلسطين ومنع العالم العربي من أن يشطر إلى شطرين .

وأهم من ذلك إثبات حق العرب على أرضنا وبلادنا ومنازل الوحي عندنا .

إنها عقل وإرادة وعقيدة وإيمان . وهي في روعتها توحى بكلمة موسى عليه السلام .

أنصت أيتها السموات فأتكلم . . . إنني إذا سللت سيفي البارق .

وأمسكت بالفضاء يدي أردُّ نعمة على أعدائي وأجازي مبغضي .

إني أرفع إلى السماء يدي وأقول حيُّ أنا إلى الأبد .

نعم حقنا حي إلى الأبد والعروبة حية إلى الأبد .

ذاك ما كتب من سنين نعيده للاعتبار والعمل الصحيح .

ضد الاسـلام

[إن أقلاما شتى تحارب الإسلام نفسه .
تحت ستار من محاربة التمسب]

(١)

من حق العقلاء أن يعقّوا الدين وينبذوا تعاليمه يوم يكون الدين مرادفاً لمجود الفكر وقسوة الطبع وبلادة العاطفة ! ويوم يكون استيلاؤه على زمام الحياة عودة بها إلى الوراء وانتكاسا عن الجادة وتغييرا لفطرة الله في النفس ومنطق الحق في الجماعة !! أجل إنه يومئذ لن يكون ديننا من عند الله ، بل أهواء من عند الناس ، ولن يكون السير عليه تقوى ومثوبة بل معصية وعقوبة . . .

إن الله عز وجل أبرُّ بعباده من أن يتركهم على غير شرع ، وأبرُّ بهم من أن يشرع لهم العنت والعسر ، والكبت والقهر . . .

وعندما بعث الله نبيه الكريم محمداً صلى الله عليه وسلم جعل رسالته مدداً لقوى الخير والنماء بعدما كادت هذه القوى تضمحل أمام شرور الوثنيات الطاغية ، الوثنيات التي ألغت عقل الإنسان في أفق العبادة ، وألغت حريته في ميدان السياسة ، وجعلت للخرافة محاريب مهيبية وسلطات مقدسة « تالله لقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك ، فزین لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليومَ ولهم عذابٌ أليمٌ . وما أنزلنا عليك الكتابَ ألا لتبیین لهم الذي اختلفوا فيه ، وهدى رحمةً لقوم يؤمنون » .

ولذلك زحَّب — نحن المسلمين — بأية حرب تعلن على الكهانة ، لأن بواعث الإيمان الصحيح هي التي تثيرها ، أو بواعث السخط على الجهالة المغرورة . والأولى حقٌّ يرضى الله ، والأخرى عقل يؤيده الواقع .

إن الذي يكفر بالأصنام أحد رجلين ، رجل آمن بالله فجدد الطواغيت ، أو رجل لمّا يعرف الله بعد ، بيد أن له عقلاً يعزف به عن الخنوع لمسخ من هذه الأرض . ولو أن أصحاب الشهوات والمطامع نفّسوا عنها في جو صريح سافر لكان ذلك منزلة من الفساد أدنى من غيرها .

أما أن يتخذ الدين ستراً لهذه الدنيا فإن الخطب جسيم . وقد حذر الله المؤمنين من مسلك الكهان الذين عرف الدين في سماتهم البارزة ولم يعرف في شئائهم وأفعالهم فقال « يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله » .

فالشيمة الأولى في الداعية ، التجرد والإخلاص . . .

والشيمة الأخرى الدلالة على الله بحاله ومقاله . . .

فإذا فقد الأولى ، بأن أغرته المنافع العاجلة فأقبل على أموال الناس يفتالها وإذا فقد الأخرى ، بأن هبت من سيرته رياح تفرد منه وتبغض الناس فيه وفيما جاء به ، فهو كاهن حطر ، يدل على الدين بلقبه ووظيفته ويصد عنه بعمله وطبيعته !!

وأولئك هم الذين كلف إمام المرسلين بمجافاتهم وتهييب الجماهير من اتباعهم كما كلف المسلمون في كل عصر بالبعد عنهم ، لأن الإسلام غريب عن هذه الالتواءات النفسية كلها .

أنه طهر في العقل والقلب ، ونور في الخلق والسلوك .

واصطلاح مع الفطرة ، واستقامه مع العدالة والنزاهة . . .

وقد فرضت طبيعة الإسلام نفسها على تاريخه الطويل ، فلم تظهر بأرضه طبقات للكهانة ، ولا مجامع للمحترفين الذين يصنعون من ذواتهم همزة وصل بين الأرض والسما . . .

ولكن لما كانت الكهانة طبيعة في بعض النفوس التي تجيد المداينة والمداورة فإن شئون الدعوة والدولة معا ، لم تبرأ من رجال يخلطون نيات الجهاد بأعمال السوء ، ويعملون لأنفسهم وهم يزعمون أنهم يعملون لله .

وليست هذه هي الساعة التي نهى فيها حسابنا مع هؤلاء ، بل نحن في هذه الكلمة نحاسب قوما آخرين !!!

ذلك أن بعض الكتاب الحاقدين على الإسلام اهتبل الفرصة السانحة ، فرصة الوهن الذي أصاب دعاة الإسلام في هذه الأيام — على ما توهم — فشرع يكيد للدين نفسه ، وينال من حكمه السابق واللاحق ، وتاريخه القريب والبعيد . . .

وأنا أفهم أن يعنف بعض المخطئين في جنب الله ، وأن يثار الغبار على تصرفهم الريب ، غير أن النفاذ من ذلك إلى تحقير الإسلام وإبعاده عن ميدان الحياة — كما حاول أولئك الكتاب — أمر دونه خراط القتاد . . . !!

والمعجيب أن خصوم الإسلام يبدون أمام الناس وكأنهم سدة التطور الواسع في أساليب الحياة وغاياتها ، وعشاق المعرفة الشاملة والتجديد البعيد .

وأن ركزهم في نبذ الماضي بما حوى من دين وتقاليد هي احترام العقل وحده والاعتراف بما يقر ، وهجران ما ينكر .

أما الإسلام ودعائه فهم في واد آخر ، لا يُحسّون هذه الیقظة الإنسانية ولا يرجحون بأشعتها الفاعرة .

ويعلم الله أننا أرحب عاطفة نحو الحياة والأحياء من هؤلاء الأعداء ، وأن الحضارة التي يُشيد الفتونون بمفاخرها ما خطَّ مجراها في هذه الأرض إلا ظهور الإسلام وإزاحته للعوائق التي صنعها الكهان القدامى أمام العقل والفترة . . .

ولا يزال الإسلام يوثق العلائق بين الإيمان والفكر ، ويجعل العقائد الصحيحة هي الحقائق الثابتة ولا يزال يزين البشر بالتقوى ويقوّمهم بالسعى وحده !!

ونحن نعلم أن الخصومة التي تسود ضمائر البعض ضد الإسلام عِلَّتُها الدفينة هي الجهل الأعمى أو الحُجود المكابر ، وأن محاولة القضاء على هذا الدين إنما ينشط فيها أقوام يعملون سرا أو علنا لجهاز سوف نكشف عنها هنا . . .

نكتب ذلك تعليقا على ما نشره الأستاذ سلامة موسى في جريدة الأخبار بعنوان « العراق يستيقظ . . » قال :

العراق ينتقل من سبات الشرق إلى يقظة الغرب .
فإن الدكتور على الوردي يمثل في بغداد من المبادئ والأهداف والأساليب ما يمثلُه عندنا خالد محمد خالد .

كلاهما يحمل على العادات الذهنية والماطفية القديمة التي أصبحت « تقاليد » ويحاول أن يوضح زيفها وأنها تعارض الحياة العصرية .

وكلاهما يحاول أن يضع الحقائق مكان العقائد .

أقول هذا عقب قراءة لسكتاب « وعاظ السلاطين » الذي ألفه الدكتور على الوردي . فإنه أشبعني فهما وروى عطشى إلى الحقائق وخلاصة الكتاب

إن ما نعرفه أو نظن أننا نعرفه عن تاريخ العراق إن هو إلا وهم وزيف وأن الخلفاء العباسيين والفاطميين لا يختلفون عن الخلفاء العثمانيين في حياة الفسق التي عاشوها وفي المظالم التي أوقعوها بالشعب .

فإنه يذكر لنا أن المتوكل العباسي كان يملك أربعة آلاف جارية وكان الخليفة الفاطمي يملك عشرة آلاف جارية وخادمة . وكان عند أخته « ست الملك » ثمانية آلاف جارية منها ألف وخمسمائة من الأبقار . . .

وكان عند الرشيد ألفان من الجوارى . . وطرب ذات ليلة فنثر على الحضور ستة ملايين درهم . كل هذا كان الرشيد يأخذه من أموال الدولة . ولا يبالى بعد ذلك أن يذهب إلى الواعظين يستمع إليهم ويمسك بين يديهم .
كلمات كأنها كي الغار . ولا بد أنها ستوقظ النائمين الذين خدرتهم كتب المؤرخين الزائفة والذين لم يسألوا قط :

من أين جاء هذا الخليفة بهذه الأموال ؟

نحن في حاجة إلى عشرات من المؤلفين أمثال خالد محمد خالد ، وعلى الوردى . وما نشره كذلك بالعدد نفسه تحت عنوان « قبل مائة سنة » يندد بعهد الخلافة ويوغر عليه - وحده - حفاظ المصريين ، حتى لا يذكروه إلا ساخطين .

قال : في مثل هذا الشهر . قبل مائة سنة - كان شبان من مصر فلاحون ومدنيون . من طنطا ودمهور والمنيا وسائر المدن والقرى ، يلقي القبض عليهم ثم يحمل كل منهم بندقية ويساق إلى الباخرة أو السفينة في الإسكندرية ، وتقلع بهم إلى حيث لا يعرفون .

ثم ترسو الباخرة أو السفينة في ساحل القرم عند سباستوبول التي أخبرنا تولستوى أنه حارب فيها . ويطلب من شبابنا الفلاحين والمدنيين أن يقاتلوا الروس حتى يمنعوهم من الدخول في البحر المتوسط ومن الاستيلاء على الدردنيل .

ويقاتل هؤلاء الشبان المصريون وهم يجهلون دلالة هذا القتال . وكل ما يعرفونه أنهم يدافعون عن السلطان في استنبول .

وما زلت أذكر ما كتبته الدكتور شبلي شميل حوالى ١٩٠٥ وكان من الذين يبصرون بمقولهم . فقد روى أن قائداً تركياً طلب من هؤلاء الشبان المصريين أن يقتحموا موقعاً روسياً منيعاً . فاعترض عليه ضابط آخر وقال : إنهم لو اقتحموه لقتلوا جميعهم .

فكان جواب القائد التركى : هل نحن أخذناهم بعدد ؟ واعتقادى أنه لم يعد مصرى واحد من الذين اشتركوا فى حرب القرم إلى مصر . والأغلب إن الذين لم يقتلوا تركوا فى تركيا يبحثون عن قوتهم . وحوالى ١٨٨٠ علق اللورد سولزبرى على حرب القرم فقال : إننا أخطأنا وقامرنا على الجواد الخاسر . إذ كان يجب أن نتفق مع الروس ونعطيهما الدردنيل ونأخذ نحن مصر .

قال هذا قبل الثورة العربية بسنتين . ذلك تلويح أنكى من التصريح فى الحملة على الإسلام وتشويه تاريخه وتمزيق أمته الكبيرة ، وتصيد الشبه لتحقير حكمه ، والحيلولة دون عودة أتباعه ، إلى سياسة موحدة تملئها مصلحة بنيه ، والدود عن كيانهم . وقبل أن نعرض للوقائع التى ساقها سلامة موسى نحب أن نبين لحساب من تدار هذه المكاييد ؟ أى لحساب نهضة مدنية بحتة ، لاصلة لها بالأديان جملة وتفصيلاً ؟ أم هى لحساب جهة معينة ؟ .

والجواب ننقله من كلام « سلامة موسى » نفسه فى كتابه « التثقيف الذاتى » قال ص ٨٥ : « منزلة بيروت أنها كانت منذ أكثر من ثمانين سنة مقر جامعتين هما الجامعة الفرنسية والجامعة الأمريكية . هذا غير عشرات المدارس التبشيرية فى المدن والقرى الصغيرة ، لأن اللبنانيين لم يمارضوا التبشير فانتفعوا بهذه المدارس » . . وقال كذلك : « وما فعلته حكومة الهند من منع المبشرين ، قد فعلناه نحن شعباً وحكومة . ولو أننا تسامحنا — كما فعل اللبنانيون — لكان فى أنحاء بلادنا نحو ألف مدرسة راقية ينفق عليها الأبرار من الأمريكيين وغيرهم » .

وغير الأبرار من الأمريكيين هم الأنقياء من الإنكليز والصالحون من الفرنسيين وأهل الورع والإيثار من سائر الدول المستعمرة الأخرى ! .

هل عرفت إذن سر الحملة على الإسلام ووحدته وحكومته ؟ .

هل عرفت لحساب من تستخدم كلمات التجديد والتطور والعلم والحضارة وغيرها ؟

لحساب الصليبية الغربية ذات التاريخ الناصع والأهداف المبرأة . .

كما يقضى على الإسلام ذى التاريخ الكالح والأهداف السيئة ! .

ينعى هذا الكتاب على مصر أنها لم ترحب ببعثات التبشير في ربوعها وهو قد

سره — بداهة — ماتفعله بعثات التبشير في جنوب السودان .

ولعله بسيرته — العطرة في مصر — يحقق في شمال الوادى ما عجز المبشرون

عن القيام به .

ولعل منزلته المرموقة في جماعة الشبان المسيحيين ومقالاته الحارة التي نشرتها له

قديماً جريدة « مصر » لعل ذلك كله هو التجديد والتطور ، والدعاية المحببة للحضارة

الحديثة والنزعات التقدمية الحرة . .

أما وقد أفصحنا عن خبيثة هذه الحملة ضد الإسلام فلنلق نظرة عجيلى على

ما ذكره هذا الكاتب .

إنه يريد إيهامنا أن التاريخ الإسلامى قرابة ألف عام كان ليلاً طويلاً وأن الدولة

العباسية لا تقل فسقاً عن الدولة العثمانية . .

ونحن ندل القراء جميعاً على كتب التاريخ ليقارنوا بين أحوال المسلمين

وأساليب الحكم فيهم وبين أحوال الصليبية الغربية وما أوقعته بالخلائق من مناكر

وما ثم ضجت لها الأرض والسماء .

وسيرى أى قارى ذى لب أن دويلات الممالك كانت أتره يداً وأعف نفساً

وأرق فكرة من الدول الضخمة التي بناها البابوات والأباطرة ، فكان علاجها

للامور سببة في فن الحكم إلى قيام الساعة . . .

ونحن نستمسك بهذه المقارنة لأن قاهرى المسلمين في العصر الحديث والكتاب

الذين يمحرون بالإسلام وأمته لا يزالون يفخرون بنسبهم القديم ، ويجعلون من الاستعمار الجديد امتداداً للصليبية الأولى . .

فما معنى أن يجرحوا تاريخ الإسلام ويصطادوا له المعاييب في الوقت الذي يسكتون فيه عن تاريخ أسلافهم وهو سلسلة من الوحل والبعر مهما لُفَّت في أوراق مفضضة فرائحتها القدرة تدل عليها ! .

لفرض جدلاً أن قصر أحد الخلفاء حفل بمائة أمة . .

فلماذا يذكر هذا في الوقت الذي ينسى فيه أن البابا الأقدس في تلك الأعصار السحيقة كان يضاجع ابنته وغيرها من الفتيات الأبنكار والزوجات المحصنات ؟ .

وأى الرجلين يلوث به تاريخ أمة ؟ ويصرف به الناس عن اتباع دين ؟ .

لكن الكاتب الناقم على الإسلام يريد طرح ألف سنة من تاريخه بعد أن يرسل حكماً عاماً على خلفاء بني العباس بأنهم فساق تخلفاء بني عثمان ! .

هل هذا منهج الأستاذ سلامة موسى مع الإنكليز ؟ .

اسمع إليه يقول في ص ٢٤٠ من كتابه « تربية سلامة موسى » : أخشى . . أن يعتقد القارئ أنني أكره الإنجليز أو أن يؤدي ما ذكرته إلى أن يكره الشعب الإنجليزى ، فإن هذا الشعب من أنبل شعوب العالم ، وما أستمتع به أنا من ثقافة أوقيم سامية يمزى معظمه إليه . .

إنما أكره الاستعماريين الإنجليز هؤلاء الذين يهبون الشعب البريطاني ويدلونه بالفقر والجهل كما كانوا يهبوننا ويدلوننا ! .

هذا الكلام العدل الرحيم هو التصوير الواجب لما ينبغي أن تكون عليه مشاعرنا نحو الإنكليز .

أما الحكام المسلمون قاطبة فهم شر مستطير ، ورجعية مقيتة .

وبهذا المنطق يذكر الكاتب التقدمي أن دولة الخلافة جندت الألوف منا لمحاربة الروس يوم كانت مصر تابعة لها .

وتجنيد المسلمين لنصرة إخوانهم مأساة تستحق التسجيل والسخرية بعد مائة سنة من وقوعها ! .

أما ما جندته انجلترا من أقطار الدنيا لتأييد مطامعها الاستعمارية فأمر لا يسوغ ذكره ولو هلك فيه من مصر وحدها نحو مليون نفس ، عدا الذين هلكوا من الهنود والزنج وغيرهم !

إن هناك لفيقا من الأدباء تتفاوت جراتهم في خصومة الإسلام ، ومحاولة القضاء على عقائده وشرائعه ، وإخراج الأمة من نطاق كتابه وسنته . . .

وهم يحتالون على بلوغ مآربهم بوسائل لاحصر لها ، على أن أى قارئ خالى الذهن لن يفوته ما يقصد إليه أولئك الكتاب الذى زعموا الصحف وخلت لهم أنهارها . إنهم يريدون أن تنسى مصر « إسلامها » وأن نخلع لباسه القديم عن نهضتها الفتية ، وأن تتبع الغرب اتباعا ، يجعل دولة الكبرى ترضى عنا وتعجب بنا . . .

وقد علمت أن هذه الدول لن ترضى عنا ولن تعجب بنا إلا كما قال الحق فى كتابه « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملةهم . . . »

والعناوين البراقة لجل الأمة على أطراح الإسلام فى سهولة واستكانة هى فصل الدين عن الدولة ، فصل الدين عن القانون . فصل الدين عن المجتمع ، فصل الدين عن الأخلاق ، والدين هنا هو الإسلام .

ومعنى فصل الإسلام عن هذه النواحي الهائلة من حياة الناس الحكم عليه بالإعدام . وترينا لهذه الخدعة نشر « الأهرام » تحية لتركيا يقول فيها : تركيا نفضت كفنها ، وما الحياة إلا نفص كفن .

كانت يقظتها القومية قد فازت عام ١٩٠٨ بإصلاح سياسى أفضى إلى انتخاب برلمان عصرى ، أى فصل السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية ، مع نشر الحريات المدنية فجاء هذا الإصلاح ممهداً لثورة مقبلة إذ هيا لها النفوس المتوثبة ، فكان مصطفى كمال رائدها .

ثورة سامية قامت فى الأوضاع السياسية على فصل الدين عن الدولة ، وفى الأوضاع المدنية على استئنان قانون جديد استلهمته تركيا ، بعد استعراضها شتى القوانين الغربية من قانون سويسرى هو القانون النافذ حكمه فى مقاطعة نوشاتيل ، فاستحدث القانون التركى من الإصلاح فى نظام الأسرة ، ولا سيما فى حياة المرأة وعلاقتها المدنية بالرجل ، ما وافق ميل تركيا الجديدة إلى التطبع بالحضارة الغربية .

وكان في طليعة آثاره العميقة استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، وصار هذا الاستبدال أداة لنشر الثقافة الجديدة ، ومن ثم لم تكن قصارى الثورة الكيالية أنها ثورة سياسية اجتماعية . بل كانت كذلك ثورة خلقية من حيث أنها تناولت التقاليد القومية ، وانتهت إلى ثورة فكرية ثم إلى فلسفية . ولكنها بقيت ثورة قومية ، إذ أن تركيا لم تحاول نشر الدعاية لها في الشعوب التي تجاورها .

وتركيا لا تنشر دعاية لذهنها الجديد ، ولم تتكلف ذلك ؟ وآلاف المبشرين يقومون عنها بهذه المهمة ! إن القضاء على الإسلام من الأهداف الأولى لأغلب الدول الكبرى ، إن لم يكن لها كلها .

وإن تسيير دول الشرق الأوسط في المجال نفسه الذي تسيير فيه تركيا هو كذلك بعض منهاج الصليبية الحديثة أو الصهيونية الحديثة وذلك هو السر في مقالات الكتاب الناقين على يقظة الإسلام في هذا العصر الأخير .

(٢)

من الفكاهات السمجة أن يقال للمسلم : دع دينك فإن العلم تقدم ! فإذا انخدع بهذه القولة الماحجة وسار خطوات مع أصحابها تبين له سر ضعفهم على الإسلام ، فإذا بهم يهود متعصبون يريدون إيهام الأغرار بأن العودة إلى الوراثة أربعة عشر قرنا رجعية دونهما العودة إلى الوراثة أربعة وثلاثين قرنا حتى تصل إلى عهد موسى وصحف التوراة . . . ! !

وقريب من ذلك أن نجد رجلا ثقافته فرنسية بحتة ينظر شزرا إلى التعليم الديني في الأزهر ، ويمده من بقايا الأوهام الأولى .

فإذا تخير مدرسة لتعليم أولاده ، عمد بهم إلى معهد يديره كاهن ما كر ، أوراها بلبقة ، ثم تركهم حينما من الدهر ليأخذهم آخر الأمر ولهم دين غير الدين ، ولسان غير اللسان ، ونفوس لا صلة لها بعروبة أو إسلام .

هذه الردة — في نظر المغفل المفتون بفرنسا — أدل على التقدم وأدنى إلى التحضر من ضروب التعليم الأخرى .

ولذلك فهو بها راض وإليها مستريح ! !

الحق أن الغزو الأوربي الحديث أفلح أيما إفلاح في التمكين لنفسه بيننا منذ حوّل هزيمتنا العسكرية إلى كفران مطلق ، بما لدينا وإيمان مطلق بما لديه .

دون تمييز بين ما يحمل من طيب وخيث وبين ما ورثنا من حق وباطل . . .
وهذه هي المشكلة . .

وعلى العقلاء أن يفرقوا بين عدة نزعات متباينة . .

هناك الصليبية التي تجر وراءها عقائد أمة وثورات تاريخ طويل . . . وتلتزم مهجعا ثابتا في معاملة الأديان والشعوب الأخرى . .

وهناك الحضارة الألمانية الجديدة ، وهي نهضة انبجست ينايعها من العقل المجرد والفكر الحرّ ، ولا تزال تكتشف وتنتج في كل ميدان ، غير مستعينة في مغامراتها بدني ، ولا مستهدية بنص . .

ثم هناك هذا الإسلام الذي نقرأ كتابه ونتدارس تعاليمه ونحاول جاهدين دفع العدوان عنه لتبقى رسالته على الحياة متألفة بالحق والخير !

وقد تسأل : ممن هذا العدوان المرهوب ؟ وما مثاره ؟ أهو من رجال العلم المتجربين له ، أو من سدة الحضارة الحراس على أطراد مسيرها وإيتاء ثمارها ؟
ونجيب مسرعين : كلا . . . فما بين الإسلام والعلم من خصومة ، وإذا كانت الحضارة الحديثة منحقة من حيف وقع على روادها القدامى ، فإن رجال الكنيسة ووجدهم ، هم الذين يحملون أوزاره ويتلقون عاره .

ولعل نأذى العلماء والمفكرين من موقف الكنيسة القديم ضدهم هو الذي جعلهم يعافون الأديان كلها ، ويوجلون من كل سلطان يحصل عليه رجالها . .
إذ هو - في نظرهم - سلطان يدعم الجحود ويهدد الحياة أن تعود القهقري . . . !
من أين يجيء هذا العدوان إذن ؟

يجيء من الاستعمار الغربي الذي جمع في قرآن بين الحضارة العلمية والضغائن الصليبية ، أي جمع بين الأضداد ثم انطلق في أفطار الأرض ليُنْزِلَ العباد ويخرب البلاد . . . !

ولكن كيف حدث ذلك ؟ الواقع أن الحياة العقلية والاجتماعية في أوربا

وأمرىكا أبعد ما تكون عن وصايا عيسى بن مريم ، بل هى فى أصولها وفروعها مبتوتة الصلة بروح الإنجيل ونصوصه .

والتطور الإنسانى هناك قائم على غرائز الإنسان ومواهبه جميعا ، خيرها وشرها . وعند ما صحا الإنسان الحديث من غفوته ونظر إلى مفاتيح الكون التى وضعها العلم فى يده جاشت فى دمه نوازع الغلب ودوافع الأثرة ورأى نفسه عملاقا بين أقزام ! فلم لا يسود ويقود ؟ ولم لا يحرك ويوجّه ؟

ونظر هذا الإنسان إلى الصليبية المهزومة فى مواطنها أمام طلائع المعرفة المظفرة والكشوف الباهرة ، ثم منحها حق الحياة وأمرها أن تتبعه . فتبعته صاغرة ، ورنّت إليه شاكرة ..

وقررت أن تسير فى ركابه وأن تسارع فى هواه .. فصحبها على دُخْل ، وسخرها حيث شاء ، بحيث لانفال من القوة إلا ما تدور به فى النطاق الذى يرسمه فحسب ..

ثم انطلق هذا الإنسان الحديث إلى ربوع الشرق ، ومن وراءه تلك الذبول والطبول .. فوقع ما لم يكن منه بُدٌّ ، تحرك المسامون من رقودهم وثارت مشاعرهم وأفكارهم كلها ، فى لقاء هذا الفاتح القوى .

وتفرسوا فيمن يظاھرہ سخائم القرون الوسطى ، فأحسّوا الخطر على كيانهم .. وتيقظت فيهم غرائز النجاة وشرعوا يدفعون عن أنفسهم وبلادهم وعقائدهم ..

وفى الصراع القائم بين دين الله من ناحية وبين هذا الزحف المزدوج من ناحية أخرى أريد أن أنبه ، وأن أحذر ، رجاء أن لا يضيع الحق وسط ضجيج الخصومة الناشبة بين الغالب والمغلوب ..

إن العالم محق فى احترامه للعلم وإكباره للعقل واحتقائه بالثمرات اليبانة التى انتهى بها التطور الحديث ..

وهو محق فى دفاعه عن أساليب الحياة التى أتاحت للعلم أطراد التقدم ، ونحن — باسم الإسلام — نرفض كل تغيير يحجر على حركة العقل أو يحدّ من نشاط العلم .. ونؤيد التوجّسين فيما يتخذونه من حيلة ، ضد كل محاولة من هذا القبيل ..

إن تحقير العقل — في نظر الإسلام — يعني ألا ينشأ في القلوب إيمان صحيح ،
ذلك أن صدق الإيمان إنما يقوم على حسن التأمل في الكون وحسن الإدراك
لظواهره وأسرار . . . وانظر إلى كلمة « كيف » في قوله عز وجل للعرب « أفلا
ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف
نُصبت . . . وإلى الأوض كيف سطحت » ؟

إن « كيف » هذه من مفاتيح الحقيقة في علوم الكون والحياة .
وهي كذلك من مفاتيح اليقين في معرفة الله وإجلاله وخوفه ورجائه . .
فليهدأ بالآ أولئك المولعون بتقليد الغرب الصياحون بين الحين والحين
باحترام التطور .

فأولو العلم بالإسلام أرسخ منهم قدماً في هذا الميدان ، وأحرص منهم على تقديس
الحرية الحقّة وما تنمّره من تجديد وإبداع . .

لكن العلم وحده لم يحقق الخير للبشر ، بل قد رأينا طبائع السوء تستغله فيما
يرد الناس وحوشاً لا تربط بينهم عاطفة رحمة ، يقطعون ما أمر الله به أن يوصل
« ويفسدون في الأرض » . .

وقد جارتِ الأمم بالشكّة الضارعة من هذه الحال . . وإنها اليوم لتبيت جزعة
سما يخبئها الغد من أهوال أشد ، أهوال تتفق عنها أذهان العلماء ويتلقفها مرده
السياسة وجبايرة الحروب ليخدموا بها ماذا ؟
شهوات الأثرة والاستعلاء لدى أفراد وشعوب ! !

فحرىً بالعالم المعجب بالعقل ونتاجه أن يصون ذلك بتعاليم تصونه من
الزلل وتمصمه من الخطل .

ومن ثمّ كان لا بد من دين . . دين يتدارك هذا الاضطراب الخطير . .

ولسنا نبحت عن الدين لما نشده فيه من هذه المنافع فحسب . . بل استكمالا
للبحث عن الحقيقة الانسانية والكونية .

فدماً يحط بقدر الإنسان أن يدرك الدقيق في ناحية ويعمى عن البديهيات
في ناحية أخرى .

ولسنا نكف العلماء شططا إذا طالبناهم أن يتعرفوا إلى الله وإن يتخيروا
أرشد الأديان بالمقاييس نفسها ، التي يستكشفون بها مجاهيل الكون ، وبالمنطق نفسه
الذى يقررون به القوانين ويثبتون به النظريات .

إن من أغبط الأمور عندى أن يفكر الرجل بعقل عبقرى فى موضوع ، وبمقل
عيل فى موضوع آخر .

إما فحولة فى الحالين وأما طفولة فيهما !!

وأغلب الضلال يجيء من هذا التفاوت المثير ..

ترى عالم فى الذرة يشتغل صهيونيا جلفا ، كما رأيت قديما المكرة المهرة — من
أعداء محمد الأولين — يجادلونه فى الله ، وينشئون إلى أصفام تبول عليها الثعالب
فيمبدونها من دونه .

إننا راضون أن يحتكم العالم — المتطلع إلى دين يسد الفراغ الهائل فى ربوعه —
إلى قواعد المنطق القديم والحديث وإلى وسائل المعرفة كلها .

ثم ليكن بعد ذلك ما يشاء ، صهيونيا ، أو صليبيا ، أو مساما .

نعم لِيَكُنْ ما يشاء بعد أن ينزل على حكم العقل الذى أحترمه فى
شئونه الأخرى ..

أما أن يكون رجما بليدا فى بعض شأنه وتقدمياً متطرفا فى بعض آخر .. ثم
يحاول — بحكم ما أوتى من قوى مفاجئة — أن يُلْزِمنا بالأمرين معا ، فذلك
مانأباه ونقاومه !! ..

على أنك قد علمت أن الاستعمار الغربى قد صاحب الصليبية القديمة
على دَخل .

فهو يُمكنُ بها لنفسه ولا يمكنُ لها من نفسه .

وحركة الإحياء التى اهترت بها أوروبا وأخصبت وبلغت فى عصرنا هذا شأوا
بعيدا ، لن تنسى صراعها القديم المرير مع الكنيسة !

ولذلك يغلب على التشاؤم في عودة أوروبا إلى دين ! .
إن تجاربها المحفورة في تاريخها أشبه بالذكريات المؤذية . . بغضت لديها
الأديان جملة ! .

وكما تلتوى العقد النفسية بسلوك الأفراد تلتوى بسلوك الجماعات والدول ،
فتفضل بها عن سواء السبيل . .

ومن ثمَّ يجب أن نوقن بأن الاستعمار لا دين له ، وأنه يسلط الصليبية علينا كما
يسلط الصائد القوانص والجوارح لتمسك عليه فرائس البر والجو . .
على أن طول الصحبة ووحدة المأرب قد يؤلِّفان بين الشركاء المتشاكسين
ولو كان أحدهما سيِّدا والآخر خادما . .

ظهر ذلك جلياً يوم أفاق المسلمون من غشيتهم وأخذوا يلمون شعهم ويصلحون
أمرهم . . إن الاستعمار الذي يسانده علم لا ضمير له مع حقد الموتورين وجشع الطامعين ،
ساق إليهم قوى الأرض كلها ليضربهم ضربة قاصمة . .

وفي الحلقة الأولى من سلسلة « اخترنا لك » تصوير صادق لما عانى المسلمون
والعرب من ضغط نكتطف في شرحه لك العبارات الآتية :

لقد أدركت بريطانيا قبل أن يدرك أحد أن العرب على أبواب نهضة توشك
أن تجمعهم صفاً . . وتوحدهم غاية ، وتردهم إلى مكان الصدارة بين أمم العالم . . ثم
قدرت ما وراء ذلك من شر يصيبها ، إذ سوف تضيع مستعمراتها في آسيا وأفريقية
وتنهار (الامبراطورية) التي عاشت قروناً على الأشلاء والدماء .

قدرت بريطانيا هذا كله . . فدبرت أمرها لتعوق هذه النهضة ، ولتصدِّع وحدة
العرب . . ولتشغلهم بفتنة من صنع يديها ، فرمتهم بهذا السرطان اليهودي . .
وغرسته في موضع الإحساس المرفف من جسم أمتهم .

ذلك هو السر المحتجب وراء تلك المساعدات المتصلة التي قدمتها بريطانيا ظاهرة
ومستورة إلى اليهود في كفاحهم لإنشاء دولة تؤويهم في فلسطين .
لحققت بذلك لنفسها ما أرادت ، حين زعمت أنها بإنشاء هذه الدولة قد شطرت
البلاد العربية شطرين :

شطراً في المشرق ، وشطراً في المغرب ، تفصل بينهما دولة إسرائيل !

على أن الانجليز لم يستطيعوا أن يستروا غرضهم ذاك من أول يوم ، فهذا قائدهم « النبي » يقول يوم دخل القدس غازيا في أخريات الحرب العالمية الأولى : « اليوم انتهت الحروب الصليبية ! » .

فكانت كلمته هذه نعمة تكشف عن الحقد المضطرم في قلب القائد الصليبي الأخير ضد العرب والمسلمين ، فهو لم يرموئذ في فتح القدس انتصارا على الألمان ، ولا على العثمانيين أعداء بلاده ، بل انتصارا على أهل فلسطين أنفسهم — ولم يكونوا معه يومئذ في حرب — لأن آباءهم ، هم الذين غلبوا آباءه في المعارك الباغية التي دارت باسم الصليب في تلك الأرض المقدسة منذ قرون ؟

ولكننا حين نذكر كلمة « النبي » في ذلك المقام ، نستشعر مع الألم كثيرا من الرجاء ، لأننا نذكر في هذه المناسبة التي خطرت يومئذ ببال القائد الصليبي ، إن هذه ليست أول معركة سقطت فيها فلسطين تحت أقدام الغزاة ، فإنها لم تزل منذ القرن العاشر هدف المعتدين الأوربيين باسم الصليب .

ولكنهم لا يكادون يضعون فيها أقدامهم ويزعمون لأنفسهم أن الأمر قد استتب لهم ، حتى يشور بهم العرب أصحاب البلاد فيقذفون بهم إلى البحر أو إلى البادية ، فلا يبقى منهم إلا رءوس طافية على الماء أو أشلاء مطمورة في رمال الصحراء . . وتعود فلسطين كما كانت بلدا عربيا يصل بين شرق الأمة العربية وغربها الممتد إلى ساحل الأطلسي . تلك نذرُ التاريخ التي لم تزل تتكرر مرة بعد مرة منذ حاول أول صليبي أروبي أن يضع قدمه على هذه الأرض المقدسة ، إلى عهد « النبي » .

على أن كبر هذه الجريمة لا يقع على بريطانيا وحدها ، فلم تزل أمريكا — منذ همست بريطانيا في أذنها بذلك السر ، تبذل الجهد — مسرفة — في معونة إسرائيل . . بالمال والعتاد والضغط السياسي ووسائل أخرى ، ولم تزل الأموال الأمريكية والأسلحة الأمريكية تتدفق على موانئ إسرائيل ، لتمكن وتقوى وتستكمل أسباب الغلبة . .

أذلك لأن أمريكا أمة صليبية بالمعنى المنحرف الذي تفهمه أوروبا من كلمة « الصليب » ، وهو ضرورة البطش بالعرب مسلمين ومسيحيين ، لتكون الغلبة كاملة لأروبا وحلفائها على أهل المشرق ؟

أم تفعل أمريكا ذلك لأنها أمة طارئة على وطن غريب ليس لها فيه جذر ،
فهى بهذه « العقدة النفسية » فى الشعب الأمريكى تريد أن تجعل توطین الأجانب
فى غير وطنهم قاعدة ؟

ونحن لا نجيب : أى الاحتمالین أدنى إلى الصواب ؟ وندع الجواب على ذلك
للأمريكيين « الأبرار » الذين يمطفون علينا من وراء البحار فيرصدون القناطر
المنظرة لدعم حملات التبشير فى بلادنا حتى لا نبقى . . . أو نبقى بلا إسلام .

(٣)

إن الهزائم التى مُنِىَ الإسلام بها فى ميدان الثقافة والتعليم أنكى من الهزائم
التي منى بها فى ميدان السياسة والحرب . بل قد تكون هذه راجعة إلى تلك .
فأنت خير بأن لكل مذهب فى الحياة — محدودا كان أو رحبا — ثقافة
خاصة تقوم على بث تعاليمه وأخذ الأتباع به وتنسيق الدعاية له .

فما ظنك بالإسلام وهو دين دعامته الأولى كتاب يخاطب أولى الألباب ،
وعُدَّتْهُ الكبرى فتح مغالبى النفس وإحياء موات الفكر وتعريف الناس بالله
عن طريق البحث والدرس والملاحظة والتجربة والاستقرار ؟

إن حاجته للمعرفة المطلقة كحاجة الطير إلى الهواء كما يسمى ويخلق .
فإذا فقد هذا الهواء فإن جناحيه لن تُشَلَّ فَحَسْب ، إنه سوف يَحْتَنق ويموت !!
والناظر إلى شئون المسلمين اليوم — مظهر منها وما بطن — يُوقن بأن الخصائص
التي لا يحيا دينهم إلا بها قد ماتت فيهم أو لحقها هزال الموت . . .
وأكاد أقول : إن الإسلام غير معروف ، وإنه لو عرف فليست هذه هى البيئات
التي يمسك بترتها بله ، أن يزدهر ويثمر . . .

هناك أناس يسمون « علماء » بالإسلام لا يَمُون من آيات القرآن — وهى
ألوف — إلا قليلا يمد على الأصابع .

ولا يفقهون فى سنة الرسول وأحاديثه — وهى عشرات الألوف — إلا النزر
اليسير ومع ذلك فهم علماء !!

فإذا ضمنت إلى ذلك أن العمل بالإسلام روح العلم به ، وأن العلم والعمل كليهما لا يحسنه إلا امرؤ مكتمل المشاعر ناضج المواهب وثيق العلائق بالحياة نافذ البصر إلى الأحياء — ازدادت اقتناعا بندرة الرجال الذين تصدق عليهم هذه الصفة الكبيرة . إنه لو صحت تسمية التجّارين والحدادين علماء في الفلك والكيمياء صحت تسمية أولئك النفر علماء بالدين .

ومع ذلك فهم علماء ! بل هم أكبر من ذلك ، إنهم مرشدون أجلاء . . . !
تلك حال الخاصة . أما أحوال العامة فهي أدهى وأمر . . .
إن الجهالة التي كبت فيها بلاد الإسلام من أمد طال أعادت الجاهلية القديمة وتركت كسفها يتساقط هنا وهناك ، فلا يُبقي ضياء ولا عرفانا .

ومن الحزن أن نقرأ ترتيب الأجناس التي تسكن هذه الأرض فإذا بجمهور المسلمين يحتل المنزل الثالثة عشر ، ولا ندري أيعقبهم الزوج في المنزل التي تليها ؟ أم يشركونهم في تلك المنزل فلا يحىء بعدهم إلا الزواحف والحشرات . . ؟

وينبغي أن نعترف بالمحاولات الجبارة التي بذلها طائفة من الحكام لرفع مستوانا المادى والأدبى . وينبغي أن نعترف كذلك بأن ينابيع المعرفة التي تفجرت في «أوربا» فاضت علينا كما تهبط المياه من الشلالات الساقطة على الوهاد السحيقة فيسمع لها هدير بعيد .

وقد قلنا : إن العلم الحديث تحسس طريقه في الحياة وحده وأنه لم يجد معونة البتة من الكهانات الأولى ، بل لم يخلص مسيره من العوائق المثبطة إلا بعدما هشم هذه الكهانات وأفقدوها حراكها وشق دهرها طويلا في مصارعها والتغلب عليها . . .
وهنا نجد فرقا ضخما بين أحوال الشرق الإسلامى والغرب المسيحى ، يسجله تاريخ العصور الوسطى .

إن ارتقاء الحضارة واستبحار العمران اقترنا بازدهار الإسلام في بلاده .
ولم تنحدر أحوال المسلمين المادية والأدبية إلا في العصور التي انحطت فيها الثقافة الإسلامية واستعجم فيها هذا الدين .
وعلى العكس في «أوربا» فإنها لم تبدأ نهضتها الكبرى ، وتذرع طريق القوة

والنجاح إلا بعد ما حسمت صلاتها بالكنيسة وفصلت الدين عن الدولة وعن العلم وعن الاقتصاد وعن التقاليد وعن بقية شئون الحياة .

ونهضة العلم بعيدا عن الدين في « أوروبا » ثم مجيئه إلى الشرق على حين ضعف من الإسلام وجهالة في اتباعه جعل العلم يتجههم للإسلام والمسيحية على سواء ، ويرسل عليهما أحكاما واحدة . . .

وهذا حيف ظاهر وقضاء جائر . ومع ما فيه من خرق ، فإن أغلب المتعلمين في بلادنا قد غروا به ، وتقبلوه وكأنه بديهية لا ريب فيها !!

ومن ثم تحمل الإسلام أوزار غيره ، فأضيفت إليه نعوت وفرضت عليه مواقف هي أبعد ما تكون عن طبيعته وعن تاريخه .

وبذل المستشرقون والكتاب النافهون جهوداً كبيرة لتلويث سمعة الإسلام وسوقه في صعيد واحد مع غيره من الأديان التي طالما تأذى العالم من جانبها ولم ينفقه إلا يوم نأى عنها . . .

وانظر إلى كاتب معتدل كالأستاذ « محمد زكي عبد القادر » يتحدث عن وضع الأديان في الحضارة الحديثة فيقول .

تأملت في هذه المنافسة الحادة القوية بين المسجد وبين السينما . وهي منافسة أوسع من هذا نطاقا ، فإنها في الواقع بين المسجد والكنيسة وبين السينما ودور اللهو جميعا .

وهي — بتعبير آخر — منافسة بين الأديان وماتدعو إليه من عبادة وتقشف واتجاه إلى الله ، وبين الدنيا وماتدعو إليه من انصراف إلى المتاع واللهو .

ولاحظت أن الأديان تتحمل موجة طاغية ، يظهر أنها تضعفها شيئا فشيئا ، بينما تزداد أسباب الفتنة قوة وذيوها .

وتساءلت هل لو صدر قانون أو قرار يحرم فتح دور السينما في صباح الجمعة ، يزداد رواد المساجد ، ولو صدر قانون أو قرار آخر يحرم فتح دور السينما في صباح الأحد يزداد رواد الكنائس ؟

وكدت أجيب بأن المساجد والكنائس لن تفيد شيئاً من إغلاق دور السينما .
والأصح أن الذى يفيد هو المقاهى والمشارب والشوارع ، فإن الناس أغلب الظن
سيفضلون الجلوس فى المقاهى والمشارب يرقبون النساء والفتيات الممارات ويتبادلون
التعليقات المختلفة ، أو يفضلون التسكع فى الشوارع على الذهاب إلى المسجد ، حيث
يقف رجل مؤمن يؤكد لهم أنهم خرجوا على أحكام الدين وأن عذاب جهنم ينتظرهم ،
أو إلى الكنيسة حيث يجدون رجلاً مؤمناً آخر يؤكد لهم الشيء نفسه ويدعوهم
إلى ملكوت السماء .

إن أزمة الأديان ليست أزمة القوانين أو أزمة السينما والمسارح ودور اللهو ،
ولكنها فى الواقع أزمة الإيمان . فإن الإيمان يهتز فى القلوب اهتزازاً خطيراً والشك
يزحف على المعتقدات بصورة مزعجة . وما أحسب أن الكوارث التى يتوقعها الناس
فى الحرب القادمة ، والمصائب التى تحملوها فى الحربين العالميتين الماضيتين إلا مسئولة
عن اهتزاز العقائد هذا الاهتزاز الخطير . وقد زاد عدد الجحدين للأديان زيادة
كبيرة على أثر الحربين ، وضاعف من هذا الجحود اضطراب الحياة الاقتصادية
والاجتماعية وذبوع الشك فى قدرة الأديان على علاج المشاكل ، بل تحميلها الكثير
من التبعات فيما بلغتته الحياة من اضطراب وقلق .

غير أن هذه الحقائق لا ينبغى أن تزعجنا على مصير الأديان ، فإن هناك موجات
واسعة النطاق بدأت تظهر فى أوروبا وأمريكا والشرق تنادى بالعودة إلى الإيمان ،
وتغليب الروح على العقل ، والالتجاء إلى السماء بدل الاعتماد المطلق على العلم ، وقد
يتحول هذا الجحود المتزايد بالأديان إلى اندفاع شديد نحوها . يومئذ قد تلغى دور
السينما حفلات الصباح فى يومى الجمعة والأحد من نفسها دون قانون أو قرار .

من يدرى ربما يحصل هذا ، وربما يحصل العكس فتدمر القنابل الذرية المساجد
والكنائس ودور السينما واللهو ، وتقضى على الإيمان والإلحاد ، وعلى الشك واليقين ،
ويعود العالم مرة أخرى إلى حياة الغابات البدائية ، وتكرر القصة من جديد ،
وبيعث الله الرسل ، عسى أن يكون البشر فى الدورة الجديدة للحضارة أكثر
عقلاً وأكثر إيماناً . .

في هذا الكلام نسمع أن الإسلام - كأديان أخرى - مسئول عن الحروب العالمية التي شنتها وصنعت أسلحتها وجرت الناس إليها دول « أوروبا » .

وفي هذا الكلام نسمع أن الإسلام فشل في علاج علل لم يُستشر يوماً في حلها ولا سئل عن أصلها وفرعها لأنها بدت ثم فشلت في مجتمعات أوروبا ! .

وفي هذا الكلام نسمع أمانى حلوة عن عودة الإيمان إلى الحياة وآية هذه العودة المرموقة تغليب الروح على العقل والالتجاء إلى السماء بدل الاعتماد المطلق على العلم ! .

وهذه كلها أفكار مسيحية محضة ، لا يربطها بالإسلام خيط واه ولا قوى ! .

ذلك لأن الإسلام لا يغلب على العقل روحاً ولا جسداً ، ولا يقر تفاوتاً بين منطق

العلم ووحى السماء . .

فما أحكمه العقل ودعمه العلم فهو دين . .

وماندَّ عن ذلك فهو مفترى على السماء وإن نسب إلى ألف نبي ورسول . .

إن الإسلام تقدّمى أكثر مما يظن هؤلاء الكتاب . لكن ثقافتهم التي تعتمد في تكوينها على عناصر كثيرة من الغزو الاستعماري جعلتهم ينقلون في حق الإسلام ما قيل في حق غيره . .

ولما كانت المسيحية تفصل العقيدة عن العقل ، ولا تخضعها لمنطقة الأخاذ ، فإن كتابنا عفا الله عنهم نظروا إلى أزمة التدين في بلادنا ثم قالوا مواسين المؤمنين المحزونين : لا تجزعوا سوف يسأم الناس يوماً التعلق بالعلم والعقل ويرجعون للدين .

إن الطابع الصليبي الذي جعل القاهرة تغلق حوايتها يوم الأحد على أنه يوم الراحة الأسبوعية - هو نفسه الذي يهيمن على أفكار كتابنا الأفاضل . .

لكن كيف نجح الغزو الثقافي الأجنبي في صياغة الأجيال الجديدة على هذا النحو الشائه ، وكيف أمكنه إخفاء معالم الإسلام وتجهيل بنييه فيه ؟ .

ولا نحب أن نجيب على هذا السؤال من عند أنفسنا ، لنترك الإجابة عليه للأستاذ « سلامة موسى » فإنه بعد أن استهجن مسلك جمهور المصريين في محاربة مدارس التبشير وصد أبنائهم عن تلقى ثقافتها المدخولة قال : « إن الطبقة المستنيرة من الأمة هي تلك التي تعلم أفرادها في مدارس المبشرين الفرنسيين . . وهم

- مع الأسف - أفراد قلائل ! ثم تابع كلامه عن مشكلة الثقافة في مصر فقال :
ص ٨٦ كتاب « الثقيف الذاتي » « على أن ما فقدناه توشك الجامعاتان المصريتان
بالقاهرة والاسكندرية على أن تعوضانا منه . . فهنا دراسات عصرية جديدة هي الآن
خميرة صغيرة ولكنها مثل الخمار ، ستربو وتتفشى في أنحاء البلاد . . وتضع لنا ثقافة
جديدة تجعلنا نعيش بأذهاننا ونفوسنا في القرن العشرين » .

فالأمل الذي ينشده العاطفون على التبشير والحاقدون على الإسلام هو إنشاء
أجيال تتنكر لديها وتهرب من ماضيها لأن في النسب إليه معرة ! .

وقد علمت أن الإسلام لا يمكن أن يحيا إلا في أشعة المعرفة فمن المضحك أن يعد
الرسوخ في العلوم الحديثة مخاصمة له . .

إلا أن الصليبية الجديدة سايرت التطور ووضعت مناهج الدراسة في الجامعات
الكبرى بحيث يخرج الرجل المثقف وهو لا يدري عن الإسلام إلا إشاعات طائفة
أو ظنوناً خاطئة . .

وهذا التجهيل التعمد هو نصف الطريق التي رسمتها أوروبا الصليبية للقضاء
على الإسلام خصمها القديم . .

إن الأستاذ سلامة يكره المتنبي الشاعر كراهية قاسية . . فإذا سألته لماذا ؟
أجابك : مادح مرتق صغير النفس ! ومع أن المتنبي من أرفع شعراء الدنيا قدراً
وأسماءهم همة إلا أن هذا ليس موضوع حديثنا . . والواقع أن الرجل يكره
المتنبي لأنه أطل في وصف الممارك التي دارت بين العرب والروم ، أي بين الإسلام
والصليبية القديمة . .

وهو بهذه العلة التي أكلت قلبه ضد الإسلام يكره «شوقي» فإن شوقياً - رحمه الله
كان يرفع عقيرته بالنواح الأسيف كلما سقطت للإسلام مدينة في الحروب التي دارت
بين الترك ، وبين جيرانهم من روس وصقالبة ويونان .

وكانت عواطفه المغفمة بالأسى على الخلافة المديرة ومجد الإسلام الذاهب تظهر
في قصائده المجودة فترفع مستواها الفنى إلى القمة .

ومن البديهي أن ينفر من ذلك رجال يريدون أن يُهال التراب في صمت على
حاضر الإسلام وماضيه . .

فحورب شوقي في حياته وبعد مماته محاربة عنيفة . .
والمضحك أن هذه الحرب الوضيعة أخذت الطابع الأدبي البحت فأتهم شوقي
بالرجعية في الفكر والصياغة والأداء .

وعد الصراع بينه وبين خصومه صراعا بين القديم والجديد ! .
ويعلم الله أن إسلاميات شوقي هي سر التحامل عليه ! .
إن الكهان الذين يحاربون الإسلام أبرع من الكهان الذين يتأكلون به . .
وليت قومي يعلمون . .

قد يقول بعض الناس : هل تريد إقحام علوم الإسلام على المدارس والجامعات ؟
وقبل أن أجيب بـ « لا » أو نعم أريد أن أسخر من أولئك المتسائلين : لماذا خرست
ألسنتهم وهم يرون الصليبية المحنقة تدس أصابعها في براجم العلم لتقضى على لغة العرب
وشعائر الإسلام في الوقت الذي تحيي فيه لغاتها وتوقظ عصبيتها ؟ .

إن من حق المسلمين أن يعرفوا دينهم وأن تقدم لهم وجبات كاملة من تعاليمه
تنمي أرواحهم وتزكي نفوسهم وتكشف لهم عن جوانب من الحقائق التي قامت بها
الأرض والسماء . .

ومن حق المسلمين أن تميظ أمام أعينهم اللثام الماكر الذي يتستر به دعاة التطور
في العلم والأدب ، ليروا الوجوه السكالحة على طبيعتها الدميعة .
وإني أعترف بأن في علماء الدين من لا يساوى فلسفياً ، إما لفساد في عقله
أو في قلبه . . أعني في علمه أو في نيته . .

ولكني أعترف كذلك بأن في العلماء المدينين الأفحاح جما غفيرا قتلهم الغرور
والهوى فما انتفعت بهم الأمة ولا ارتقى بهم العلم . .
وهؤلاء وأولئك لا تصح بهم نهضة . . على أن الإسلام لا يقوم بجامعات
« لاهوتية » وجامعات « علمانية » . .

هل يمكن أن تقوم في « روسيا » مدارس حمراء وأخرى بيضاء ؟ .

إن الإسلام مهاد نهضة وبنائها . .

والعلم المادى المحض يتحول فى جنباته عبادة مستغرقة وتتحول معاهده محارِب
مُخبِتة مادام باعث الإقبال عليه أُسمى من بواث الدنيا الصغيرة سرائها وضرائها . .
وقد تواضع الناس فى مصر على احتساب الأزهر جامعة دينية وسائر الجامعات
الأخرى مدنية . . وهذا تقسيم خطأ سواء فى شكله أم فى موضوعه . .
فإن العلوم التى تدرس فى الأزهر ، والكليات التى نيطت بها ، يمكن ضمها إلى
مبيلاتِها فى أية جامعة دون ضير . .
كما أن الكليات العملية فى أية جامعة — لو حملت عنوان الأزهر — ماتغير شيء فيها
ولا فرض الإسلام جديداً على برامجها . .

وما انقسم التعليم العالى عندنا هكذا إلا تقليداً للغرب واقتفاء لآثره !!
ولارىب أن الإسلام قد أصابته أضرار فادحة من هذا الانقسام . .
قال الدكتور أحمد أمين : سألتنى عالم هولندى : ألكم أمل فى الأزهر ؟ قلت :
لا . لأن الأزهر يتزعم الحركة الرجعية . . وحركة الشباب قوية عنيفة . . ثم إن
القصر الملكى يحتضنه . . والقصر يريد له أن ينام وأن يُنيم . . — كان هذا أيام
أسرة محمد على — وسئل الدكتور : هل لكم أمل فى الجامعة ؟ قلت : لا . لماذا ؟
أجاب : لأن الجامعة مدنية محضة ليس لها اتجاه دينى . .
والدكتور أحمد أمين فى هذه الإجابات يحوم حول الحقيقة التى أشرنا إليها آنفا .
وقد رأى الأستاذ أبو الحسن الندوى أن يستزیده بياناً فى هذا الموضوع فسأله :
هل فشل المسلمون فى الجمع بين المدنية المصرية والروح الدينية ؟ فأجاب : كان الجانب
المدنى يطغى على الجانب الدينى فى أغلب الأحيان . . وذلك لضعف الرجال الذين
يمثلون الإسلام !!

واستطرد : إن العالم الإسلامى ينقصه رجال عرفوا مقاصد الشريعة الكبرى
يواجهون الحضارة الحديثة مواجة الناقد المبصر . . ليميزوا ما ينفع وما يضر . .
ثم إنه فى هذه المرحلة المحزنة من تاريخنا ينبغى أن نحذر مركب النقص تجاه هذه
المدنية الوافدة الغالبة . . والعلاج الأول هو إيجاد الحلقة المفقودة ! إيجاد علماء
يجمعون بين علوم الدين وعلوم الدنيا . .

يفهمون الجماهير أن ليست حضارة الغرب خيرا محضا ولا مأم عليه شر محض ..
وهذه الإجابة تنطوى على قدر كبير من السداد . . .
فإن الحضارة الحديثة تضم عناصر متفاوتة القيم ، فإيت منها إلى العلم المجرد
والطبيعة الأصلية يجب أن نقبله دون تردد !

وكيف نتردد في شيء من ذلك والإسلام دين العقل والفطرة ؟
إن الذين يعترضون هذا الاقتباس هم أعداء الإسلام وأعداء أنفسهم وأعداء
العالم كله . .

وفي هذه الحضارة شهوات مطاعة وأرجاس مقررة ورذائل يُشعلها الهوى
والبنى والغرور .

وهناك نزعات لها خصائص النباتات المتسلقة فلا كلام في ضرورة البعد عنها
إنها غريبة عن الحضارة بل هي خصم لها قديم . .

بيد أنها أفتحمت نفسها عليها وتراءت للمغفلين ، وكأنها إحدى ثمرات
الارتقاء العام (!)

تلك هي الصهيونية والصليبية .
وعلى المسلمين أن يحذروا عدوهم القديم في ثيابه الجديدة ، إنها نزعات ضد
الحضارة وضد الإسلام . .
والطفيليات في البستان تجتث ولا تستبقى .

إن الأزمة الآخذة بخناق الإسلام في هذا العصر شديدة الوطأة محذورة العاقبة .
والغزو الثقافي الذي انتشر في أرضه على نطاق واسع بدأ يؤتى ثماره المريرة .
جمهور الشباب من بنين وبنات لا يربطه بدينه إلا نسب الاسم الموروث .
وسياسة تجهيل النساء في الإسلام كله أو بعضه تشق طريقها بقوة في أغلب
الجامعات والمعاهد .

وقد كتب الأستاذ محمد التايبي في الأخبار^(١) :

(١) العدد ٧٧٦ .

« قال لى طالب عراقى يدرس الطب هنا^(١) إنه سأل مرة زميلة له فى الكلية عن دينها ! .. وبهتت الفتاة ثم قالت : دينى ؟ أظنه الإسلام !! .

وعاد يسألها : ولكنك تقولين إنك مخطوبة لشاب سويسرى كاثولىكى ..
وقالت الفتاة : ولم لا ؟؟ .. !! »

وعندما يراد إتمام مثل هذا الزواج فى بلاد لا تزال للإسلام فيها قداسة اسمية يغير الزوج اسمه القديم فحسب ويبقى كما هو نصرانى الجوهر لا المظهر ، هذا إن لم تعلم المرأة ارتدادها ثم تحيا كما شاءت ..

والأستاذ « محمد التابعى » يدهش أو يأسف لأن تركيا لا يزال شعبها متمسكا بالإسلام ، ولا يزال الحنين يماود هذه الأمة البائسة ، ويمطفها على الدين الذى اعتنقته دهرأ . !

وهو لا يتحرج من إعلان دهشته وأسفه لبتعجل الاستقرار المنشود والاستقرار الذى ينشده لتركيا ومصر وغيرها من أقطار الشرق الإسلامى هو التخلص من الماضى بما حوى والاندماج فى الغرب اندماجا لاشائبة فيه .

وفى الوقت الذى يستباح الإسلام فيه علانية على هذا النحو يعقد الكرى أجفان العلماء المكلفين بحراسة الإسلام ويتقهقر الأزهر والمعاهد الملحقه به تقهقراً عاماً فى ميدان التربية والتعليم ..

(١) فى تركيا .

السمع والطاعة

[أبعد الناس عن الإسلام رجل
فقد حرية فكره وإرادته]

(١)

من أمارات الإحكام في شئون الجماعة والدولة ، أن تنتقل الأوامر من الرؤساء إلى الأطراف كما ينتقل التيار من المولد الكبير إلى الأسلاك الممتدة فلا يقطع نوره خلل ولا يرد قوته قطع أو خبل .

إن الجسم المعافى تستجيب أعضاؤه « للإرادة » التي تنقلها الأعصاب من الدماغ المفكر فيتحرك أو يسكن وفقها .

ولن تمجز الإرادة عن بلوغ أهدافها إلا إذا اعتل الجسم وأصيبت أجهزته بالعجز أو الشلل . .

والمجتمع الصحيح كالجسم الصحيح يشد كيانه جهاز دقيق ويضبط أموره بنظام محكم ، وتعاون ملكاته العليا وقواه المنفذة تعاوناً وثيقاً يسير به في أداء رسالته كما تسير الساعة في حساب الزمن . .

وقد وضع رسول الله قاعدة هذا النظام المتجاوب وجعل القيام عليه من معالم التقوى ، فإنه لن يستقر حكم ولن تصان دولة إلا إذا سادتها الطاعة والنظام .

ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « من أطاعني فقد أطاع الله . ومن عصاني فقد عصى الله . ومن أطاع أميري فقد أطاعني . ومن عصى أميري فقد عصاني » . وقال الله عز وجل « أطيعوا الله » أي اتبعوا كتابه ، « وأطيعوا الرسول » أي خذوا بسنته . « وأولى الأمر منكم » أي فيما كلفوكم به من أمور تخدم الكتاب والسنة . . .

وطبيعة الحياة عند ما فرضت خضوع الجسم للعقل إنما بنت هذا لمصلحة الجسم والعقل جميعاً ، على أساس أن العقل لن يصدر عند ما يضر الجسم أو يؤدي به إلى التهلكة .

فإذا استحمق امرؤ وشرع يخلط ، حججنا عليه فوراً ، إنقاذاً له من شر نفسه وإنقاذاً للجماعة منه . .

كذلك اطردت فطرة الله في شئون الحياة كلها .

فقوانين السمع والطاعة التي سنّها الإسلام بل التي وضعها نظم أخرى

وطبقتهَا بصرامة ، لم يقصد بها إلا حفظ المصلحة العليا للجماعة ، فكأنما أملت بها غريزة البقاء وضرورة الحياة .

ولا مجال البتة لجمعها متنفس هوى جامع أو شهوة عارضة .

وعند ما شرع قانون السمع والطاعة لم يفترض في الأطراف التي تمثله إلا قيادة راشدة تنطق بالحكمة وتصعد بالحق وتأمر بالخير ، ثم جنود يلبون النداء ويمنعون العوائق ويتممون الخطوة .

وبذلك تنتظم دورة القانون في الأمة كما تنتظم دورة الدم في البدن فتستقيم الحياة وتستقر الأوضاع .

أما الطاعة العمياء لشيء إلا لأن القائد أمر . وأمره واجب الإنفاذ ، فذلك منكر كبير وجهالة فاحشة لا يقرها شرع ولا عقل .

روى الإمام أحمد في مسنده قال : بعث رسول الله سرية واستعمل عليهم رجلا من الأنصار فلما خرجوا وجد عليهم الرجل في شيء — تبرم بسيرتهم معه — فقال لهم : أليس قد أمركم رسول الله أن تطيعوني ؟ . قالوا : بلى قال : فاجمعوا إليّ حطباً ثم دعا بنار فأضرمها فيه ، ثم قال : عزمت عليكم لتدخلنّها . .

فقال لهم شاب منهم : إنما فررتم إلى رسول الله من النار ، يعني — فكيف تقادون باسمه إليها — ؟

لا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها . . . فرجعوا إلى رسول الله فأخبروه . فقال لهم : « لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدا . إنما الطاعة في المعروف » .

لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدا . . .

هذا الترهيب الغليظ يستأصل جذور الطاعة العمياء من نفوس الأنبياء جميعا ، ويجعلهم يحمقون فيما يصدر إليهم من أوامر ، فلا يكونون عبيداً إلا لله ولا جثياً إلا للحق .

إنما استكبر من الفراعنة والجبابرة لأنهم وجدوا من الرعاع من

يسارع إلى إجابة أهوائهم وإطاعة نزواتهم دون بصر أو حذر فعتوا في الأرض
وعلوا علواً كبيراً ..

ولو أنهم عند ما أصدرُوا أوامر يملأها الغرور وتنكرها الحكمة وجدوا من يردها
عليهم ويناقشهم الحساب ، لترثوا طويلاً قبل أن يأمرُوا بباطل .

والثقة — وخصوصاً في أهل الدين — تغرس حسن الظن فيما يأتون
ويذرون ، وتجمل المرء يتلقى توجيههم بالقبول الحسن فهو ينزل عنده مطمئناً إلى أنه
يُطِيع في المعروف .

ونحن لا نلوم إنساناً على نقاوة صدره وليونة طبعه ، ولكن المؤمن لا يأذن
لأحد أن يستغل هذه الصفات النبيلة فيه ليجعل منه شخصاً طائش القياد ضرير
العين والقلب ...

فساد الأديان الأولى جاء من طراوة الانبعاث في أيدي رؤسائهم وتحوُّلهم مع
مبدأ السمع والطاعة إلى أذنان مسيِّرة ، لا فكر لها ولا رأى .

رُوي أنه لما نزل قوله تعالى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله »
قال عدى بن حاتم — معترضاً — : إنهم لم يعبدوهم ، فقال رسول الله : بلى ، إنهم
حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فتلك عبادتهم بإهام ...
فانظر كيف غدت الاستجابة العمياء شركاً . وكيف استغلت الثقة لتغيير أحكام
الله وإضلال عباده عن الصراط المستقيم .

إن الفراعنة والأباطرة تألهوا لأنهم وجدوا جماهير تخدمهم بلا وعى .
والأحبار والرهبان والبابوات تألهوا كذلك ، لأنهم وجدوا رعايا تمنحهم الثقة
المطلقة وتلغى وجودها الأدبي أمام ما يصدر من أحكام .

والشعوب التافهة في كل زمان ومكان هي التي تصنع المستبدين وتغريهم
بالآثرة والجبروت .

وقد بلغ من حق العامة في بعض أدوار النهضة المصرية الأخيرة أن قالوا :
الحماية على يد فلان خير من الاستقلال على يد فلان ! .. لورشح فلان حجباً
لا نتخبناه ..

إن الحب المكين شيء واحترام الحقيقة المجردة شيء آخر .
ولشعبٍ مَّا أن يعشق زعيمه وأن يصوغ فيه قصائد غزل . . .
بيد أنه لا يسوغ أن يتطور به هذا الحب حتى يحاكم الحقائق إلى شخصه بدل
أن يحاكم شخصه إلى الحقائق . .

ومن قديم عرف المصلحون والأئمة أن السمع والطاعة وسائل لا بد منها لسير
الأمور وبلوغ الغايات .

ونحن لا نمارى في المبدأ بعد ما شرحنا أصله في صدر حديثنا ، وإنما نخذر من
الزوائد الخطرة التي تنضاف إليه وتتوسع فيه وتقتل الحقيقة والحرية باسمه .
إن الإسلام لم يشرع قانوناً ينقص من « الاستقلال الشخصي » لأى إنسان
أو يفضّ من « حرّيته الفكرية » .

ألم تر إلى موقف رسول الله وصحابته في أسرى بدر ؟
لقد استشار أصحابه ما يصنع فيهم ؟ فما حاول أحدهم أن يتعرف رأيه ليتملقه
بتأييده ، بل أدلى كل منهم بما يراه الحكم الصحيح في القضية المعروضة وسار كل
وفق طبيعته الخاصة .

الحليم يعرض العفو ، والحازم يعرض العقاب ، ولا يعنيننا أن نعرف هنا من أخطأ
أو من أصاب .

وفي السيرة شواهد شتى لما كان عليه السلف الأوائل من أصالة نظر ، وحرية
فكر ، مع ما أثر عنهم من حب عميق لرسول الله وما أخذ عليه من موثيق
السمع والطاعة .

ونحن نعرف أن بعض الناس لا يحسن التفكير العام ، وقد تضم إلى ذلك أنه
لو ترك لكل امرئ الحق في مناقشة ما يكلف به لتسربت الفوضى إلى شئون
الحكومات والشعوب .

وهذا حق ، ولكنه لا يصادم ما نحن بصدد تقريره . إن هناك فرائض لا يجوز
خدشها ومحرمات لا تمكن استباحتها ، وشئونها أخرى هى مجال للأخذ والرد
وتفاوت التقدير .

وهذه لا يملك البت فيها واحد برأسه ، وإنما يرفع الخلاف فيها أصحاب الحل
والعقد وأهل الشورى . .

فإذا مرت بمرتبة البحث والعرض ، فلكل ذى رأى أن يظهره وأن يدافع عنه
غير منكور ولا محقور . . .

حتى إذا تمخض الدرس والنقد عن رأى الذى استقر عليه الإجماع أو جنحت
إليه الكثرة لم يبق مكان لتردد أو ارتياب أو اعتراض .

والحكومات المعاصرة - على اختلاف مذاهبها - تحترم هذه القاعدة .

ولعل هذا . سر الأفراد والجمع فى الآية « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » فالإله
واحد . والرسول واحد .

أما « وأولى الأمر منكم » فهم كثير . . وما يقرونه - جماعتهم أو أغلبهم -
فهو محل احترام العامة .

وليس ذلك الذى أقره الإسلام فى سياسة أمته بدءاً بفرد به ، فإن أمماً أخرى
وفلسفات أخرى أقرت مثله من قبل ومن بعد .

ذلك . وليس كل من غلب على حكم بلد ما يسمى ولى أمر فيه ، تقرن طاعته
بطاعة الله ورسوله .

فكم أرمى قرونا من تاريخ الإسلام الرحب وبقاعا من وطنه الكبير فلا أجد
ظلاً لولاية صحيحة . . !

كما أن الشئون التى يعالجها الولاة الموثقون تتفاوت فى موضوعها تفاوتاً كبيراً
فشئون الدنيا غير شئون الدين .

وشئون الدين نفسه ليست سواء ، فالأصول غير الفروع . والنظري
غير العملى . . .

قد يختلف أولو الأمر فى بناء جسر أو تلمية خزان ، وقد تختلف فى ذلك معهم
ولا صلة لهذا الخلاف بطاعة أو معصية . . .

وقد يختلفون ويختلف معهم فى فقه الصلاة ويلتزم كل منا وجهة نظره . . .

ولا وزن هنا خطأً أو صواب . . .

ثم إن الرجال الذين يسمون أولى الأمر شرعاً ، والشئون التي ترى طاعتهم فيها ديناً ، مما تكلم العلماء في بيانه ورفعوا الغموض عنه . . .

ولقد عجبتُ لخلاف وقع بين شباب الإخوان المسلمين أثاره بعضهم بتساؤله : هل نحن جماعة المسلمين ، أم نحن جماعة من المسلمين ؟

والإجابة على هذا السؤال لها نتائج ذات بال .

بل نتائج ترتبط بها صيانة دماء وأموال !

فإن الذين يحسبون أنفسهم جماعة المسلمين يرون مخالفة الأستاذ حسن الهضبي ضرباً من مخالفة الله ورسوله . وطريقاً ممهدة إلى النار وبئس القرار !

وقد كنت أسير مع زميلي الأستاذ سيد سابق قريباً من شعبة النيل فر بنا اثنان من أولئك الشباب المفتونين وأيبا إلا إسماعنا رأيهم فينا وهو أننا من أهل جهنم !

وصادف ذلك منا ساعة تبسط وضحك فضينا في طريقنا وقد سقط طنين الكلمة النابية على الثرى قبل أن يتماسك في آذاننا . . .

إلا أنني تذكرت بعد أيام هذا العداء المر والأوامر التي أوحى به . فعز على أن يلعب بالإسلام وأبنائه بهذه الطريقة السمجة .

وأن تتجدد سياسة الحوار مرة أخرى ، فيلعب أهل الإيمان ويترك أهل الطغيان .

وبم ؟ باسم أن الرئيس وبطافته هم وحدهم أولو الأمر ! وأن لهم حق السمع والطاعة ؟ وأن الخارج عليهم يصدق فيه قول رسول الله : من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر . فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية » وقوله : « من خلع يدا من طاعة لقي الله لا حجة له . ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » . . .

وهذه الأحاديث وأمثالها وردت في منع الفتوق الجسيمة التي يُحدثها الشاغبون على الدولة .

وقد عانى المسلمون وعانت خلافتهم الكبرى أقسى الآلام من ثورات
الخانقين والناقين .

وربما كان سقوط الحكم الإسلامى فى الأرض بسبب هذه الانتفاضات الهائلة . .
أما أن جماعة أنصار السنة أو جماعة الشبان المسلمين أو جماعة أهل الصفة يجرئون
هذه الأحاديث إلى دورهم ويطبقونها على من يبق معهم أو يخرج عليهم فهذا جنون .

بيد أن تعليم هذا الجنون كان أسلوب تربية وتجميع عند بعض الناس !!!
فن المضحك أو من المبكى أن يخطب الجمعة فى مسجد الروضة عقب فصلنا من
المركز العام من يؤكد أن الولاء للقيادة يكفر السيئات ، وأن الخروج عن الجماعة
يحق الفضائل ، وأن الذين نابذوا المرشد العام عادوا إلى الجاهلية الأولى لأنهم
خلعوا البيعة . . .

ورئى الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة القاهرة
يخلص بالخطيب جانبا ليقول له : أى إسلام هذا ؟
ومن من علماء الأولين والآخرين أفتى بهذا اللغو ؟ وكيف تلبسون الدين هذا
الذى المنكر ؟

وهيهات فقد تغافل هذا الضلال فى نفوس الناشئة حتى كتب بعضهم لآخ له
— من قبل — يسأله : هل تظن نفسك مسلما بعد ماخرجت من هيئة الإخوان ؟
ولنفرض أن المرشد العام هو أمير المؤمنين وأن له حقوق الخليفة الأعظم (!)
فهل هذا يؤتيه على أتباعه حق الطاعة العمياء .
إن رسول الله نفسه لم يؤت هذا الحق ! ففى بيعة النساء يقول الله له « . . ولا
يعصينك فى معروف » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله « السمع والطاعة على المرء
المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . .

وروى مسلم عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال : دخلت المسجد فإذا
عبد الله بن عمرو بن العاص جالس فى ظل الكعبة والناس مجتمعون عليه . فأتيتهم

فجلس إلى فقل : كفا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فنزلنا منزلا ، ففنا من يصلح خباءه ، ومنا من ينتقل ، ومنا من هو في جشره^(١) ، إذ نادى منادى رسول الله : الصلاة جامعة فاجتمعنا إلى رسول الله فقال : إنه لم يكن نبي من قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما كان يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم — وإن هذه الأمة جعلت عافيتها في أولها وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها . وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتي ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول : المؤمن هذه هذه ! . . . فمن أحب أن يرحل عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه . ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده ، وثمرة قلبه فليطعمه إن استطاع . فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر ! .

قال : فدنوت منه فقلت : أنشدك بالله ، أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأهوى — إلى أذنيه وقلبه — بيديه وقال : سمعته أذناي ووعاء قلبي . فقلت له : هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ونقتل أنفسنا ، والله تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيما » . قال : فسكت ساعة — لحظة — ثم قال : أطعه في طاعة الله وأعصه في معصية الله . . .

سياق الحديث كما ترى في توفير الأمن لحكم قائم ، وخليفة مبايع ، ومع ذلك فإن عبد الله رأى التمرد على الحاكم فريضة إذا أمر بمعصية فكيف بالتمرد على رجل من سوقة الناس منح نفسه أو منحه أشياعه سلطانا موهوما !

على أن من الإنصاف لتعاليم الإسلام — ونحن بصدد الكلام عن تغيير الأحكام — أن نذكر القاعدة القائلة : إذا كان تغيير المنكر يؤدي إلى مفسدة أعظم فالإبقاء عليه أولى ، وذلك مصداق قوله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة . واعلموا أن الله شديد العقاب » .

(١) الجشير — بفتح الشين — المال يرعى في مكانه لا يرجع إلى أهله ليلا . والمراد أن بعضهم كان في مرعى ماشيته .

والواقع أن الزلازل التي تتبع إسقاط الحكومات قسراً بعيدة المدى . ومن ثم لم يرض الإسلام أن يُشهر السيف في وجه حاكم إلا أمام ضرورات ملجئة .
أبأنها هو ولم يترك بيانها لتقدير أحد .

بل أنه حجب إلى المؤمن التضحية ببعض حقوقه الخاصة إشاعة للاستقرار في أنحاء البلاد وإغلاقاً لمنافذ الفتن . فعن عبادة بن الصامت قال : « بايعنا رسول الله على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله — أى نطلب الحكم من ولانه — إلا أن تروا كفراً بواحا عندكم من الله فيه برهان » . . .

إن الأمة التي تغير حكامها كما تغير المرأة أزياءها لا تصلح لها حال ولا تبقى لها ربح .

وإنني لأمت أن أكون داعية لحاكم ما . وأستعبد بالله من أن أعين بكلمة على بقاء وال جائر .

غاية ما أبغى أن أشرح قانون السمع والطاعة وأن أمنع الكهان والدجالين من الاحتيال به على ناشئة قليلة الفقه في الإسلام ، إن تغيير حاكم شيء والانصراف عن واعظ غير موفق شيء آخر .

لقد كان الراسخون في العلم يدعون إلى الله ويتجردون للدعوة ، فكان الناس رعون طاعتهم من طاعة الله لأنهم تلقوا دروس معرفته عنهم .

ثم جاء الراسخون في الجهل يطلبون حقوق القيادة ، ويتحدثون عن قانون لسمع والطاعة ، ولست أعنف دعياً من هؤلاء على مزاعمه ومطالبه . فالأمر كما قيل : « بعض الناس طغاة لأننا نركع لهم » .

(٢)

القول بعصمة الأئمة غير معروف بين جمهور المسلمين من أهل السنة . .

فذهبهم أن القائد أو الحاكم يجيء من أى طبقة ، وأنه في موضعه العالي من تصريف الأمور يجوز عليه أن يخطئ وأن يصيب .

وأن نصحه — إذا أخطأ كمؤازرته إذا أصاب — واجب على الأمة . .

بل إن أهل السنة يرون أن النبي صلى الله عليه وسلم — على جلالته — قد يخطئ
فيما لم ينزل به وحى . . . ولكن الإرشاد الأعلى يستدرك عليه ويوجه اجتهاده
إلى الصواب الذى فاته .

أما الشيعة فهم يحصرون الخلافة فى الأسرة النبوية ، ويقولون بتقديس من يتولى
منهم شؤون المسلمين . .

ولست فقيهاً فى مذهب الشيعة . . ورأى أن الخلاف فى سياسة الحكم — عندنا
معشر المسلمين — سياسى لا عقدى ، وأن أركان الإسلام تظل عند ما يقحم عليها هذا
الخلاف الذى بدأ تافهاً ثم استفحل مذ خالطته شهوات الدنيا . . . !

وأريد أن أعرض هنا المسألة « عصمة الأئمة أو تقديس القادة » . . فإن القول
بعصمة واحد من هؤلاء هو عندى خرافة كبيرة .

ومن السخف أن يطالب عاقل بتصديق هذا الزعم سواء تبجح به رئيس أو
هرف به مرءوس . .

وربما كان الضغط الذى صادفه التشيع أول أمره سر انتشار هذه الخرافة .

فقد استبد الأمويون والعباسيون بالحكم دهرأ طويلاً ، وضيقوا الخناق على
معارضهم حتى جعلوهم يحيون فى جو من الوجل والتوجس . .

والأحزاب المناوئة للحاكم عند ما تفقد نعمة العلانية فى التنفيس عن رغباتها ،
والإبانة عن مقاصدها وغاياتها ، لا ترى بُدّاً من جمع فلولها فى الظلام ونشر تعاليمها
فى شكل رسائل أو منشورات مقتضبة حاسمة . .

وقد كان طلاب الخلافة من ذرية عليّ يعيشون فى هذا الخفاء المسحور ، وينالون
من الحب بقدر ما يناله الحاكم من سخط .

وربما كان بعضهم أعف نفساً وأصدق قيلاً من أمراء أمية والعباس فهو يرى فى
مناوشة الحاكم وإسقاطه خدمة للإسلام قبل أن يكون خدمة لنفسه . . .

والوسيلة الوحيدة هى المقاومة السرية ، حيث يتلقى الأتباع الأوامر الصادرة من
فوق على إنشائها نصوص واجبة الطاعة ، لا مجال ألّبتة لمناقشتها أو التلص منها ، لا ،
إن شيئاً من هذا لا يجوز بخاطر واحد من الأتباع ! فإن تنفيذ هذه الأوامر دين يُقبل
عليه النفس بلذّة وشغف ، ولو كانت عقباة العطوب . . !

وفي هذه الدائرة المغلقة تتحول الثقة في القيادة إلى قول بعصمة الأئمة .
ذلك أن مرور الزمن على هذا السكبت يحور الصلة بين الأتباع المضطهدين
وساداتهم المحتفين حتى تنتهي إلى هذا المصير . . .
وخطورة هذا الضرب من المعارضة المستخفية أنه البيئة الخصبة لنمو
الأوهام والأساطير .
وأظن أن الفرق الكثيرة التي نهشت جوهر الإسلام - من باطنية وقرامطة
وغيرهم - لم تتولد إلا في هذه البيئة . . .
إن الأوامر التي يصدرها أشخاص فقدوا قوة العمل في النور قلما تخضع
لتمحيص المنطق وتحقيق الشورى .
حتى بعد أن تواترهم السلطة وقيموا حكما يرعى أمور الناس في وضوح النهار . .
وهكذا ينتقل مبدأ تقديس الزعامة من صفوف المعارضة إلى صفوف الحكم نفسه
والإسلام يرى من هذا كله . . .
وقد رأيت جمًّا غفيرا من شباب الإخوان المسلمين ينظرون إلى « مرشدكم »
نظرة يجب أن تدرس وأن تحذر . .
قال أحدهم في اجتماع ضخيم للهيئة التأسيسية : إن المرشد لا يخطئ ، وكان
بهذه القولة العجيبة يريد أن يخذلني وأنا أعارض المرشد في بعض تصرفه وقد خذلت
فعلا ، ومزقت ملابس الرجل الذي وقف يناصرني . .
ومع أن كلمة « المرشد لا يخطئ » وجدت امتعاضا من أغلب الأعضاء . . إلا أنه
امتعاض المذنب عندما يواجه بحريرة لا يجد منها فكاكا . . ويكره أن تلتصق به ،
لظهور معرفتها . .
والقوم يخلطون بين توقيير القائد ، وتوفير المهابة له . . وبين الخنوع لرأيه
والمسارعة في هواه . .
إن أول مانشب الخلاف بيننا وبين المرشد العام كان على أسلوب الحكم في مصر
هل تكفل الحريات العامة ويصان الدستور القائم وتنقذ البلاد من استبداد فرد أو
أفراد ؟؟ أم نتجاهل هذا الموضوع كله ونطوى حكم الإسلام فيه وتشتغل جماعة
الإخوان بشئون أخرى ؟

كان الرجل شديد الحرص على مرضاة المستبدين قليل الاكتراث بحقوق الأفراد والطوائف . وقد ألفت كتابي « الإسلام والاستبداد السياسي » استنكارا لهذه السياسة القاصرة . ودفاعا عن تعاليم الإسلام الصحيحة . ولعل الأستاذ الهضيبي ومن معه عرفوا الآن الحق الذي خاصمناهم عليه وكرهونا من أجله .

قال لي ذات يوم ، واحد من أقرب رجال المرشد إليه : إن الإيمان بالقائد جزء من الإيمان بالدعوة ، ألا ترى أن الله ضم الإيمان بالرسول إلى الإيمان بذاته — جل شأنه — ؟ ذلك لأن المظهر العملي للطاعة والأسوة هو في اتباع القائد اتباعا مطلقا !!

ثم استدرك محدثي يقول : لا أعني بهذا أن أسوى بين المرشد والرسول في حقيقة الطاعة ، إنما أقصد دعم مشاعر الولاء نحو الرجل الذي يحمل راية الدعوة ، فأنا أضرب مثلا فحسب !!

ويمثل هذا الأسلوب رسم مجرى المعاملة بين مرشد الإخوان والجماعة فلما استغربناه وتأبيننا عليه ، ورأينا أنفسنا نبصر الحقائق القريبة والرجل لا يحسبها .. ونعامله مخطئا أو مصيبا غير مفرين هذه الهالة المزورة التي أضفاها الأغرار عليه ، مقتنا الرجل أشد المقت ، مقتنا كما يمتت الكفار والفساق .. !!

ثم سار بمن معه يتقجم العثرات والمزالق لايولى على شيء ولا يلام على شيء . وأعرف أن نفرا من العباقره ظهروا في ألمانيا وإيطاليا ومصر والهند أوتوا من المواهب الخارقة ماجرفوا به جماهير العامة واستهوا به الخاصة .

وكانت آراؤهم تعصف بما عداها وأشخاصهم تطوى الأصدقاء وتكسح الخصوم . وهؤلاء الزعماء الكبار لا تضبط صلاتهم باتباعهم — على هذا النحو — تعاليم الإسلام ، فلام عرفوها ولاهم تقيدوا بها . إن الاقدار قد تسليح بعض الناس بقوى أشبه بقوى القاطرة التي تجر وراءها ألف عربة وإذا كانت شعوب بأسرها يطويها الإعجاب بقائد مآ ، فتنشق حناجرها بالهتاف له ، وتملكها عقلية القطيع في السير وراءه ، فذاك أمر يصح أن تدرس علله ونتأمله على ضوء التاريخ القديم والحديث .

أما الشيء الذى تحار البرية فيه فهو إطباق قبيل من الناس على تقديس شخص ليست لديه ذرة من خصائص الأجداد ، أينما توجهه لآيات بخير .

وفى مُحمّى هذه الطاعة العمياء وقعت أمور يجب أن يكشف الستار عنها .
كانت المنشورات السرية تصدر حاملة أوامر القيادة الخفية وكانت هناك منشورات أخرى توزعها مراكز التجسس الاستعماري .. وتسيرها فى المجرى نفسه الذى تسير فيه المنشورات الأولى . . . وكان عبید الولاء يحترمون هذه وتلك ويتعصبون لها جميعا . ! !

وفى إبّان الخصومة القائمة بين المرشد العام وبين الحكومة القائمة نفذ المصطادون فى الماء العكر إلى داخل القطر ، فاستطاع الحزبون اليهود أن ينسفوا جسرا فى منطقة القناة ، تعكيراً للأمن وتعويقا للجلاء .

والغريب أن نفرا من عبید الولاء ظن هذه الحركة بداية جهاد ضد الانكيز (!) جهاد عملى يقوده المرشد نفسه (!) فرحب بهذه الأعمال . . . ! !
إن بركات الطاعة العمياء لا آخر لها ، وأولها أنها تصدق فى أصحابها قول القائل :

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

إننى أرجع بذهنى إلى الأيام التى استجلب فيها السيد حسن الهضبي ليقود الإخوان المسلمين . . فاستشعر الحسرة لأن النطق الوثنيّ فى تقدير الناس هو الذى هيمن على الموقف كله ، والأجهزة السرية العاملة فى الظلام هى التى سخرت تسخيها لإتمام المأساة . . .

لو كان المفروض أن يقود أهل الجهاد والعلم والدراية والتوجيه لوجد من هؤلاء كثير فى صفوف الإخوان . . لكن أصحاب هذه المؤهلات معروفون يتحدث الناس إليهم وبأخذون منهم ويردون عليهم .

والقائد لا يكون كذلك — وما ينبغى له — (!) ينبغى أن يكون شيئا مبهما تشرئب

إليه الإعناق ، وتخشع عنده النفوس . . . أجل . . . ينبغي أن يكون صنما حيا يأمر
فيطاع ، ويأتى إليه الأشياع ليمسحوا به ويطوفوا حوله . .

إذا فليكن المرشد رجلا غريبا عن الجماعة ! وقلت : أما تتخير رجلا له فضل
علم وتربية ، ليأخذ بنواصي الإخوان إلى الخير ؟ فصاح ناظر مدرسة إلزامية — يرد علىَّ
وهو يظن إنى أُرشح أحد أصدقائى من علماء الأزهر — قال فضَّ الله فاه : إننا
سنعطى شهادة العالمية لرجلنا هذا . . ! !

وسقطت قيادة الإخوان المسلمين فى أيدي رجال يمنحهم أتباعهم شهادات
المعرفة والفقہ ، لأن الوثنية فى تقويم الأشخاص هى التى سيطرت على الموقف . .

فلما أخذت شئون الدعوة تتدحرج وتهبط من درك إلى درك ، وشرع أولو
الرأى والغيرة يتدارسون الحلول المستطاعة لإخراج الجماعة من ورطتها جاء شاب
مسكين — من عبيد الولاء — إلى رجل له فى ميدان الدعوة عشرون عاما ، جاء
يقول له : أتريد أن تكون مرشدا ؟ أتريد أن تنازع فلانا منصبه العتيد ؟

وسكت الداعية القديم لحظة ثم قال : أما أستطيع أن أضع قدما على أخرى وأنظر
إليكم شزرا ؟ . . أما أستطيع أن أجلس أبكم ، فإذا سئلت أجبت بعد لأى بحروف
لا معنى لها ؟

أليست هذه خصائص العظمة التى جعلتكم تدينون لفلان هذا بالطاعة ، وترعد
أنوفكم إذا مس قداسته حفيف الريح ؟

لقد عرفنا كيف كانت الجاهلية الأولى تصنع الأوثان ثم تعبدوها ؟ نعم تعبدوها وهى
التي صنعتها بيديها . . ! !

وكما ينسب الفلاحون فى ريفنا طائفة من الكرامات الخارقة إلى أصحاب القبور
المدفونين فى قراهم ، أخذ المضللون من الإخوان يشيدون بكفايات المرشد الجديد . .
فإذا اصطاف بالاسكندرية قالوا : يتمهد الدعوة فى الثغر ! وإذا ذهب إلى لبنان — لأن
هواءها أنقى — قالوا : يجرس قضايا العرب ويشجع المرابطين فى القدس تجاه
اليهود (!) وإذا وصل إلى جدة قالوا : حج واعتمر ! ! وإذا لفتت له خطبة فطاف

العواصم والدساكر بها قالوا : سحر الناس بمنطقة وبلاغته . . وإذا اختفى عن
العيون قالوا : أوى الى الغار كما اختفى النبي صلى الله عليه وسلم عن أعين الكفار . .
وطبعي أن رجلا فارغا من هذا الطراز المحظوظ لن يضمهر في نفسه إلا البغضاء
والتنقص لكل ذي مكانة أو قدرة في جماعة الإخوان المسلمين .
ذلك أنه لم يأت عن تقدير للسبق والوفاء وبعْدِ الهمة وعموم النفع فكيف يقدر
صفات لم ينظر إليها قط عند استجلابه ؟ .

وعقدة الضعة تجعل صاحبها لا يكتفى بتخطي من هم أكفأ منه ، بل أنه يسمد
بتحطيمهم ، ويسر إذ يقدر على إقصائهم وإطفائهم .

لقد جاء حسن الهضيبي — وهو أحدث الناس عهداً بدعوة الإخوان المسلمين —
فأراد أن يكون أقدم الناس فيها . . بإخراج غيره . . وجاء قزماً بين عمالقة ، فشاء أن
يكون عملاقاً بين أقزام . . ! !

ونظرنا إلى هذا الخلل الفظيع في مقاييس الخير عندنا ، فعلمنا أن سوف نحرم من
رعاية الله أبداً إذا قررناه . . وزاد من حساسيتنا به أن الشبان الذين كثروا في قاعدة
الجماعة اضطربت أفكارهم وأحكامهم حتى خيل إلى بعضهم أن يزن أقدارنا بمدى
رضاء المرشد عنا ، ومدى ولائنا له ! !

أما الخطأ والصواب ، أما المقيم والإنتاج ، أما النكوص والشجاعة ، بل قل :
أما العلم والجهل . . فتلك أمور لا يلتفت إليها في تقديم وتأخير . . .
وعفاء على أمة تستقر فيها تلك المهازل . . إن البقاء فيها مضيعة للوقت
ومنقصة للدين !

أأشقى به غرسا ؟ وأجنيه ذلة ؟ إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما !!
إن هناك حالة واحدة فحسب ، هي التي يعد فيها الأستاذ المرشد العام بطل الأبطال
وقائد النساء والرجال . . تلك أن تفشل الثورة ضد النظام الملكي . . والعهد
الإقطاعي ، ويعود فاروق والباشوات مرة أخرى إلى حكم هذه البلاد . .
يومئذ . . توضع العصاية الغراء على رأس المرشد الحاقد على الثائرين ، الوفي
لساداته الأقدمين .

وقد يجعل شيخنا للأزهر إلى جانب استبقائه مدى الحياة رئيساً للإخوان المسلمين .
ويتبع هذا — بداهة — أن تصب علينا اللعنات ، نحن الذين ظلمنا سنين طويلة
نحارب الملوك وفسادهم واستبدادهم ، ونحارب المترفين وفسوقهم ومظالمهم . . .
فلما سقطوا — بعد ما كتبنا ضدهم مئات المقالات ، وألقينا ضدهم مئات
المحاضرات — شاءت الأقدار أن يقع زمام جماعتنا في يد رجل يحرق هذه الغراس كلها ،
ويحرمنا جناها ، ويخوض باسم الاسلام المظلوم المقتري عليه معركة يريد بها
إعادة الوثنية السياسية الأولى . . وهو — إن نجح أو فشل — يصيب الإسلام
في مقاتله ، ويحرق عليه الولايات . .

ولكنى — مرة أخرى — أرجع باللوم على القطيع المسير .
إن حسن النية لا يشفع في الاستجابة لأصحاب الأهواء المغرضين والخبثاء .
وقد نعى القرآن على قوم أغلقوا عقولهم على رأى فلم يفهموا سواء ولم يفكروا
فيما عداه . زاعمين أن الخير فيه وحده فقال فيهم « قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً
الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . . . ؟ »
كذلك حسبوا — وهم ما أحسنوا ولا قاربوا — ، فلم يعذروا بحسن النية ،
بعد ما جددت عقولهم على الخرافات وأغلقوا آذانهم دون الناصحين المخلصين .

كتب زميلي الأستاذ زكريا إبراهيم الزوكة — يصف اجتماعاً من أخطر الاجتماعات
التي عقدها الإخوان ليتدبروا موقفهم بعد اختفاء « المرشد » وتوتر الصلات بين بعض
الجماعة وبعضها الآخر — فقال :

شهدت اجتماع الهيئة التأسيسية الأخير فرأيت ما يُغَيِّثُ النفس ويبهت الحق
وبدع الحليم حيران . . شهدت من يكذب الكذبة الهائلة فإذا قام بعض الشهود
ليصححوا له قوله . ويشهدوا بما رأوا وسمعوا . . أسكتوا بالقوة . واستمعين عليهم
بأشخاص لا عقل لهم ولا خلق . وإنما أُتِيَ بهم ليمثلوا دور المتأففين والمهرجين في
اجتماعات الأحزاب البائدة . .

وشهدت رجلاً كان يهاجم الأستاذ البنا رحمه الله في الهيئة التأسيسية مهاجمة عنيفة ويخاطبه بما لا يليق من الألفاظ . فلما ثار عليه الإخوان غضب الإمام الشهيد وثار في وجه الغاضبين ، حتى لقد أخرج بعضهم ، ثم أقبل مبتسماً على هذا المهاجم المتجنى وقال له : قل ما شئت وانقذني كما ترى ، فلن تقاطع بعد ذلك . ولعلني أجد في قولك ما أصلح به خطأ أو أقوم به معوجاً . . .

شهدت هذا الرجل نفسه في اجتماع الهيئة التأسيسية الأخير يثور ويفور ويكاد ، يتميز من الغيظ ، لأن أخاً قام ينتقد بعض ما يراه مائلاً من أوضاع الجماعة . فقلت : يا عجبا كيف يحرم هذا الأخ على غيره ما كان يستبيحه لنفسه ؟ . فسمعت من يهمس في أذني بالجواب ويقول لأن المرشد الجديد كان قد رشحه وزيراً فهو يدافع عن الوزارة المحبوبة ، لا عن الحق الفقير .

وشهدت أخاً فاضلاً كان ينتقد تصرفات المرشد الحالي انتقاداً مرّاً . ويصفه في مجالسه الخاصة والمجالس التي يشهدها بما لم يصفه به الغزالي أو صالح عثماني .

فإذا به في اجتماع الهيئة يدافع عن هذا المرشد نفسه دفاع الأبطال . ويحاول — في عصبية — أن يني عنه كل شبهة ويدراً كل تقيصة . . . فسألت في دهشة : أغير المرشد أم تغير هذا الأخ ؟

فقبل لي بل تغير هذا الأخ ، كان غاضباً قبل اليوم لأنهم افتاتوا على منصبه في الدعوة ووضعوا فيه أحد المقربين . . ثم بدلت الحال غير الحال وأصبح الصفى القرب مغضوباً عليه فرأى صاحبنا القديم أن الفرصة سنحت وأنه وشيك أن يسترد مكانته إن هو انحنى واستدار ونظر إلى العيوب والأخطاء بعين الرضا لا بعين الإنصاف .

وشهدت رجلاً يفتي في دين الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، فلما قيل له : اتق الله . أخذته العزة بالإثم وكاد — في فورة الحماس — أن يرفع العصا في يده ويقول : إن شئتم برهاناً فهذا برهانى .

وشهدت إخواناً من الشباب — لم يهدم علم ولم تصقلهم تجربة — شهدتهم يقفون على رؤوس المعارضين بعيون يطاير منها الشرر ويريدون التحرش بكل من يريد أن يدلي بالحق ويقيم الشهادة لله . .

حتى لقد همس في أذني أحد الإخوان الفضلاء من ذوى السبق والمكانة وقال : كم أود أن أتكلم فقلت له — وأنا أبتسم — وما يمنعك قال : أخشى أن يجهل على هذا . وأشار إلى واحد من هؤلاء الحراس .

هذا بعض ما شهدت من المضحكات المبكيات في اجتماع الهيئة التأسيسية . ولقد غادرت الاجتماع قبل أن يبلغ مداه ، وأنا أكاد أقطر ، أسفاً لأن هؤلاء هم الذين يريدون أن يقودوا الإسلام في أعصب أيامه وأشد ميادينه حرجاً : هؤلاء هم الرجال الذين ناصبونا العداوة ، وارتأوا فصلنا من الجماعة ، بل إبعادنا عن الإسلام نفسه .

فانظر ماذا كنا نقول لهم . وبماذا ناشدنا ضمير كل ذى ضمير فيهم .

أيها ^(١) الأخ المسلم :

لا نريد أن تأخذ كلامنا قضية مسلمة ، ولا أن تقبل كلام غيرنا دون مناقشة وتدبر ، ابحث عن الحق ، واجتهد أن تصل إليه . فإذا عرفته فاعرف الرجال على ضوئه ، وصادقهم أو خاصمهم على أساسه .

إن المسلم الصادق هو الذى يعرف الرجال بالحق . أما أولئك الذين يعرفون الحق بالرجال ويثقون فى أى كلام يلقي إليهم لأنه صادر عن فلان أو فلان ، فهم أبعد الناس من فهم الإسلام ، بل هم آخر من يقدم للإسلام خيراً أو يحرز له نصراً . .

وافقه أيها الأخ كلمة الإمام مالك بن أنس : « كل أمرئ يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا المقام » — يعنى « رسول الله صلى الله عليه وسلم » . .

ثم إن من الخطأ الكبير أن تحسب الأحداث الأخيرة فى محيط الإخوان المسلمين قضية أشخاص فصلوا عن جور متمعد أو عن تصرف سيء . كلاً ، كلاً . فقضية الدعوى الكبرى هى التى تعنيننا أولاً وآخراً . .

(١) من نداء أذعنناه عقب فصلنا .

هل ستترك الأيدي الخفية تلعب بزمام الحركة الإسلامية الكبيرة ؟ وتشل نشاطها في ميادين الحياة والجهاد كما وقع منذ ثلاث سنوات .

هل من الضروري أن يحمل الإسلام سنين طويلة أوزار قيادة واهنة مربكة تستر ضعفها بالاستبداد ، ونكوصها بالمكر السيئ ؟ ولحساب من هذا كله ؟ ؟
إن الأستاذ حسن المصليبي كان ألين الناس مع الأحزاب التي قتلت حسن البنا كان يدعو جهاراً إلى مصالحتهم ونسيان الماضي . . . ! !

لكن هذه الليونة تحولت مع الإخوان إلى بطش وتفكيك ، تبعها حرب شعواء من المفتريات التي تتلمس للأبرياء العيوب وتداور بدهاء لتجمل الظلم عدلاً . . .
وهيهات . . .

إننا نعرض صحيفتنا ونسوق الوقائع كما حدثت وندع لذوى الأبصار النيرة والضائر الحية أن يحكموا . . . لنا أو علينا . . . ! !

نعم ، لنا أو علينا ! ! فنحن نرضى مواقف المفكرين المنصفين وإن كانت ضدنا .
أما الذين يغلقون آذانهم على ما قيل لهم ولا يقبلون سواء ، فنحن نرفض حكمهم ولو كان لنا . . . ! !
أيها الأخ المسلم :

إن شرف دعوتك العظيمة في أنها صدق للإسلام ، وصورة كاملة لتعاليمه الراشدة

— فاعلم أن الإسلام بنى على الوضوح والثقة والتعقل .

— « ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين » .

— « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » .

— فرفض النموض في رسالتك واحذر قبول الريبة باسم السمع والطاعة .

فالطاعة في المعروف ، والرسول يقول : « دع ما يريبك إلا ما لا يريبك » .

— ولا تتعصب إلا لما تعقل وتؤمن . فإن التسليم للأوهام بعض طقوس

الماسونية في هذا العصر ، وبعض طقوس الكنيسة في العصور الوسطى المظلمة . . .

— أما الإسلام فبرىء من هذه المسالك الحديثة . . .

إن قيادة الإخوان الآن حريصة على الأوضاع الغامضة والقرارات المريبة الجائرة .

وهي مسئولة أمام الله والناس عن مشاعر الحيرة والبلبلة التي تغمر قلوب الإخوان في كل مكان .

ثم هي مسئولة — من قبل ومن بعد — عن الخسائر التي أصابت الحركة الإسلامية في هذا العصر .

وعن التهم الشنيعة التي توجه للإسلام من خصومه المتربصين .
فقد صورته نزوات فرد متحكم ، كما صورت هيئة الإخوان المسلمين وكأنها حزب من الأحزاب المنحلة تسودها الدسائس وتسيرها الأهواء .
وقد أعذرنا بهذا البيان .

وسوف نبقى في أوضاعنا ندفع عن الإسلام شرور أعدائه السافرين والدخلاء حتى تفجلى الغمة ويفرح المؤمنون بنصر الله .

إن هذه المناشدة الحارة لم تجد صداها الواجب .
كان الجمهور المخدوع كالزجاجات المعبأة إلى نهايتها ، لا تقبل جديدا ولا مزيدا .
فرأينا أن نسير وحدنا بعد أن أفرغنا جھدنا .
ومادار بخواطرننا أن القدر يخبأ في طياته هذه الأحزان الطويلة للقاصرين البائسين
(٣*)

تعلم أن الإسلام أول أمره اشتبك مع اليهود في حرب ضروس . . لم يضع أوزارها حتى انكسرت شوكتهم وكتب عليهم الجلاء ، فاختفت جماعاتهم من جزيرة العرب واضمحلت قواهم أمام امتداد الإسلام في المشرق والمغرب .
لكن اليهود الذي مُنُوا بالهزيمة التامة في ميدان القتال . . وأعجزهم أن يصيبوه بأقل أذى في ساحة مكشوفة واضحة . . انقلبتوا يكيّدون له في ميدان آخر فاستطاعوا أن يلحقوا به متاعب جمة . . مازال من أربعة عشر قرنا مضت يعالج جرّاها إلى اليوم !

(*) نشر هذا المقال سنة ١٣٧٣ . قبل عام من المحاكمات التي وقعت أخيرا .

دسوا وسط الجماعة المسلمة من يُورث نار الفتنة ويلبس على المسلمين أمر دينهم
ودنياهم .. فإذا بالفكر الإسلامي تشوبه الخرافة .. وإذا بالأسرائيليات تمتزج
بمنابع ثقافتنا وتغزو عقول العوام وتعوج بسير الإسلام وسط أهله أنفسهم !
فكيف يستقيم سيره - بعد - بين الناس ؟

ومعنى ذلك أن اليهود ثأروا لأنفسهم من الهزيمة التي أدركتهم ، وإن كان
علماء الدين ونقدة الشريعة لم يستكينوا لهذا البلاء ، وبذلوا جهودا كبيرة في
فضح هذه الإسرائيليات وتخليص لباب الإسلام الحق من تلك المحدثات
التي اعترته ..

وقريب من نضح اليهودية الماكرة على الإسلام مارووه من أن الفرس لما دخلوا
الإسلام نقلوا إليه تقاليدهم في معاملة الأسرة المالكة عندهم .

فجعلوا الأسرة النبوية موطن قداسة وعصمة ، وأحبوا أن تقعد في محبتهم
المكانة التي كانت قبلا لآل ساسان .. وبذلك تعكروا رواء الإسلام في أذهانهم كما
يعكروا كوب الماء إذا سقطت فيه قطرة مداد ! ..

إن الحقيقة العليا في هذا الدين يجب ألا يشوب صفاءها كدر ..

وسواء انتصرت أو انهزمت فلا يجوز أن يتطرق إليها زيادة أو نقصان
أو تحريف ..

وقد قلت في حديث سابق : إن اجتياح (التتار) لبلاد الإسلام وطبها لراية
الخلافة في بغداد وتقتيلها ما قتلت من السادة والرعا .. إن ذلك المصاب أهون
في وقعه وأثره من شيوع مذهب المرجئة بين عوام المسلمين وظنهم أن الأعمال ليست
ضرورة لصحة الإيمان .

وعندما أنهض الإسلام جماعة الإخوان المسلمين في مصر كما ينصفوا مبادئه
ويذودوا عن حماه تنصرت وجوه كثيرة ، وتمشت حرارة الأمل في أوصال المؤمنين .
وتمشت إلى جانبها رعدة الخوف في قلوب الفساق والظالمين .. وسارت الدعوة تطوى
الراحل البعيدة وهي تمر مر السحاب ..

وشرفها الذي تنأى به الأولين والآخرين أنها تتأثر صاحب الرسالة العظيم
صلوات الله عليه وسلامه وتقبس من سناه .

ثم جاءت المحنة الكبيرة فقتل حسن البنا جهرة لا اغتيالاً . . . واقْتيد خيرة إخوانه إلى المنافي والسجون ، وظل الإرهاب المسلط يجرعهم الغصص ويتوقع منهم الفتنة . حتى جاء نصر الله ، فانجابت الغمة وعدنا كما كنا أحراراً . .

أجل عدنا . . وما في نيتنا أن نبدل من منهاجنا شيئاً ! ولا أن نغير من سياستنا إلا ما يضاعف كراهيتنا للحكام المستبدين ! ويباعد شقة اللقاء بيننا وبينهم أبد الآبدين . .
يبد أننا فوجئنا بالوقيمة تتسرب إلينا . . وفوجئنا بالدخلاء على الجماعة يُغيرون سيرها ومنهجها .

ونظرت فإذا بأناس لم يعذبوا في ذات الله يوماً ينادون طالبين الأمان !!
نعم إن الرجال الذين لم يدخلوا سجننا ولم يشقوا في معقل كانوا أول من رفع راية التسليم ، وقرر أن ينحني مقبلاً اليد التي قتلت حسن البناء . .
كان هؤلاء الجبناء — في حياة حسن البنا — يقبلون يده ظهر أو بطناً . فلما ولى هرعوا إلى القصر الملكي ، يقيدون أسماءهم في سجل الشريقات ، ويهادنون أعضاء الحزب السعدى وينظرون إلينا شزراً إذا سألناهم معاتبين ، أو جادلناهم محاسبين . .
أرأيت ؟ كان شرف الدعوة التي قادها الإخوان المسلمون إنها خطر على الإقطاع الزراعى ، والافتيات الرأسمالى ، والاستبداد السياسى ، لأنها صدى الإسلام الصحيح والإسلام الصحيح لا يبقى حيث تسود وتتوغل هذه المفاصد الشائنة . .
غير أن حفنة من الملتحقين بالركب الإسلامى شاءت أن تعسكر هذا كله ، وأن تجعل حصاد ربع قرن هشيماً تذروه الرياح . .

أى أن الإخوان الأصلاء نجحوا في المحنة التي محصت معدنهم ، فلما عزَّ على الشيطان أن يحرزهم قيد أئمة دس عليها من يلوى زمامهم عن الجادة ويجهد عبثاً ليضل فقهم للإسلام وجهادهم من أجله . .

ومن ثم ينبجح حيث فشل السعديون واليهود والانجليز وغيرهم . وماذا بعد أن يضطرب مسلك الإخوان في نصرة المثل العليا التي كانوا أول من هتف بها ، وحدا الشعب إليها . . ؟

إننا لم نسكت بداهة على هذا التحول المريب ، وعندما تأتي ساعة الحساب سنذكر ماقلنا وما قيل لنا ، وسنذكر ما ترك لنا وما أنكر علينا ، ويومئذ تبيض وجوه وتسود وجوه . . .

ولست براغب الآن في سرد قصة معينة ولا اسم معين ولست بمتحدث كذلك عن الخسائر الباهظة التي لحقت الدعوة منذ عامين في ميادين شتى .

وحسبي أن أنصح الإخوان المسلمين بكلمات موجزة .

إنه لا قيمة لحياة أشخاص أو مماتهم ، ولا لبقائهم أو ذهابهم إذا ظلمتم أنتم أيها الإخوان أوفياء للدين الذي قتم على دعوته واستمدتم وجاهتكم عند الله والناس من العمل به والجهاد له .

ودينكم بإزاء الفرد علم وتربية فاحذروا على أنفسكم الجهال بالإسلام والفساق عن أمر الله وأيقنوا بأن الله لا ينزل نصره على متجر بدينه إذا خلا بحرمة لله سطا عليها .

ودينكم بازاد المجتمع أخوة ، وتناصر ، ووحدة . وتلك معان مستغفيرة في دنيا الإقطاع حيث تظالم الطبقات ودسائس السادة والعبيد ، فاحذروا على صفوفكم أذئاب العهد البائد ، احذروا الرجال الذين أذعنوا للعبودية يوم نشرت ظلامها في الآفاق ، ونكصوا على أعقابهم ضائقين يوم بدت طلائع النور الخافت . . . لأنهم خفافيش . . . خفافيش للأسف تزعم أنها وحدها صاحبة الحق في الكلام عن الإسلام .

ودينكم بإزاء الدولة عدالة ، سبيلها الحكم بما أنزل الله . . .

والرجل الذي يأبى الحكم بما أنزل الله في خاصة نفسه وفي حدود إخوانه الأقربين لا يتصور منه أن يحكم بما أنزل الله بين الناس ، وسيكذبه العالم كله يوم يزعم ذلك ، فاحذروا على كياناتكم أيها الإخوان هذا التطاول الذي — إذا كره طارد العلماء المجاهدين — وإذا رضى قرب المداهنيين والقاعدين . ثم ادعى بعد ذلك أنه يحكم بما أنزل الله . . .

انسوا أشخاصنا واذكروا دعوتكم على ضوء الإسلام وحده .

إن العابثين بمقائيق الإسلام الكبرى لهم مطامع لم تنته بعد .

ومرة أخرى أقول لكم : إن الإسلام يحتاج المهم البعيدة والمشاعر الحية
النابضة فاحذروا الرجال الذين سقطت همتهم وبردت عاطفتهم وفرضوا موات أنفسهم
على دين قام من نشأته بحب المحققين وبغض المبطلين .

ذاك ما كتبته منذ عام تحت عنوان « انسوا أشخاصنا واذكروا هذا » !!
لكن هذا النصيح الحار ذهب هدرا . .

إن الحقى لعنوا أشخاصنا ونسوا هذا . ثم انطلق الأستاذ حسن الهضيبي يجرى
بالجماعة جريا ، بل يمدو بها عدوا ، إلى أجمع المصائر . .

لست أدري أنسى الإخوان أم تناسوا مواقف هذا « الحسن » مع أركان
الفساد القديم ؟

يوم لقحت الحرب بين الشعب المصرى والقصر الملكى شاء المرشد « الموفق »
أن يقول : فارق ملك كريم ، وأن يفجأ بمن معه إليه على ظن أن القصر
أقوى جهة . .

ويوم طارت شرارة الكفاح بين الإنجليز المعسكرين على ضفاف القناة وبين
المجاهدين الناقين على بقائهم بين ظهرايننا ، شاء المرشد الموفق أن يطفى هذا الشرر ،
وأن يكذبنا حين صحننا : إن دماء المحتلين مستباحة .

ويوم اشتاق هذا الشعب إلى إزالة الأحزاب الحاكمة وتطبيق دستور سنة ١٩٢٣
شاء المرشد الموفق أن يدخل فى معركة الدستور خصما للحرية وعونا للباشوات
المتآمرين مع القصر ومع أعداء البلاد . .

وباسم السمع والطاعة ، اقتيد الأغرار إلى مصارعهم :

ألا ليتهم لم يصنعوا إليه ، ولم يخدعوا به .

وما تغنى « ليت » ؟

« يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » .

هممت — غير مرة — أن أطوى هذا الذى كتبته فى السمع والطاعة بعد
الأحداث الجسام التى قرعت أنباؤها الآذان وأغنت مرارتها عن كل تبيان .

لكنى آثرت أن أرويهَا كما وقعت في إبانها لأمر .

منها إنصاف الحقيقة العارية ، وذكرها للتاريخ العدل .

فلعل المتأمل فيها بعد انتقضائنا يجد فيها معاني لا ندرُكها — نحن المعاصرين لها —
ومنها قمع الغرور الذى يستولى على أغلب العاملين في البيئات الدنيئة ، فيشتطُّ
بهم بعيدا عن مرضاة الله وعن إقناع العقلاء . . .

وانظر — وعاك الله — إلى ما روى مِنْ أَنَّ أَتْبَاعَ زَعِيمٍ دِينِي فِي السُّودَانِ
تَهَاوَتْ عَلَى تَقْبِيلِ سُلَمِ عَرَبِ السَّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ الَّتِي سَافَرُ فِيهَا . . . وَقَالَ الشُّعْرَاءُ
فِي تَحِيَّتِهِ :

« أعداء ذاتك عصابة في النار ! ! »

إن صلف الرؤساء وهوس العوام على هذا النحو جاهلية عمياء وليست
إسلاما قط .

إن كلمة « أَغْمَضْ عَيْنِيكَ وَاتَّبِعْنِي » لا يمكن أبدا أن يُقرَّها دين يُؤمِّرُ رسولُهُ
بهذا البيان الواضح « قُلْ : هَذِهِ سَبِيلِي ، أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ
اتَّبَعَنِي ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

فَلَنَخْدُمُ الْإِسْلَامَ بِقُوَّةٍ ، وَلنَخْدُمَهُ بِنِظَامٍ .

أما إشباع نزوات الاستعلاء في هذا ، وكبوات الاستخذاء في ذاك ، بالكبر
هنا ، وبالهموان هناك ، فأبعد ساحة عنه ، ساحة يهتف فيها باسم الله ويُقرضُ فيها
العمل للإسلام .

دروس ...

[للقاد مقاييس شتى يقدرن بها الأمور ويتعرفون الخطأ والصواب والنقص
والتمام وتقوينا نحن لا يعتمد إلا مقياسا واحدا ... هو الإسلام ..]

فن الاختلاط والعزلة

هي جنة الدنيا قبل جنة الآخرة . . .

ما أهدأ العيش فيها ، وأقره للعين ، وأبعده عن دواعي اللغو واللغوب . !!
ربوة صامئة وادعة ، يجد المرء في سكونها سكينته نفسه ، وفي انقطاعها فرصة
للفراغ من الخلق والتفرغ للخالق .

ولئن كانت عقد الحياة وهواجس الطباع ومشاكل الناس تنهّب قلب المرء
وتبعث به شعاعاً لا يمسكه شيء إن هذه الربوة المنعزلة في هذا الشعب البعيد
تجمع قلب المرء على ربّه فما ينقطع عن ذكره في صباح أو أصيل .
سيكون الأنس بالله أصلاً قائماً ، والذهول عنه عرضاً عابراً .
وهل ينشد المؤمن حياة أفضل من تلك . . ؟

دارت هذه المعاني في خلد مسافر طيب من صحابة رسول الله ، وحدثته نفسه
أن يجنح إلى البقعة الريفية التي تعشقها . . لكنه لم يعزم على شيء حتى يسأل رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، ويستهديه فيما يفعل ويدع . .
عن أبي هريرة قال : مر رجل بشعب فيه عينته من ماء عذبة . . فقال : لو اعتزلت
الناس فأقمت في هذا الشعب . . .

إن الذين يماجون شئون الناس يرون حول هذه العينة السائلة بالرى العذب ،
أمنية شهية المثال ، إن المكدود يهرع إليها ليراح كما يأوى إليها الظمآن ليروى . . .
ما أشوقنا إلى هذا البعد البعيد وكم تهفو أفئدتنا إلى الارتقاء في أحضان هذه
الوحشة السائدة ، وكم تتمثل ألسنتنا بقول القائل :

وإن امرءاً يمسى ويصبح سالماً من الناس ، إلا ما جنى ، لسعيد
على أن هذا الصحابي لم يطاوع رغبته أول ما جاشت . .
فقبل أن يعتزل الناس في هذه الناحية المعجبة قال : لن أفعل حتى أستأذن
رسول الله . .

ورسول الله أعرف الناس بالعزلة وما يدفع إليها ، وما تتمخض عنه ، وما يبغيه
طلابها من استجماع واستجمام ، عندما تتوج المجتمعات بالفتنة والصخب . .

لطالما أوى إلى غار حراء مولياً عن الجاهلية التي غمرت الدنيا بالشرك والإثم . .
حتى طلع عليه صبح الوحي فرجع منه يحمل إلى الحياة رسالة الفور . . .
ومن قبله قال الخليل إبراهيم لقومه المشغوفين بعبادة الأصنام :
« وأعتزلكم وما تدعون من دون الله . . وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء
ربى شقياً » .

غير أن العزلة كالصمت . . . والصمت قد ينشأ عن الوقار والجد ، وقد ينشأ
عن العى والحصر . . .

كذلك اعتزال الناس ربما كان أثر كلال من معاملتهم فهو انسحاب من الميدان
أو كان استعداداً لمنازلتهم فهو عون على النضال . .
ومثل هذه الأمور لا يحمد ولا يذم في كل حال . .

ومن ثم تفاوتت السنن الواردة في تقدير العزلة والحكم عليها ، إلا أن المقطوع به ،
أن اتجاه الإسلام في شرح مراتب السكال يخالف ما عرف في ذلك عن الديانات الأولى . .
كان الترهّب في الصوامع القصية ، والانقطاع في الأديار حتى الموت ، وهجر
الحياة ومطالبها ، والإقبال على النفس بالمجاهدة وعلى الفكر بالتأمل ، كان ذلك كله
آية اليقين البالغ والصفاء التام والتوبة التي لا ريب فيها . . .

وبهذا المنهج كان الفرد المؤمن إذا تطلع إلى مزيد من التقوى يقربه إلى الله ، ركن
إلى الذكر والقراءة والاستغفار والصلوات ، وكلما تخفف من الدنيا ومن الناس
بما يعينه على هذه الغاية كان أنقى وأزكى . . !!

أما الإسلام فقد رسم للعبد المجتهد طريقاً أخرى غير هذه الرهبانية الخاشعة
المتبيلة ، طريقاً يحشّمهم السير في الرمضاء ونحت الصخور . . .
إنه لم يقل لمن يحبون الله اعتزلوا الحياة وتأملوا . . .

بل قال لهم : انغمسوا في الحياة وعالجوا باطلها بالحق ، وقاوموا طواغيتها
بالقوة ، وابدلوا في تقويمهم المال والدم .

وبهذا التعريف الجديد للتقوى أصبح المؤمنون فرساناً لا رهباناً ، ورفض الترهّب
الذى يدع الإثم يسير من غير نكير ، وأصبح الإقبال على الحياة ومعالجة كروبها
وهومها لإثبات معروف ومحو منكر ، جهاداً مبروراً والغدو والرواح . . .

ولا شك أن أهل الشر وحضنة الفساد كرهوا الإسلام لهذه النزعة البادية في تعاليمه . . .

ومنطقهم في كراهيته بين . . .

فهم لا يضارئون من رجال يتقربون إلى الله بالفرار من ضرور الدنيا ، وإنما يضارئون من رجال يتقربون إلى الله بالهجوم على هذه الدنيا ، لتقييد الشياطين المهتاجة في جنباتها . . .

وأولى الناس بمعرفة هذه الحقيقة حملة رسالات الإصلاح . .

ولذلك قال رسول الله : لصاحبه الذي شاقته العزلة ، وأعجبه أن يعبد الله في شعف الجبال « لا تفعل » فإن مقام أحدكم في سبيل الله تعالى أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً .. ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة . . اغزوا في سبيل الله . . من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة . . .

وفي رواية لأحمد « لمقام أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة » .

ونحن على هدى تجاربنا مع الناس وفقهنا في الإسلام نشعر بأن الإنسان في كفاحه العام يحتاج إلى أوقات يتفرد فيها بنفسه مثلما يحتاج السائر إلى منازل يحط فيها رحاله ويجم فيها بدنه ، ومثلما يحتاج القاري إلى هدايات ينسق فيها معارفه وينظم بها فكره . .

والإسلام الذي يسن الاعتكاف لأبنائه . ويأذن لهم بالعزلة إلى حين . يرفض أن تتحول هذه العزلة إلى هجران للمجتمع وقلة مبالاة بالمعركة الخالدة الدائرة بين الحق والباطل . .

لأن العزلة — ولو في عبادة — لن تعدو ضرباً من الراحة المحببة أو اللذة التي تنشدها النفوس ، تُشدان الأجسام لبعض الشهوات . . ! !

وما قيمة عبادة تجمل صاحبها محايداً ، أو مشاول اليد ، في حرب بين الكفر والإيمان لا تدرى نتائجها . . ؟

ذلك ما كرهه الرسول لصاحبه الذي يتطلع إلى العزلة .

ثم مضى هذا الرسول العظيم يقارن بين جهاد الاختلاط وجهاد العزلة فصور بعد الشقة بين الأمرين تصويراً عجيباً .

قال أبو هريرة : قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل ؟ قال : لا تستطيعونه ! قال : فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً . . كل ذلك يقول : لا تستطيعونه ! وقال في الثالثة : مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله .

وحدث النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول الله فقال رجل : ما أبالي أن أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج . . وقال آخر : ما أبالي أن أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمّر المسجد الحرام . . وقال آخر : الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلت . . فزجرهم عمر ، وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو يوم الجمعة — ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه . . فأزل الله عز وجل :

« أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ . . وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . . الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ . . وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » .

ومضت السنن المروية عن صاحب الرسالة العظمى تصور الحسنات التي تسجل للمجاهدين وتذكر الأضعاف التي تنضاف إليهم من حيث لا يحتسبون . . حتى عدت في موازين أعمالهم أرواث الخليل التي يمتطونها وهم يجوبون الميادين إحقاقاً للحق وإبطالا للباطل ، إن هذه الأرواث أذكى من الحرير والدّمّقس الذي يحبُّ فيه القاعدون .

وأعرف من بلائ مع الناس أن الإنسان قد يتأذى من كنفودهم وغدراهم ، حتى ليأنس بالحيوان ويرهب أبناء جنسه .

وأنه قد يشمئز من بعض الأخلاق والأعمال فيفر منها كما يفر من مصادر الروائح العفنة .

بيد أن هذه المشاعر إن سوغت الاعتكاف حينما فهي لا تسوغ الإدبار والنفور آخر الدهر . . .

فليس من مصلحة الدين والحياة أن يترك الشر يرح ويمتد دون جهاد حلواً أو مريراً

في ميدان التربية

للسعى في تحصيل الفضائل واستكمال الأجداد ، سعادة يستشعرها الرجال المسكافون ويستطيعون بها مراحل الكفاح وإن طالت .

وربما كان هذا الإحساس المقارن نفحة من السماء ، تذكر الإنسان بأصله العريق وتنعش فيه مواهبه العليا ، وتؤنسه بحياة الطهر والعفاف والترفع ، إن حاولت الوسواس الأخرى أن تزل قدمه أو تخلد به إلى الأرض .

وإغراء التوايين والتطهرين بنشوة هذا الإحساس الراقى بعض ما عناه النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يوصي الشباب بالتسامي عن الدنيا قائلاً : « النظره سهم مسموم من سهام إبليس - لعنه الله - من تركها خوفاً من الله آتاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه » .

فخطورة النظرة الخبيثة ، أنها محور لما يسميه علماء النفس بتداعى المعانى .
إن الفيضان المدمر قد يبدأ ثقباً صغيراً في السدود الحاجزة .
والحريق المستعرة قد تبدأ شرراً خفيفاً .

كذلك تمرغ المرء في المعصية وتقلبه في حماها إنما ينشأ عن تهاون واستخفاف .
النظرة العابرة تعقب أفكاراً مشوهه وتحرك أمانى مكظومة وتثير في نواحي النفس لغطاً وحيرة .

وأدنى مراتبها إنما لو لم تجلب شرراً عاجلاً فهي عائق عن الفضيلة والتجرد لها وكما قال الشاعر :

وكنيت إذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

أما حين يملك الرجل إرادته ويحكم نظره ويراقب ربه ويمشي في طريقه وهو موقن بأنه لن يغيب لحظة عن شهوده وهو القائل : « يَمْلِكُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » .

أما حين يدأب على متابعة الخطوة في سبيل الاستقامة والكرامة ولا تزيده

الأيام إلا استهيجانا للآثام واحتراما للفضائل، فإنه يرزق قلبا حيا يقرأ بالطاعات ويتهيج بأدائها، ويفرح بالبعد عن مساخط الله، فرحة الصحيح بالعافية من الأدوية والعمل. للكسل لذة يتحدث عنها المعجزة والقاعدون.

وللعمل لذة يعرفها أولو النجدة والبأس ويبلغون في ظلها أهدافهم القصية. وشتان بين هذه اللذة وتلك..

للكوص لذة بتشبت بها الهاربون الجبناء، وللمغامرة لذة يطير بنشوتها بغاة الملا، وعلى فم أحدهم.

تأخرت أستبق الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أقدم
شتان بين لذة ولذة.

وللتهاون بالصلاة والنوم عنها لذة صغيرة، فإن إقام الصلاة ثقيل مرهق للكثير « وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ».

ولكن لذكر الله وإقام الصلاة سعادة يشعر بها قوم آخرون وتتجدد بها قواهم. وفي الحديث « يعقد الشيطان على قافية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد. يضرب مكان كل عقدة - عليك ليل طويل فارقد - فإذا استيقظ فذكر الله انحلت عقدة فإذا توضأ انحلت عقدة فإذا صلى انحلت العقد الثلاث، فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان ».

ومن التفرير السيء أن تحسب طريق الحق لا مؤنة له ولا جهد فيه. وأسوأ من ذلك أن تنتظر الفلاح فيه باللهو واللعب واتباع الشهوات.

إن الأمر يحتاج عناء طويلا وإعداداً كبيراً، وقد مضت سنة الرجولة والبطولة من قديم، أن من طلب عظيماً خاطر بعظيمته، ولأمر ما قال رسول الله، « حُفَّت الجنة بالكاره، وحفت النار بالشهوات ».

وفي أيامنا هذه كثرت المغريات والنسيات، حتى أصبح الطريق إلى الله يتطلب عزيمة أشد، وبصراً أقوى، وهمة أبعد.

أصبح اللهو واللفو فنونا لا تحصى، وركنت إليها النفوس حتى لكأَنَّها تنزلق إليها من منحدر لا قرار له.

وازدحم الناس على موارد العيش يقتتلون على نيل المستطاع منها، فهم في تنافس وتطاحن، لا يقيمون على إيثار أو رحمة.

وحضارة الغرب أساسها الصناعة والتصنع ، فهي أبعد ما تكون عن الطبيعة ومجالاتها الرجبة . وبقدروا ابتعدت الأمم في ظلها عن بساطة الفطرة ابتعدت كذلك عن الله جل شأنه . فالرجل المعتاد يجد الساعات لمطالعة الغناء في شتى الصحف والكتب ولا يجد الدقائق لقراءة آى من القرآن .

أما جهة القوت المترامية وراء الدواوين والدكاكين والمصانع والمزارع ، فإن الضجة التي تسودها تصم الآذان وقلمنا تستبين في بُغامها الممتد صوتا يعجد الله ويذكر آلاءه

على أن هذه الحجب كلها لا تعوق سائرا ولا تصد رائدا . . .

إنها وهم يهول من بعيد ويتكشف باطله من قريب .

وأصحاب الإيمان عندما يقومون بحق الله عليهم قد لا تكون هذه العقبات عرضة لهم ، بل حفزا لهممهم ، وضياء إلى أهدافهم . . .

ضمَّ إلى هذا أن الله عز وجل يبارك كل جهد في سبيله مهما ضؤل ، وأن اتجاهات الإرادة الإنسانية تعدل عنده القوة التي يثب بها جناح طائر ولو كانت تنتقل بخطوات سلحفاة .

فأيا عبد وصل فكره بربه وأحب أن يتجه له بعمله فإن ما يلقاه من حفاوة وتقريب وما ينقذف في قلبه من إثراق وإقبال أضعاف أضعاف ما يبذل من سعى .

« وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا . إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ » .

بل إن تطلع النفس إلى حسنة — ولو لم تفعلها — يكتب لها حسنة .

فإذا ارتقى الأمل في صنع الخير إلى عمل فقليله يكثُر وضعيفه يوثق .

وظنون المغفرة والرضوان فيه تقبل وتصدق ، كما قال الله تبارك وتعالى في حديثه

القدسى : « أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته

في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه وإن اقترب إلى شبراً تقربت إليه

ذراعا . وإن اقترب إلى ذراعا تقربت إليه باعا وإن أناني يمشى أتيته هرولة » .

والحديث تصوير سمح لما وضعه الله في نيات الخير ومساعى السكال من قبول

وبركة . فلا تستهيننَّ بباعث طيب يتحرك في ضميرك . استجب له فربما كان المفتاح

لعالم كبير من الخيرات والمغانم يرتفع بك إلى عليين ويدفع بك في أقدام النبيين

والصديقين والشهداء الصالحين .

قنوع وطموح

كتب لي سائل : أليس مما يعين على القمود والفتور ما ينسب إلى رسول الله من حديث « ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » . « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالماً ومتعلماً » . « ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » وأمثال ذلك مما يبعث على الزهد ويعوق عن الطموح والحركة . . ؟

ثم مضى السائل يقول :

إن طبيعة الدين تعلق الناس بالآخرة وتصرف همهم عن الحياة لأن الحياة في منطق الأتقياء فترة مهيئة لا يعول على حال المرء بها ولا ضرورة لأن يأخذ المرء منها إلا زاد الرأكب العجل !

وشيوع هذا المنطق في أمة . قضاء عليها بالتخلف حتماً وسط أم تعبد الحياة ولا ترى صلاحاً أو فساداً إلا فيها ، ولا تحبس ثواباً أو عقاباً إلا بما تنال في مضمارها العتيد . واستطرد السائل فذكر خشيته من أن تقصر النهضات الدينية في إسعاد الأمم الجانحة إليها ، بل في حفظ كيائها من العوادي . . .

إن هذه الشبهة ليست جديدة . وأحسبني قد ألفت عليها ضياء كاشفاً في كتاباتي القديمة . . . ولكن هذا التساؤل الحائر سيبقى ما بقيت أفهام الناس في الدين ظنوناً جائرة يعوزها اليقين الحاسم . .

وأسارع إلى الإجابة عن الفقرة الأولى في هذا السؤال . . إن الأحاديث التي ذكرت هنا صحيحة كلها .

والعيب ليس فيها ولا في غيرها من تعاليم ! وإنما العيب في تحريف الكلام عن مواضعه . إذا كان الرضا بالقسمة ديناً فهل نحسب التطلع إلى ما فوقها زيفاً ؟

إليك من سير الأنبياء ما يصرع هذه الشبهة ويدلك على أن الطموح لا ينافي خلال المتقين ، بل قد يكون سر صلاحهم واصطفائهم .

ألم تسمع إلى سليمان وهو يطلب من الله ملكاً فذاً لا يشبهه فيه أحد فيقول : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » .

فكان من إجابة الله له « هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ،
وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ » . .

إن الله لم يقل له : قف عند ما قسم لك . .

ألم تر إلى أيوب وكان يغتسل عريانا فوقع عليه جراد من ذهب ، فطارت واحدة ،
فجرى خلفها . . فقال الله له : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عن هذا ؟ فقال : بلى ! ولكن
لاغنى لى عن بركتك . .

لقد تشبع أيوب من مال الله على هذا النطاق الواسع .

ولم يقل الله له : قف عند ما قسم لك .

ألم تنظر إلى يوسف الصديق وهو خارج من السجن وكان بحسبه — وقد أتيتحت
له نعمة الحرية بعد اعتقال طويل — أن يحيا في كنفها ، قانعا وادعا ، فأبى لنفسه تلك
المنزلة وقال لعزير مصر : « اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » .

وامتنَّ الله على يوسف إذ تسمَّ هذا المنصب العالى فقال : « وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا
لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوهُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ
أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » .

ولم يعاتب الله يوسف على هذا التطلع .

فلم يقل له : قف عند ما قسم لك . . .

هؤلاء نفر من المسامين الكبار لم يחדش الطموح ما عرفوا به من تقوى ، ولا
نزل بمكانتهم عند الله قيد أعملة . .

إن الرضا بالقسمة قد يكون من الدين ، وقد يكون من المعجز الذى يزجر
عنه الدين .

إذا سعى الرجل ضاربا في طول البلاد وعرضها واستنفد قواه في استنباط الخير
وتقريب الرزق فإذا به يدركه السكلال ويداه فارغتان ، من قدر قاهر لا من كسل
غالب ، فهل ينتحرجزعا ، أم يطوى فؤاده على ضرب من السكينة والركون للأحداث ؟
وإذا رأى غيره يؤتى الكثير ويواتيه النجاح وينتقل في مدارج الرقى ، فهل يدع

سورات الضعيفة تأكل قلبه لأنه فشل حيث أفلح غيره أم يرضى عن الآخرين ويعمل في شعورهم نحوهم ؟ ..

وإذا ضنّت موارد الحلال ودرّت موارد الحرام ، فهل يقال للمسلم : خذ ما أتيحك لك ، أم يقال له : استعفف وتصبر ؟

إن الإسلام يوجب الرضا بالقسمة يوم يكون هذا الشعور الفيل عزاء للمحروم وطمأنينة للمتخلف وحصانة من الجشع .

أما إذا قعد الرجل عن الكسب لإعالة نفسه ، وإعزاز شخصه ، فرضاه بالمقسوم جريمة خلقية . . .

وإذا أبطأ في توسيع ثروته لتربية أولاده وصيانة حاضرهم ومستقبلهم فرضاه بالمقسوم جريمة اجتماعية ، وإذا ترك كيان أمته في الميادين العامة يتداعى بالخلول والطاراة ، والقنوع بأدنى العيش فالرضا بالمقسوم جريمة سياسية .

إن الرضا المحمود عنوان عاطفة تعمل في نطاق محدود ، ومن التزوير أن يؤخذ هذا العنوان ليكون غطاء رذائل نبذها الإسلام وعد أصحابها مرضى .

أما الدنيا التي لعنها الله وازدراها أولو الألباب فهي دنيا الغرور والفساد والأهواء ، لا دنيا العمل والفرس والكفاح . ومن من الناس يحمده هذه الدنيا ؟ لقد رأيناها تمزق الأرحام بين الأخوة الأشقاء وتفترى بعضهم باغتيال البعض وإخماد أنفاسه ، استثماراً بعرض زائل .

لقد رأينا فتنها تنسج على الأبصار غشاوات حاجبة أو خادعة جعلت الأرض مذأبة تسودها الوحشة والرغبة .

فأينما يمت لا تلمح إلا ركض الوحوش تهيجها الغرائز الوضيعة ، فلاحق ولاخير ولا أمن ، ولا وئام . .

أرأيت ألوانها الزاهية وألحانها السايية ؟ إنها تقبل عليك كالمائدة الخافلة الشهية وتنتهي بك - أو تنتهي معها - مثلما ينتهي الطعام في بطنك . . فضلات مفتنة مزعجة .

قبحت هذه الدنيا ، ماتفر إلا الحق ، وما يتمحض لها إلا المغفلون .

فإذا رأى الله عز وجل أن خدعتها الكبرى أطاشت سواد الناس وأذهلتهم عن أنفسهم وعن ربهم ، وعن أولاهم وآخرتهم . وبعثتهم مجانين يسعون الحروب للباطل ويقيمون السلام للبعث .

فما الذى يرد لهؤلاء صوابهم إلا أن يقال لهم : « اَعْمُوا أَنْمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ، ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ » .

إن هذه الآيه وأشباهها تعيد التوازن إلى النفوس التى اختلت فيها أوضاع الحقيقة .

وجواهر البشر عند ما يحتسب نشاطهم بين أكوام الثرى من عالمهم الصغير . فلا يفكرون إلا فى حدود المتاع العاجل ، يحتاجون إلى نبيّ يصيح فيهم . « الدنيا ملعونة ملعون من فيها إلا ذكر الله وما والاه وعلما ومتعلما » .

وعند ما يتفاضل الناس بحظوظهم من الدنيا وحدها يقول : « أربع من كن فيه فلا عليه ما فاته من الدنيا حفظ أمانة وصدق حديث وحسن خليفة وعفة فى طعمة » .

فهذه السهام التى يصوبها النبيون إلى الدنيا لا يبعثون إلا أن يصيبوا بها ما علمت من شر وإثم وغدر .

على أن أناساً نظروا إلى السهم المنطلق وعموا عن الهدف الذاهب إليه فظنوا المرسلين يشتمغلون بقتل الأحياء . . . وقالوا : إن رسالات السماء جاءت لتخريب الأرض . . . وكذبوا .

ما جاءت إلا لمآرتها . وجعلها جنة قبل الجنة وارتفاعا بهدى الله قبل السعادة بجواره المقيم فى ديار النعيم . .

فليس من حقيقة التقوى أن تكون محدود الأمل ، ضيق الرجاء ، فإن ذلك يدل على عجز فى النفس ، أكثر مما يدل على إيمان فى القلب .

بل أولى بك أن تكون بعيد المهمة واسع الطموح ، تتطلّع إلى آفاق لانهاية لها
ما دام فيك عرق ينبض .
وكل ما يطلب منك إزاء ذلك أن تهيب لكل شيء وسيلته وتعد لكل أمر عدته
«ومن طلب عظيما خاطر بعظيمته» .
والرجل الكفاء أهل لما يصل إليه من كرامة وأهل لما يطلب لنفسه
من منزلة .

لقد طلب خالد بن الوليد من إخوانه - قادة الفرق في معركة اليرموك - أن يكلوا
إليه أمر القيادة العامة ، وعرض ذلك في صراحة وفي كياسة وأجيب إلى طلبه .
على أن انفساح الأمل لا يقبل إلا إذا اقترن بالإخلاص لله وحده وكان عمل
الرجل إذا وضع في المؤخرة كعمله إذا وضع في المقدمة سواء بسواء .
وبهذه الروح كان مسلك خالد يوم أن ترك القيادة وعاد جنديا . .
إن الإسلام إنما يبعث الأبطال السمجة والحرص البارد على المظاهر الكاذبة
واصطناع الدسائس للظفر بأبهة الدنيا لاجلخدمة الدين ، فكأن طموحا واحذر الطمع .
إن الدين خير كله ، وما تصلح الحياة إلا بتعاليمه ، بيد أن علينا إقصاء المتأكلين
به عن ساحته ، وتمكين أولى الأيدي والأبصار وحدهم من فهمه وعرضه .
وأحسبني في كثير من كتيبي قد أشبعت هذا الموضوع بحثا . وأود أن أقول
للسائل المستريب : إن نهضة الإسلام في عصرنا هذا تعتمد على أصول مكينة من
الإدراك المسدد والعاطفة الحارة . وإن المسلمين أحوج الناس في هذه الأيام إلى
الانعطاف لدينهم والاستتمساك به . .

وربما أخذ على الدعوة الإسلامية في هذا العصر ما يبرو جبهتها من تقطع . مردّه
- في نظري - اختلاط الدعاة بالأدعياء ، والفائحة الشكلى بالنائحة المستأجرة .
لكن هذه العلة لن تطول ، فإن الحق آخر الأمر ينفرد ويخلد « والله غالب على
أمره والسين أكثر الناس لا يؤمنون » . .

من آثار الإيمان

في التنفير من المعاصي يقول الناصح كلاما حسنا يصف به ما يعاينه المجرمون من متاعب وما يتعرضون له من مصائب . كانوا في غنى عنها لو استقاموا وازموا الجادة . وهذا نصح صادق فحياة الآمين وعرة السبيل ، داكنة الأفق ، تكتنفها الأخطار الوضيعة ، من بين يديها ومن خلفها . .

نعم إن هذه الدنيا ليست دار جزاء ، ليست دار جزاء كامل ، فقد يرجأ بعض المجرمين إلى الغد القريب ، وقد يرجأ بعض العقوبة كذلك .

إلا أن الله — جلت حكمته — شاء أن يكف غرور الناس بلمح من العدل الأعلى تبرق في حياتهم فينتصف بها الحق ويخزي بها الباطل ، ويستروح إليها الصالحون ، ويقشع منها الظالمون .

وبهذه الأجزية المعجلة يخوِّف الله الأمم إذا غوت ويسوق إليها النذر لتتقى وتمتدل « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ؟ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحىً وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » .

وفي تاريخ الحياة القريب والبعيد مثل صارخة تحض الأفراد والجماعات على الخير، وتزين لهم عقبي الإيمان والطاعة وتوضح لهم مصائر الكفر والفسوق ، وتكشف للأخلاف الذين نبتوا على أنقاض الأسلاف أن القدر الساهر لا يستبعد عليه أن يؤاخذ الآخرين بما أخذ به الأولين « أولم يهْدِ للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ؟ ونطبعُ على قلوبهم فهم لا يسمعون » .

والتلويح بما في حياة الفضيلة من استقرار وسكينة ، وبما في حياة الجريمة من قلق وخطر ، نصح صادق لا ريب فيه ، وليس مستغرباً — وأنت تغرى بالعفة — أن تندد بحياة الفاحشين الطامعين .

وليس مستغرباً — وأنت تحذر من الخيانة — أن تنوه بحياة الأمناء الآمين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم .

وفي القرآن الكريم أمثلة شتى لهذا اللون من التوجيه النافع القريب ، قال الله تعالى : « وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يَتِمَّ لَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، وَبُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَقَالَ : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وقال : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ . وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ » .

وجاء على لسان نوح — وهو يحب الإيمان إلى قومه ويرغبهم في قبوله — « فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ، وَبَعَثَ بَأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا » .

وليست هذه الوعود زخرفاً من القول ، أو أماناً تُخدع بها الناس ليقادوا عن طريقها إلى الحق ، كلاً ، فسنة الله في عباده أن الأمان جزاء الإيمان ، وأن العقوبة جزاء الكفران ، وأن التمتع في الدنيا بالذات والطيبات شرع ابتداءً للمؤمنين ، وإنما شركهم غيرهم فيه لعل طارئة .

فإذا انزاحت هذه الملل — وستزول حتماً في الدار الآخرة — خُصص للمؤمنين وحدهم هذا المتاع .

وذلك معنى قوله تعالى : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » .

فإذا رأيت شيئاً من صفو العيش وبشاشة الرضا بخالط نفس المؤمن فذلك حقه الذي كان ينبغي ألا يزاحمه عليه أحد ، لولا أن الحياة — أساساً — دار ابتلاء إلى جانب ما يتسرب إليها أحياناً من مظاهر الحساب والجزاء ..

هي دار ابتلاء بالواجبات ، ثقلها وخفيفها ، والأقدار خيرها وشرها . وهذا الامتحان الشامل تتمشى معه المكافآت المعجلة التي وعد الله بها ، كما ترى التلميذ في مراحل تعليمه الطويلة يثاب بالنجاح المطرد ، وإن كان لا يعنى من عناء الدرس وطول الاستدكار ، وإدمان المطالعة والتمحيص والسهر .

وقد تكون للتلميذ نهاية يقف عندها ، أما المرء في هذه الدنيا فهو إلى أن يحشرج ، موضوع في بوتقة الاختبار .

والناس يخلطون حين يسوون بين مغارم الاختبار الذى لا بد منه وبين نتائج الفوز أو الإخفاق فيه .

إن الجيش الذى يكسب المعركة يفقد بعض القتلى . فهل مافقده في صراعه يחדش من قيمة النتائج التى بلغها ؟

إن الله وعد الصالحين حياة طيبة لكن لم يعدهم أن يحصلوا على هذا الصلاح المنشود دون جهد يبذلونه . . . ! !

وتمَّ أمر يجب أن نعرفه . إن الآلام ليست سواء .

هناك آلام وضیعة وأخرى رفيعة .

فالذين يحكم عليهم بالسجن عشرين سنة في الأشغال الشاقة يتعرضون لشقاء لا ريب فيه جزاء جرائمهم .

بيد أن هناك من الرجال الأحرار من يقضون أعمارهم في كدٍّ موصول وأعباء جسام ، برًّا بربهم وجهاداً لدينهم ، وإعزازاً لإخوانهم .

وشتان بين ألم وألم ، شتان بين شهيد تذهب نفسه في سبيل الله وقتيل تزهق روحه قصاصاً عدلاً ، تصلح به الحياة ، وتطهر الأرض .

والشعور بعظمة العمل ورفعة الألم بعض الجزاء الذى تطيب به نفوس الأنقياء ، وتحس فيه رضوان الله عليها ، وامتيازها على غيرها من العاصين والخبثاء . .

ثم إن أنواع الاختبار المفروضة على الناس كثيرة معقدة ، فإن ما تهيج له نفس قد لا تتحرك له أخرى ، وما يكون راحة للإنسان يكون عناء للإنسان .

وخلاق النفوس — هو وحده الذى — يعرف خصائصها ، ويسوق إليها ما يعجم عودها ويمحص معنيتها . . !

جاء في الحديث : أن الرجل يحرم الرزق بالذنب يصيبه !

فهل كل العصاة يعامل بهذا القانون ؟

إن هناك من يزداد ثراؤهم بازدياد ذنوبهم كأولئك الذين قيل لهم : « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما » « لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم » .

فما معنى هذا ؟

معنى هذا أن هناك من الخطائين من تؤدبه فيتأدب ، ومن تؤاخذه فيتراجع ، فالحرمان لهم فطام عن الذنوب وقيادة إلى المتاب ! !

ومنهم من يتكاثر حوله المال كما تتكاثر اللجج حول الغريق ، فلا يزال يكرع منها حتى يخنق ويهلك . . !

ومنهم من تيس الأرض تحته حتى ينقطع من الطوى ! لأن سياط العذاب لو تخلّفت عن جلده ما انفك عن غيّه «ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضرّ للجّوا في طغيانهم يعمهون» . . ! !

إن أنواع الاختبار وأنواع الجزاء أوسع من علمنا ، ولذلك ينبغي أن نرمق أحوال الناس ببصر ، وأن نحكم عليها بحذر . وهما اضطربت الظواهر أمامنا ، فلا يجوز أن نرتاب في مصابر المصلحين ، والمفسدين ، ولا فيما يلبس محياهم من شئون وشجون «أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون» .

لا تشكنّ في جدوى الاستقامة .

إن معيشة التقى والطاعة تورث الصحة البدنية والنفسية وتوفر الراحة المادية والأدبية وتحفظ لصاحبها في آجل أمره وعاجله أنصبة من الخير يستحيل أن تقاح لغيره .

لا تشكن في جدوى الصلة بالله وإيثار ما عنده .

إن الصديق الكريم لا يضيع صديقه ، فبئس الظن بالله أن تحسبه يضيع أوليائه أو يتنكر لهم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت الدنيا همه فرق الله عليه شمله ، وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له . ومن كانت الآخرة همه جمع الله عليه شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة ، وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا كان الله إليه بكل خير أسرع » .

في كتاب « عش مائة عام » للدكتور « جابلورد هاووزر » عقد المؤلف فصلا عن الاستمتاع بالحياة وأثر السلوك الحسن في إسعاد الإنسان وراحة أعصابه وطمأنينة قلبه قال فيه : « لا يفوتني هنا أن أشير إلى ما للإيمان الديني من أهمية قصوى في حياة البشر ، إنه ليس أبين حمقا ولا أشد عمى وانطاس بصيرة ، من أولئك الذين يزعمون أنه لا مكانة في العصر الحديث للدين !

فالعقيدة هي النجم القطبي الذي يهتدي الملاّحين في عرض البحر إذا خيم الظلام ! والحياة في عصرنا بحر طام ، أشد تلاطما ، وأوسع مدى ، وأحفل بالأخطار والغوامض من بحر الحياة القديم .

والحاجة اليوم إلى العقيدة أشد منها في أى عصر مضى . والنفس الآمنة مطمئنة لا يمكن أن تبلغ هدوءها واستقرارها ما لم تستند إلى عقيدة راسخة في قوة أزلية أبدية ومدد أعلى وأعظم من ظواهر المادة المتغيرة .

وهذا المحلل النفسى الكبير « يونج » مؤسس المدرسة المعروفة باسمه وأكبر تلامذة « فرويد » يقول : لقد قصدنى آلاف يطلبون المعونة والشفاء من الحيرة والانحلال فكان أسرعههم إلى تحقيق أملة ذوو العقيدة ، ومن في سريرتهم بذرة التدين الصادق .

إن الشواهد متكاثرة على ما للإيمان من آثار طيبة في النفس والحياة . ولا ريب في أن المسلك التقى يفتح على الإنسان أبواب البركة والسعادة .

واسمع إلى رسول الله يقول — في الصلوات المفروضة — « من حافظ عليهن عاش بخير ومات بخير . وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » !!

إن حياة الخسة والفسوق لا تجر إلا الشقاء على أصحابها وعلى المجتمع ،

وفي الحديث « لم تظهر الفاحشة في قوم قط إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم » .

أما الإحسان فإن أثره يتبعه ، عافية وارتقاء وخيرا وتوسعة .

بل إن بركة الإحسان تتمدى المؤمن إلى الكافر فيحيا في كنفها أهدأ نفساً مما لو أساء .

روى ابن جرير : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أحسن من محسن مؤمن أو كافر إلا وقع ثوابه على الله في عاجل ديناه وأجل آخرته » .

وفي رواية البزار : « ما أحسن من محسن مسلم ولا كافر إلا أثيب ! قالوا : يا رسول الله ، هذه إثابة المؤمن قد عرفناها ! فما إثابة الكافر ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا تصدق بصدقة أو وصل رحماً ، أو عمل حسنة ، أثابه الله ، وإثابته المال والولد في الدنيا وعذاب دون عذاب — يعني في الآخرة — وقرأ « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » .

أرأيت أن معرة تقصيرنا — نحن المسلمين — . . . وشؤم معاصينا حاق بنا ؟
أما الكافرون فإن الله العدل لم يهدر لهم إحساناً ، ولم يبخس لهم إجابة وإتقاناً .

نحو أجيال أرقى

أمكن في عالم النبات إبداع سلالات ممتازة من القمح والقطن والأرز ، ضمت إلى وفرة الحصاد جودة الأصناف .

وأمكن في عالم الحيوان تحسين الولائد الجديدة ، والعناية بها من ساعة اللقاح إلى عهد النماء والحركة ، فظفر الناس من هذه الجهود بمزيد من اللحم والشحم والألبان والأشعار والمرافق الأخرى . . .

إن تحسين الذراري ، ومحاولة الارتقاء بها - كما وكيفا - أمر ميسور ، وتحقيق ذلك في عالم الإنسان لتكوين أجيال أنضر وأزكى - عمل يعتبر أولى وأجدى من تحقيقه في عالمي الحيوان والنبات . . .

والحضارة التي تسود الحياة المعاصرة سارت أشواطاً متفاوتة في مضمار الارتقاء العام ، فسبقت في ناحية وتخلفت في ناحية ، ولا ندرى هل تعادلت كفتا الأرباح والخسائر ، أم رجحت إحداها ؟

لقد ارتفع مستوى الصحة العامة ، وأظن سكان العالم لم يبلغوا في عصر مضى هذا الحد من الكثرة .

إن الأوبئة التي كانت تذر الديار بلاقع تلاشت أو انكسرت حدتها ، بيد أن شبح الحرب التي تفنى العالم أجمع لا يفتأ يهدد المدائن والقرى . . .

ولقد وضعت الأنظمة التي تكفل المعاش وتمد البشر بالأقوات بل يُسرت اللذة وأصبح الغناء الذي احتكرته مقاصير الملوك قديماً يملأ الألوف المؤلفة من البيوت ، ويستمتع إليه الناس في الطرق ، مبذولاً لا ثمن له !

ومع ذلك فإن الناس جياع إلى مشاعر الاستقرار والسعادة ، موقنون بأنهم في شيء آخر غير ما يسرته لهم الحضارة الحديثة من متاع وترويح ورفاهية . .

والجهود مبذولة لإشاعة الثقافة والرياضة ، وتنشيط الأذهان والأبدان ، وخلق أجيال فارقتها صفرة الفقر والمرض ، وبلادة الجهل والفوضى ونحن نود أن يصعد البشر في درج الرقي حتى يبلغوا القمة ، وأن تنجو الحياة من الأدواء التي أزالتها عن الصراط وعاقها عن الكمال المنشود ، لكن كيف السبيل ؟ وأين الغاية ؟

إن العناية بالغذاء والصحة هي الوسيلة الأولى في إيجاد حيوان فارح .
ولما كان الإنسان كائنًا متعدد الملوك والقوى فإن التسامح به يحتاج إلى وسائل
كثيرة ، وسائل يجب أن تلاحقه مادة وروحاً منذ يتكون قطرة ماء في بطن أمه ،
إلى أن يتحول بشراً سوياً يعالج الحياة وتعاني من جبروته ماتعاني !
ونحن ننشئ المعاهد ، ونمد بها أنهار المعرفة لتروي بها مواهب الإنسان كما تروى
الميدان في الحقول ! فهل هذا التعليم هو الذي يصوغ الناشئة ويهيئ لها أطوار
أرقى من سابقتها ؟

إن العلم حياة القلوب وضياء العقول وحاجة المرء إلى العلم كحاجة عينيه إلى الضوء
غير أن فنون العلم وحدها لا تتدرج بالحياة إلى آفاق أعلى مالم تصاحبها وسائل أخرى
تغير من طبائع المتعلمين أنفسهم حتى تتيح لهم الاستفادة مما يتعلمون . .
وفي الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مثل ما بعثني الله به من الهدى
والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ
والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا
وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ .
فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعمل وعلم . ومثل من لم يرفع
بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » .
والحديث واضح في أن العلم وحده لا يخلق أمة متساوية الأنصبة في حقائق الخير
والتق ، ولا في أسباب الفلاح والرشد .

ولو أحصيت المتخرجين في مدرسة ما لوجدت لبعضهم أجداداً ظاهرة ولبعضهم
مثالب شائنة ، وبعضهم ظهر حتى أضحى من أعلام المجتمع وبعضهم اختفى فلم يوقف
له على أثر ! وصدق رسول الله إذ يقول : « إنما أنا قاسم والله معطي » .
والمثل الذي ضربه النبي صلى الله عليه وسلم لاستفادة الخلائق من رسالته عد
أصنافاً من الطبائع التي يحسن أن نشرحها .

فأولاهم بالله وألصقها بالحق وأجدرها بالتوقير والثوبة . . أولئك الذين علموا
وعملوا وعلموا ، إنهم استناروا بالمعرفة الصحيحة وأناروا الدنيا بها ! !
أخصبت نفوسهم بالخير المغروس فيها فازهرت وأثمرت ، ثم امتدت الأيدي إلى
جناها الداني تقطف منه ما تشتهي . .

أولئك دعائم الرشد في كل أمة ، إذا قاموا رست أركانها ، وإذا ذهبوا ذهب ريجها . .

هذا ماقرره الرسول الكريم إذ قال : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً ، فسئلوا ، فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » .

فالعالماء الذين يعصمون الجماعات من الزيغ ، هم أولئك الذين أماتوا أهواءهم ، وقاموا بحق الله في أنفسهم وفيما حولهم . انتفعوا بالإسلام ونفعوا الآخرين به ، واتصلت حياة هذا الدين بهم كما تتصل حياة الشجرة بما تحمل من بذور فيها طبيعة الإنتاج والنماء ، فهي إن ولت أعقت بعدها ما يُنبِت مثلها أو أشد . . إلى أن يأذن الله بانقضاء الحياة والأحياء .

وذكر الحديث طائفة أخرى من العلماء الذين لا يستفيدون مما علموا فائدة طائلة ، إلا أنهم أوعية حسنة للمعارف النافعة التي تظل قائمة بأنفسهم حتى يجيء من ينقلها عنهم ليعمل بها ويفيد منها !!

وهذه الطائفة ليست صنفاً واحداً ، فهناك حفاظ للعلم يعملون بقليل منه ويحملون كثيره دون تدبر فيه أو دراسة عميقة له .

وأمثال هؤلاء ، هم الذين يصدق فيهم قول رسول الله « رب حامل فقه ليس بفقيه » « رب مبلغ أوعى من سامع » .

وربما اتسع علم هؤلاء وكثر بذلهم له . . حتى يضرب الناس إليهم لينالوا من حكمتهم ما تصح به النفوس وتصحو الهمم !! فهم كالبحيرة التي تجمع الماء فيها فأضحت مثابة للعطاش يردونها ليرتووا ، وربما حمل الماء منها إلى الأرض العاطلة ، فإذا هي بعد حين حالية بالأزهار والرياح . .

وحفظة العلم من هذا الصنف أقل رتبة في الخير من العلماء العاملين المعلمين ، بيد أنهم أرقى درجة من صنف آخر يعمل بضد ما يعلم ، ويسلك في الحياة مسلكاً يزرى بما أوتي من عرفان . .

وقد أعلن الله عز وجل سخطه على أولئك الذين يعملون بأقوالهم ، ويجهلون بأحوالهم ، فقال : « كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » . .

والحق أن هناك نفراً نُسب العلم بهم ، وفضحت الأديان بسيرتهم ، جعلوا عليهم بالحق مصيدة للباطل فحفظوا منه كلمات يهدون بها الناس ، ثم انشؤا من جهة أخرى يجرون المنافع ويصطادون الغنائم . . .
فالفواصل بين ما يقولون وبين ما يفعلون غليظة كثيفة ، طباع بهائم وتعاليم ملائكة .

ولذلك وصف القرآن الصلة بين علمهم وطباعهم بقوله : « مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » .

وأحسب أن هذا الصنف ليس من قبيل الأرض المجذبة التي أمسكت الماء ، فالمفروض أن معدن هذه الأرض لا يفسد ما فوقه ! والنفوس ينبغي لها أن تصلح بالعلم ؛ فإذا لم تصلح به فلعل من بقية الخير بها أن تحفظه نقياً ليصلح به الآخرون . . ! وقد نقول : إن الحديث ذكر علماء ينشرون الهدى ولا ينتفعون به ، فلم ترك العبادة الأتقياء الذين ليس لديهم علم ينشرونه ؟ والجواب أنه ليس في الإسلام عبادة جهلة ، وأقل أحوال المسلم أن تكون لديه معرفة بالفضائل والذائل فهو يدعو للأولى وينفر من الأخرى . . . فإذا لم يكن كذلك فهو من العصاة وليس من المتقين .

وأما الصنف الذي أعجب العالمين أمره وأعجز الأطباء برؤه فهم أولئك الذين تمعهدهم بدروس الحكمة وتأخذهم بالوان الأدب ، وتفزوهم بالنذر ، وتغالفهم بالبشريات . . . ومع ذلك كله يستمعون على جهودك المتتابعة ويُلْقون القنوط في قلبك .

انظر إلى قوم إبراهيم كيف هشم أصنامهم ليثبت لهم أنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضراً ولا نفعاً . . . فلما جاءوها ورأوها مكبوبة مهينة تساءلوا :

« قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ . قَالَ : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا . فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظِقُونَ !! فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ !! » .

وإلى هذا الموقف كان يجب على الضلال أن يهتدوا ، وأن يصحوا من غفلتهم على

ضوء الحقيقة الرائعة ، لكن النفوس الملتوية تنقلب فيها مقدمات الحق ، فإذا بها تتمخض عن نتيجة أخرى ! .

لقد عادوا يقولون لإبراهيم ، إن آلهتنا - كما علمت - لا تنطق ولا تمي .. فكيف جرؤت على قداستها ؟

«ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ .. قَالَ : أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ »

وجاهير الدهماء من هذا القبيل المتعب ، فهم إما أناس لا عقول لهم ، يمجزون عن إدراك الحق لقصور أذهانهم على نحو ما قال الشاعر :

أقول له عمرأ فيسمع خالداً وقرؤها زيدا ويكتبها بكرأ !

وإما أناس لهم عقول مدركة ذكية ولكن ليس لهم ضمائر حية ، فهوام هو الذي يوجه علاقاتهم بالخصوم والأصدقاء ، ويفسد أحكامهم على الأشخاص والأشياء ...

هؤلاء وأضرابهم هم الذين شبههم الرسول بالأرض السبخة .. لا تمسك ماء ولا تثبت كلاً ! تحاول أن ترفع رؤوسهم وأن تحملهم عن الثرى الذي التصقوا به فكانتك تحرك الرواسي من أوضاعها التي شُدَّت فيها .

هل معنى ذلك أنه من الصعب إنشاء أجيال طيبة يتعرع فيها الحق والجمال ، وينضر بها العالم ويستقيم العمران ، وتستأنف الحياة بها مراحل أدنى إلى الفلاح وأبعد عن الدنيا ؟ ؟

إنني أميل إلى التفاؤل في حكي على فطرة الإنسان ، وأحسب أنه لو تضافرت عوامل معينة على تهميد الطريق أمامه لقل عثاره واهتدى إلى ربه ، واستراح إلى كنفه ..

إن الحكومات تستصلح الآن مساحات شاسعة من الأرض السبخة والصحارى الجافة ، وتعمل - دائبة - على تحويلها إلى جنات وحقول ، تردان بالزرع والنخيل ،

وهي تغسل الأرض جيداً لتزيل معلق بترتها من أملاح وترقب البذور الوليدة ، لتمنع الحشائش الغريبة من النماء على حسابها . .

فهل ترى أن هذه الجهود لو سلطت في ميدان العلم والتربية لاستصلاح الجماهير المضيق والمقول الملتأمة . . أما كان لها نتاج كريم وثمر عظيم ؟ ؟

كتب شق مجرم ليلة إعدامه كلمات أحب أن نقف قليلاً لديها ، وأن نسائل أنفسنا عن مدى ما فيها من حق .

هذا المجرم سرق في سن الخامسة . وكان من قطاع الطرق في الحادية عشرة ، وتحول قاتلاً فانتكا في السادسة والعشرين ، وحكم عليه بالموت خنقاً بالغاز عقاباً له على ما جنت يده .

وها هو ذا — قبل أن يلقي حتفه — يخط هذه الأفكار والمشاعر . . .

وفيها — لا ريب — عظات بالغة للآباء والمربين . قال : لم يبق لي في الحياة وقت طويل . فإني إما أيام أو ساعات وينتهي أمري . ولكنه وقت يكفي لأن أعود بداكرتي إلى الوراء أعرض بها الماضي فأبين ما جاء بي إلى هنا ، وقادني إلى هذا المصير .

ولست أدري أي شعور يخالجي الآن ؟ ! وقد يخيل إلي أنني سأتهافت حتى أهوى ، وسأنفجر فأصبح باكياً ، ولكني أرجو أن أصمد وأتجلد ، كما يفعل الرجل في الثنابات ، وأن أتكلف — حتى اللحظة الأخيرة — مظهر الجرأة والقوة .

أما ما أدرك أنه يملك على تفكيرى وشعورى جميعاً ، فهو أنى على يقين ، من أن قتلى إن يفيد أحداً من الناس .

فلن يعود الرجل الذى قتلته إلى الحياة ، ولن يستطيع البشر أبداً أن ينزعوا الروح من جسد حى ليحيوا بها جسداً هامداً .

إننى أتساءل طوال ليلي المورق ونهارى الحائر : أما يستطيع الناس — وفيهم من فيهم من العلماء والمفكرين — أن يجدوا طريقة يصلحون بها الأشقياء بدلاً من تقتيلهم ، فيدفعوا عن الناس شرهم ، وييقوا على حياتهم معاً ؟ !

لو وجدت هذه الطريقة لتغير مصيرى . فلأدعُ الله ، في هذه الساعة الأخيرة

من حياتى ، أن يوفق الناس إلى هذه الطريقة حتى لا يكون مصير من نشأوا مثل
نَشَأَتِي ، أليماً مروعا كهصيرى !

إننى أعرض الآن فى ذاكرتى قصة حياتى ، فأرى أنى لو رببت تربية صالحة ،
ولو وُجِّهت توجيهاً قوياً ، لشققت فى الحياة الطريق الذى يشقه الناس الأخيار ،
ولكنى كنت سيئ الحظ ، أكثر مما كنت شرير الطبع ، فلم ألق حولى إلا من
أساء فهمى ، وأخطأ توجيهى ، فقادنى من السرقة ، إلى القتل ، إلى الإعدام . .

إن فساد العلم بالدين والحكم بالدين كانا من الكوارث الكبرى فى تاريخ البشر
فهل يعزُّ على أولى الألباب إقامة حضارة تُحسن معرفتها لله وإقامتها لحدوده ؟
ربما قال المتشائمون : لقد نجح الشيطان من قديم فى إغواء الإنسان ويبدو أنه
ماض فى خطته الأولى يحرز نصراً بعد نصر . .

وما من جيل ينقرض إلا ويتقلص معه جزء من ظلال الإيمان . .
وأقول : إن المراك خالد بين الحق والباطل ، وعلى أهل الدين أن يؤدوا واجبهم
إلى آخر رفق . .

ويؤسفنى أن أقرر هنا أن انتشار الفساد فى الأرض لم يجيء من نشاط
الشيطان بقدر ما جاء من تكاسل المؤمنين ووهن عزيمتهم .

والله عز وجل يكلف المسلمين خاصة أن يستميتوا فى إعلاء كلمته وحياطة رايته
وقد يصل المحدثون إلى ما لم يبلغه القدامى . .

وفى الحديث « أمتى كالطر لا يدرى أوله خير أم آخره » .

صلاة رجل !

العاطفة الأولى تجاه شيء ما تتحدد - إلى أمد بعيد - موقف الإنسان منه وسلوكه معه . فإذا فوجيء الإنسان بروع فثبت له ولم تأخذه دهشة المباغتة كان حرياً أن ينجح في مقاومته ، وأن تكون له العقبي وإن طالت مراحل الكفاح . أما إذا انتابه الفزع وطار قلبه شعاعاً فهيئات أن يتماسك ، وإذا عاد إليه صوابه - بعد لأي - فإن ما فاتته من خير قلما يعود إليه
ولذلك يقول الله عز وجل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا . . . »
هذا الثبات أولاً ، هو بذرة النصر آخراً

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى »
وفي أدب العرب ما ينوّه بقيمة هذا الإحساس الأول ، وقيمة ما يترتب عليه من سيرة تحمد أو تعاب . قال الشاعر :

ولما رأيت الشيب لاح بعارضي ومفرق رأسي قلت للشيب مرحباً
ولو خفت أني إن كففت تحييتي تنكب عني - رمت أن يتنكبا
ولكن إذا ما حل كره فساحت به النفس يوماً كان للكره أذهبا

وضبط النفس - حتى لا تطيش بإزاء حادثة ما - ليس بالأمر الهين ، إنه يحتاج الفكر السديد والعزم الحديد .

إننا نخفت الآلام ونمجّ مذاقها المرير . ولكن شاء الله أن يجعل من أكثر الآلام نفعاً خالصاً ، ومن أكثر اللذائذ ضراً محضاً .

ولا يزال الأطباء يصفون الأدوية المريرة لكفاح الأمراض وحسم أذاها ، ولا تزال المصائب في حياة الأفراد والأمم مصدر دروس بالغة الأثر في التربية والتعليم . والرجال الكبار كثيراً ما تظل مواهبهم مطوية في أستار العزلة البعيدة ، حتى تقع حادثة كبيرة فيكون موقفهم منها بداية تكشفهم للناس كما يتكشف البدر بعد انقشاع الغيوم .

وأبو بكر الصديق لم يكن رجلاً مغموراً فأظهرته واقعة من الوقائع ، وإنما كان رجلاً معروفاً بمسحة معينة من الجمال ، أو لون بارز من العظمة .

فلما جاءت أحداث الردة تألفت في جبين الرجل الكبير أشعة شتى من فضائل الثبات والإقدام والجرأة ، تساوقت مع ما عرف عنه قبلاً من فضائل الأنأة والحلم والوقار ، فزادته فضلاً على فضل . . .

وفي هذه الكلمة نحاول — متواضعين — تصوير شيء من عمل الإيمان الكبير تجاه الحوادث الكبيرة . . .

لم يكد الرسول يصعد إلى الرفيق الأعلى حتى انتفض جبل العرب فارتدوا عن الإسلام ، وظنوا أن رمال الجزيرة ستمعود كرة أخرى مسرحاً لماسى الجاهلية الأولى ومخازيها . .

وشعر السابقون الأولون بخطورة الأمر ، ورأوا أنفسهم في دار الهجرة مهددين بمصائب الأعراب الثائرين وجيوش ما نعى الزكاة ، والشقة بعيدة بينهم وبين جيش أسامة الذى سار قدماً إلى مشارف الشام تنفيذاً لوعاة الرسول . وليس للدين الكريم بعد حصنه المكين في المدينة إلا مكة والطائف ؛ فقد ثبت هذان البلدان ، رغم أن قريشا وثقيفا كانتا آخر من استمسك بعروة الإسلام . على أن شيئاً من ذلك لا يفتى فتيلاً عن أهل المدينة . .

فقد تجمع المرتدون من قبائل عبس وذبيان وأسد وكفانة . وكلما أذنت الشمس بالمغيب اقتربت جموعهم من مداخل البلد المهدد بغية اقتحامه على أهله ليلاً ، والقضاء على الإسلام بعد ذلك .

فلما أحس الصديق منهم الفدر ، جمع حوله بقايا المسلمين ، ولم يكن الأمر بحاجة إلى استشارة أو تهيج ، فقد ضمهم جميعاً جدران المسجد النبوى ، واستمعوا إلى أبى بكر يشرح خطة الدفاع ويرسم لكل منهم واجبه الذى يقوم به أو يموت دونه ؛ ووزع أفراد هذا الجيش الصغير على ثغرات المدينة ومظان هجوم العدو ، وجعل المسجد مستودعاً يخرج منه المدد إلى الجهة التى يشتد فيها ضغطه ويخشى تسربه منها ! ! وأقبل الليل ، وثبت المسلمون فى أماكنهم يترصدون ، وما هى إلا ساعات حتى نشب القتال ! .

لقد تحركت جيوش الأعراب ، وها هي ذى سهام المسلمين تخترق عماية الليل ، وأبو بكر فوق ناقته يصول ويجول ، وصراخ التكبير تتجاوب به الوهاد الموحشة ! وخرج المعسكرون من المسجد يشدون أزر المدافعين ، وتناوبت أدوار الصراع طول الليل بين الإيمان والكفران ، فما طلعت الشمس حتى تزل نصر الله على جفده ، ونجت المدينة وفر المرتدون .

كان لهذا الفوز معناه ، فقد تعلم المرتدون أن المدينة غاية في المنعة بما فيها من جند كثيف ! وما هم إلا النفر القلائل ربا إيمانهم فساوت فعالمهم جيشاً جراراً ؛ وكان أبو بكر يعرف كيف يستغل القوى التي توشك أن تختفي في الأيام التي تترادف فيها المفاجآت العصبية .

وحقاً ، لقد اختلت الصفوف ، وأقبلت الفتى تريد أن تجعل بين كل مؤمن ومؤمن حجاباً يفصل بينهما لتفترس كلا منهما على حدة ! ولكن أبا بكر كان أسرع منها إلى العمل ، فقد ارتفع بإيمانه كما يرتفع العلم في المعركة المضطربة المختلطة ليثوب إليه الأنصار ، ويحتشد من حوله المخلصون ، ويكون من هؤلاء وأولئك مأمّن للمروعين ، ومستقر للشاردين ؛ وكسب أبو بكر المعركة الأولى في إنقاذ المدينة . وما هي إلا أيام حتى قفل جيش أسامة منصوراً غانماً . فاستراح أبطاله إلى حين .

وبدأ الكفاح الحقيقي ، فقد انفتح أحد عشر باباً للفتنة في آن واحد . والجرح بموت الرسول لم يندمل بعد ، وأطراف الجزيرة تموج بصفوف من الضلال تحاول الاندفاع إلى قلب الإسلام فتقضى عليه بعد أن تحللت منه ! وهنا يحشد أبو بكر كل من حوله ، ويقذف بهم إلى المعركة الفاصلة ؛ فيعقد أحد عشر نواء لأحد عشر قائداً ، ويفتح إحدى عشرة جبهة مرة واحدة ويراقب القتال في هذه الميادين بضعة عشر شهراً ، وتمر الأيام وهذه الجيوش في جهاد شاق ، لا تنتهى من قتال إلا لتستأنف غيره حتى جاء أخيراً نصر الله والفتح ، وهزم الله المرتدين شر هزيمة .

يقولون : مهما يكن الطريق إلى الغاية المنشودة طويلاً ، فإن المهم هو الخطوة الأولى فيه ، وهذا حق .

بيد أن الخطوة الأولى لا تلدها إلا عزيمة كاملة وعاطفة ناضجة .
إن الحوافز العظيمة وحدها هي التي تدفع إلى المخاطر وتجري على
اقتحام الصعاب .

والأمور لا تكون جسيمة أو هزيلة في نفسها قدر ما تكون كذلك في عين
أمرئ هيب أو مقدم :

على حد قول المتنبي :

وما الخوف إلا ما تخوفه الفتي وما الأمن إلا ما رآه الفتي أمناً
وعند ما تواتت أنباء الردة على المدينة نهدها الصديق الجلد ، وكأنه غضوب
استفزه سفهاء ، فما يفكر إلا في قمع العدوان الذي أصابه .
مع أن هول الأخبار الواردة جعل الجبارين يترثون في مقابلتها ، ويفكرون
في حيلة ، للخلاص منها .

أما أبو بكر فقد أجمع أمره وتوكل على ربه وقرر العمل .
ثم رآه في عدة الكفاح ، يقود الجيوش المعبأة للجهاد ، وكان الظن به أن يبدو
رجل سياسة ورياسة فحسب .

وروى أنه عرضت شبهة لعمر دعته أن يطلب مسالة العرب الناكين عن أداء
الزكاة ، ظاناً أن تألفهم بما في قلوبهم من إيمان معاول سينتهي بهم إلى دفع الزكاة
التي منعوها .

فمن أبي هريرة أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر : علام تقاتل الناس .
وقد قال رسول الله : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً
رسول الله . فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها .

فقال أبو بكر : والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤذونه إلى رسول الله لأقاتلنهم على
منعه ؛ إن الزكاة حق المال . والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . . .

قال عمر : فما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق .
وكما اجتاحت صلابة أبي بكر تردد عمر ، أخذت تغمر سائر الصحابة من مهاجرين
وأنصار وأعراب .

روى ابن عساکر : أن أبا بكر خطب الناس يحضهم على جهاد المرتدين وما نعى الزكاة فقال : الحمد لله الذى هدى فكفى وأعطى فأغنى .

إن الله بعث محمداً ، والعلم شريد ، والإسلام غريب طريد ، قد رثَّ حبله ، وخلق عهده وضلَّ أهله منه .

ومقت الله أهل الكتاب فلا يعطيهم خيراً خيراً عندهم . ولا يصرف عنهم شراً لشر عندهم . قد غيروا كتابهم ، وألحقوا فيه ما ليس منه .

والعرب الأميون يحسبون أنهم فى منعة من الله لا يعبدونه ولا يدعونه ، فأجهدهم عيشاً ، وأضلهم ديناً . . .

نختمهم الله بمحمد ، وجعلهم الأمة الوسطى ، ونصرهم بمن اتبعهم ، ونصرهم على غيرهم .

حتى قبض الله نبيه فركب منهم الشيطان مركبه وأخذ بأيديهم وبنى هلكتهم . « وما محمد إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسلُ أفإن ماتَ أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين » . إن من حولكم من الأعراب منعوا شاتمهم وبميرهم .

ولم يكونوا فى دينهم أزهد منهم يومهم هذا . ولم تكونوا فى دينكم أقوى منكم يومكم هذا .

على ما تقدم من بركة نبيكم ، وقد وكلكم إلى المولى الكافى ، الذى وجده ضالاً فهده ، وعائلاً فأغناه ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها .

والله لا أدع أرا أقاتل على أمر الله حتى ينجز الله وعده ويوفى لنا عهده .

ويقتل من قتل منا شهيدا فى أهل الجنة ، ويبقى من بقى منا خليفته وذريته فى أرضه . قضاء الله الحق . وقوله الذى لا خلف له « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » .

إن هذا الشعور الفائر الظافر ، قاد المعركة أولاً ، وربحها آخرها .

السلام المسلح

« فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ، وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى
التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » .

كنت أريد شرح الآية الأخيرة فوجدت أن أقصر طريق للإبانة عن معناها
والدلالة على تفسيرها يكون بضم سابقتها إليها ، فإن المقصود من الآية الأولى تقديم
رائع للمقصود من الآية التي تليها .

إن الله عز وجل يأمر بنصر الحق والنضال دونه ومجاهدة الكافرين بالنفس
والنفس ، ويوصي عباده ألا يستكبنوا للظلم ! ويحرضهم على مقابلة العدوان بمثله ،
وعلى ألا يتركوا الضلال يستعلي ويستعلن فلا يجد من يقمعه ويردعه .

كلا . فرسالة الله أعز في حقيقتها وأعز لدى حمايتها من أن يكون لها أمام الباطل
منزلة السوء والهوان . وهذا — بداهة — يستتبع سيلا جاريا من النفقة المبذولة ،
وينابيع دافقة من الإيثار والتضحية وبيع الدنيا بالآخرة . وقد ووجه المسلمون
الأولون صراحة بهذه التكاليف الشاقة في هذه الآيات وفي غيرها من كتاب الله ،
لكن الآية التي تتلوها الآن تمتاز بأنها تضمنت تهديداً خطيراً لمن يجبن عن الكفاح
وينكص عن النفقة ! ! إذ اعتبرت الفار بنفسه وماله ملقيا بنفسه وماله في الهلاك ،
وأومأت إلى أن الأمة التي تتراجع عن الموقف الواجب في ميدان الشرف والفداء
لا تلبث قليلا حتى تذل وتحزى ثم يجر عليها التاريخ أذيال العفاء .

ردوا العدوان وابدلوا في سبيل الحق . . وإلا فالتسليم للعدوان والشح بالأموال
طريق الضياع والفناء والتهلكة . فلا تلقوا بأيديكم إليها .

ألا ليت المسلمين يدركون هذه السنة في ازدهار الأمم واندثارها لاسيما وهم مع
اليهودية والصليبية في حرب حياة أو ممات . . .

غير أن فريقاً من المسلمين ظلم هذه الآية أقبح ظلم ، وفهمها أغبي فهم وظن أن

الله يقول لعباده : احرصوا على أعماركم فلا تعرضوها للاستشهاد في سبيلى واحرصوا على أموالكم فلا تضيعوها بالإففاق في سبيلى !

وهكذا لم يكف الناس أن يعصوا حتى ذهبوا يتلمسون لمعاصيهم الفتوى المشروعة !
عن أبى عمران قال : كنا بمدينة القسطنطينية فخرج إلينا صف عظيم من الروم فبرز إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر . وعلى أهل مصر عقبة بن عامر . وعلى الجماعة فضالة بن عبيد فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم ، ثم خرج إلينا ، فصاح الناس إليه فقالوا سبحان الله ، ألقى بيديه إلى التهلكة . فقال أبو أيوب : يا أيها الناس ، إنكم لتأولون هذه الآية على غير التأويل . وإنما نزلت فينا معشر الأنصار ، إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه قلنا فيما بيننا : لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها . . . فأزل الله هذه الآية . . .

وإقبال الناس على أموالهم يستصلحونها ليس جرما يهون عن إقراره ، فإن تعهد المتاجر والمحافل بما يزيد غلتها ويضعف ثمرتها عمل مطلوب لا قيام للعالم إلا به ، ولا قيام لدين إلا إذا ساندته دنيا ، نمتها العمل ، ثم أنهكها البذل في سبيل الله .
وإنما خيف على المسلمين الأوائل أن يعمدوا عن نصرة الدين ويركفوا إلى ما بقي لهم من مال ظانين أن الإسلام قد انتصر وفرغ من أعدائه فلا ضرورة لإعداد ولا استعداد .

وهذا خطأ . فإن أعداء الحق لا يخلو منهم جيل ولا ينقطع لهم كيد . ولئن كان الهجوم المسلح غير مطلوب ديناً ، فإن السلم المسلح من أركان الدين . وذلك يتقاضى الأمة أن تأخذ أهبتها كاملة فلا تبخل على عمدة الحرب بمال ، ولا تمسى إلا وهى واثقة من أن بيتها على حذر وتهبؤ فإذا بوغت ردت على العادين وهى عزيزة قادرة . فأما الأمم التى تنام على تفريط ، وتضن على حماية نفسها ورسالتها بالأرواح والأموال ، فهى أم لاشك هالكه ، فى عالم يقال فيه : من لم يتدأب أكلته الذئاب . إن النفقة فى هذه الوجوه سياج يحمى المآثر ويصون الحياة . كما قال الله : « هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ . فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ . وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ » .

حول مخرج الحسين

يلوم أكثر النقاد الحسين بن علي رضي الله عنه في مخرجه أيام يزيد وتعرضه وأهل بيته للتحنوف ، على غير خطة حكيمة أو حيلة ناجحة أو قوة مساندة ؟ .
ولم يختلف جلة المؤرخين على أن يزيد كان حاكما فاشلا ، وأن طريقة استخلافه على المسلمين بعيدة عن تعاليم الإسلام . وأن مدته القليلة حفلت بحوادث مشثومة . . . ! !

ولم يختلفوا كذلك في أنه كان هناك رجال أحقّ منه بالخلافة وأقدر على تولّي شئون المسلمين ، وأرضى الله في خلقهم وعملهم .

منهم - أوفى طليعتهم - الحسين بن عليّ سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم . .
ومع هذه الكراهية ليزيد فإن المعارضين لحكمه لم يجمعهم نظام دقيق ، ولم تتخذ ثورتهم عليه منهجا واضحا ولا زعامة موحّدة . . . !

كان العامة يكتفون بالسخط المجرد ، السخط الذي يتجاوز الفؤاد أحيانا إلى اللسان ، كلمة نابية ، تقال في الخلاء . . . ! ! !

وكان الخاصة يرقبون المستقبل ، وعواطفهم موزعة .
إنهم يدرّكون أن الخليفة الضعيف سيضطرب الأمر في يده ويفلت الزمام منه .
فن ياترى ينهض من بعده بالعبء وبلي هذه الأمة ؟
وليس بمستغرب أن يرشح نفر كثير أنفسهم لهذا المنصب ، لقد تولّاه من هودونهم فكيف يبعد عنهم أو يستكثر عليهم ؟ ؟
وهذه السلبية في تفكير العامة والخاصة جميعا مكنت يزيد أن يبقى في الخلافة حتى يفارقها بالموت وحده . . .

ولو طال أجله لطالت خلافته .
ولم لا تطول ومن حوله أعوان يجتمعون عليه بقوة ؟ وتغريهم حلاوة الدنيا في ظلّه فيتحدّون خصومه بعنف . . ؟

إن المعارضة المفككة المرتبكة لا تلبث أن تضمحل أمام دولة موطّدة الأركان محشودة الأعوان .

نعم ! ولو كانت المعارضة أكثر أنصارا وأدنى إلى الرشاد .
وذاك سبب الفشل الذى لحق الثورات ضد يزيد قال ابن كثير : قدم عبد الله
ابن عمر المدينة فأخبر أن الحسين بن علي قد توجه إلى العراق ، فلحقه على مسير
ليلتين أو ثلاث . قال : أين تريد ؟ قال : العراق — ومعه طوامير وكتب — فقال :
لا تأتهم ! فقال : هذه كتبهم وبيعهم !

فقال : إن الله خير نبيه صلى الله عليه وسلم بين الدنيا والآخرة فاختر الآخرة
ولم يُرد الدنيا .

وإنكم بضعة من رسول الله والله لا يليها أحد منكم أبداً ، وما صرفها عنكم
إلى الذى هو خير منكم . فارجعوا .

فأبى وقال : هذه كتبهم وبيعهم ! فاعتنقه ابن عمر وقال : أستودعك
الله من قتيل ! !

قال ابن كثير : وقد وقع ما فهمه ابن عمر من أنه لم يَلِ أحد من أهل البيت
الخلافة على سبيل الاستقلال ويتم له الأمر . وقد قال ذلك عثمان بن عفان وعلى بن
أبي طالب : إنه لا يلي أحد من أهل البيت أبداً .

وأما الخلفاء الفاطميون بمصر فإن أكثر العلماء على أنهم أديعاء . . .
وعلى ليس من أهل البيت ، ومع هذا لم يتم الأمر له كما تم للخلفاء الثلاثة قبله
ولا انسمت يده في البلاد كلها ، بل تفككت عليه الأمور .

ونحن نوافق ابن عمر فيما ذهب إليه ونخالفه في العلة التى ارتآها .
إن رسول صلى الله عليه وسلم آثر الآخرة على الدنيا حقاً ، وآله الذين هم بضعة
منه يريد الله لهم ذلك ، ويغلبهم على رغباتهم فيها « يريد الله ليذهب عنكم
الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

لكن هل ولاية أمور المسلمين دنیا يذاد الصالحون عنها ؟
لقد جاء في الحديث أن أول السبعة الذين يظلمهم الله يوم القيامة « إمام عادل »
وجاء أن أول أهل الجنة الثلاثة « ذو سلطان مقسط موفق » .

قيامه المسلمين في الحكم — كإمامتهم في الصلاة — عبادة محضه .
وما يستطيعه المصلحون إذا حكموا أجدى على دين الله ودنيا الناس ألف مرة
مما يستطيعه الصالحون إذا اعتزلوا .

بل إن فساد الحياة ومثلها العليا يرجع أول ما يرجع إلى أن نفرا من الطغاة
أمكنتهم الأيام من أن يحكموا الأرض آمادا طويلة فقلبوا الحقائق في أفهام الناس
وأوهامهم ، وجعلوا سوق الرذائل نافقة ، وتجارة الآخرة كاسدة .

فكيف يُؤخَّرُ الأتقياء عن الحكم ليتولاه الفجرة ؟
إننا — لذلك — نخالف ابن عمر في فهمه . ونحسب أن الخلافة صُرفت عن
آل البيت لحكمة أخرى .

إن الزعامة أولا ليست مما تنقله الوراثة ، وكَم من سلالات باعدت بينها وبين
الأصل فروق ضخمة في الخصائص والمواهب .

وربما ظهر في بيوت المسلمين العامة من يعد أرحب ذكاء وأوسع باعا وأصدق
إيمانا وإخلاصا من رجال انحدروا من أصلاب أنبياء . . .
وما كان صلاح الأب ضمانا لصلاح ذريته إلى قيام الساعة .

ومع هذا فقد يظهر في أولاد العطاء من يحاكون نبوغهم ويجددون في
الحياة امتيازهم .

والرجال الذين يضمون إلى كفايتهم الخاصة عراقة الأصل يتمتعون بنفوذ
مضاعف ومكانه مرموقة .

وتلك منح لا تتاح لكل أحد .

إن قليلا من الناس يجمع بين الذكاء والجمال ، والغنى والعلم ، والقوة
والحلم ، والدين والدنيا .

وقد كان الحسين بن عليٍّ سيدا ابن سيد ، ورجولته — بغض النظر عن نسبه —
تستثير الإعجاب .

وقد فشل في إسقاط يزيد ، وأخذ السلطة منه ، وكأن الأقدار صنعت خيرا له
ولأهل بيته من حيث لا يحتسب .

نعم ، لأن الحاكم بشر يخطئ ويصيب ، ومكانته من تملك السلطة وتصريف الأمور توجب على الأمة وضعه تحت رقابة دائمة ، فإذا أخطأ قومته وإذا أعوج أصلحته

وعند ما يكون الحاكم مبتوت الصلة بنسب مهيب تكون الأمة على تقويمه أجراً ، وعلى الثورة عليه - إذا جار - أسرع وأقطع .
أما إذا أخطأ - وهو يقول : أنا ابن النبي - فإن الخطأ سوف يغتفر له ، بل سوف يتأول له .

وعندئذ يتحول الغلط إلى شرع . . !

وإذا افترضنا أن هذا الخطأ وجد من يُصِرُّ على محوه ، فإن تتم إزالته حتى يزول معه جزء من هوية الحاكم ، وبالتالي من قداسة النسب الذي يمتاز به . وقد يتأذى ذلك إلى غضاضة في النفوس نحو حق الرسول الذي ينتسب إليه . . .

إن ملوك بني أمية لما أخطأوا لعنوا وتنادى المسلمون عليهم من كل جانب حتى أسقطوا دولتهم ، وما كان ذلك يحدث لو تولى الأمر أهل البيت . . .

ولما يعلمه النّهازون والدجالون من محبة المسلمين لنبيهم وبيته اصطنعوا أنساباً يمتون بها إليه . وأقاموا حكومات كانت - بسيرتها المخرفة - وبالأعلى الإسلام وأهله .
وتاريخنا السابق واللاحق يحكي أنباء أسر انتحلت الشرف - والشرف هو النسبة إلى الرسول بالتوالد (!) - وباسم هذا الشرف المكذوب ألحقت بالأمة الإسلامية من الأذى ما زال تترنخ به حتى الساعة . . .

لقد أصاب ابن عمر في قوله للحسين : والله لا يليها أحد منكم أبداً .
إن الله صرف الحكم بخيره وشره عن آل محمد ليسوّى الناس شئونهم بأنفسهم ، ويحلون مشكلاتهم - مع حكامهم - بأيديهم ، باللطف أو بالعنف ، باللسان أو بالسيف .

وخير لآل محمد أن تسبغ عليهم مشاعر العطف هم مظلومون من أن تتبعهم مشاعر الحقد ، وهم حكام جبارون . . .

بيد أن حسيناً هاجته رسائل أهل العراق وهم يستقدمونه ليجعلوا الأمر له ، إنه أهل للسيادة بنفسه وبنسبه ، وهما هي ذى الجموع تدعوه فكيف يتأخر ؟

ويروى أن ابن عباس جاءه ناصحاً ، قال : يا ابن عم ، إنه قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق ، فبين لي ما أنت صانع .

فقال : إني أجمعت المسير في أحد يومي هذين إن شاء الله .

فقال له عبد الله : أخبرني إن كانوا قد دعوك بعد ما قتلوا أميرهم ونفوا عدوهم وضبطوا بلادهم فسر إليهم .

وإن كان أميرهم حياً ، وهو مقيم عليهم قاهر لهم . وعمله تجبي بلادهم ، فإنهم إنما دعوك للفتنة والقتال . ولا آمن عليك أن يستغزوا عليك الناس — بحكم مافي أيديهم من سلطة — فيكون الذين دعوك أشد الناس عليك .

فقال الحسين : إني أستخير الله وأنظر ما يكون .

ورجع عبد الله وهو متوجس من مسلك الحسين ، ثم غلبته محبته له فعاد إليه يكرر نصحه .

فقال له الحسين : يا ابن عم ، والله إني لأعلم أنك ناصح شفيق . ولكنني قد أزمعت المسير .

فقال له : إن كنت لابد سائراً فلا تسر بأولادك ونسائك . فوالله إني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان . ونساؤه وولده ينظرون إليه .

ثم قال عبد الله : والله الذي لا إله إلا هو لو أعلم أني إذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع عليّ وعليك الناس أطعني وأقت لفعلت ذلك . . .

ويروى المؤرخون أن عبد الله بن الزبير شجع حسيناً على الخروج وزين له الثورة على يزيد ، وملاً فؤاده ثقةً بأنصاره في العراق وكثرتهم .

ويزعم أولئك المؤرخون أن عبد الله كان غاشياً في هذه النصيحة وأنه إنما رغب في أن يخلو له الجو في الحجاز حتى تنمقد له إمارته وحده .

وهو يوقن بأن الحسين سيهلك في هذه الرحلة المشؤومة .

وهذا كلام مستبعد ، فعبد الله بن الزبير أتقى لله وأعرق في الإسلام من أن يقترب هذه الدنيا .

والحق أن هؤلاء الصحابة كرهوا ولاية يزيد أول ماجاء ، وتربصوا به الدوائر . إلا أنهم لم يرمسوا خطة بينة في إنقاذ الأمة من بدعته وحمايتها حاضراً ومستقبلاً من جريرته .

وطبيعي أن ينظر كل منهم إلى يزيد نظرة امرئ دخيل على الخلافة ، وأن يتمنى لو كان في مكانه هذا من هو أفضل منه .

وعبد الله بن الزبير لا يرى بأساً في أن يتقدم الحسين لاسترداد الخلافة من يزيد . فهو — في نظره — مؤيد بشيعة تعينه على بلوغ غايته .

نعم إن خطة الحسين كانت مجازفة ، لا أثر فيها لحسن السياسة .

غير أن ابن الزبير — وإن كان أدهى من الحسين — لم يرزق طول الباع في سياسة الأمور ، سواء كان حاكماً أم معارضاً . .

تلمس هذا في سلوكه مع قائد جيوش يزيد عندما وردت أخبار وفاته . .
فقد رأى هذا القائد أن يفتح عبد الله بن الزبير في التعاون معه والبيعة له ، فأبى عبد الله أن يسمع منه !!
ولو أصفى لدانت الشام له . . .

وخلا الجولابن الزبير — بعد — ودخلت أغلب أقطار الإسلام في حوزته . ومع ذلك فإن طريقته في تصريف الأمور جعلت الدولة تذهب منه .

فما زال سلطانه ينسكش ، حتى قتله الحجاج وصلبه في عاصمة ملكه المدير . . .
فعبد الله لم يغش الحسين حين زين له الذهاب إلى مصرعه بالعراق .

وإنما كان يصدر عن طبيعته في فهم الأحوال العامة وأسلوب معالجتها .
ونحن نؤكد أن عدم التقاء الصحابة الأكفاء على زعامة موحدة ومنهاج مشترك ، يتعاونون جميعاً على تحقيقه وجمع الجماهير عليه . . هو الذي أتاح للملك الأموي فرصاً أطول للبقاء والرسوخ .

لم يستجب الحسين لنداء المشفقين على مصيره ، وخرج مع أسرته شطر العراق ،
ليلقى أنصاره الذين ينتظرونه بالأشواق ! ! . .

ويقول الحسين — مسلماً نفسه مما قد يجد من رَوْع — لَأَن أَقْتَلُ فِي مَكَانٍ كَذَا
وَكَذَا ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتَلَ بِمَكَّةَ . .

هل كان الحسين يخشى على حياته وهو يقيم في الحرم ، مسالماً للحكومة الغالبة ؟
من الرواة من يقول ذلك . فمن عوانة بن الحُكم أن الحسين قال لعبد الله بن الزبير :
والله لَأَن أَقْتَلَ خَارِجاً مِنَ الْحَرَمِ بِشَبْرٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتَلَ فِيهِ . وإيم الله لو كنت
في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا بي حاجتهم . والله ليعتدُنَّ
عليَّ كما اعتدت اليهود في السبت ! ! . .

إن الملوك لا يستكثرون عليها شيء في سبيل تدعيم سلطانها .
ولعل الحسين أحس الغدر من قوم أبغضوه أشد البغض ، ولهم مع أبيه وشيعته
صانف قانية .

ولأن يموت وهو يبذل جهداً ما في حرب باطلهم أحب لديه من أن يقع
في أيديهم غنيمة باردة .

وهكذا اقتنع الحسين بضرورة الخروج إلى العراق ، وليقع له ما يقع .
روى عنه أنه قال : رأيت رؤيا ، فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أمرت
بأمر أنا ماض فيه . فلما سئل عن الرؤيا قال : ما أنا بمحدث عنها حتى ألقى ربي . . .
ولقى الحسين في طريقه الفرزدق الشاعر المشهور ، فسأله عن أمر الناس وما وراءه
فأجاب الفرزدق : قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بني أمية .

ولكن الحسين مضى لا يلوى على شيء حتى اقترب من الكوفة .
إن الطريق مقفرة ! أين الوفود التي يرجو أن تستقبله ؟
أين أصحاب الرسائل الذين كتبوها ألوفاً ألوفاً ؟
أين حملة السلاح الذين انتفضوا على الملك العضوض ؟
بل أين الحماة الذين يؤنسون الراكب المستوحش ؟

لا شيء من ذلك ! لقد جاء بدلهم رجال الشرطة يبعثون اعتقال الثائر الفريد . . .

وانطفأت حماسة الحسين بعد ما شاهد قبح الغدر به ، فقال لقائد الجند الذين أرسلوا لأخذه ومن معه : اختر مني إحدى ثلاث خصال :

إما أن تتركني أرجع كما جئت .

فإن أبيت هذه فسيرني إلى يزيد فأضع يدي في يده فيحكم فيّ ما رأى .

فإن أبيت هذه فسيرني إلى الترك فأقاتلهم حتى أموت ! . فكان تعليق عبد الله ابن زياد على هذا العرض : الآن إذ علقت مخالفتنا به يرجو الخلاص ؟ ولات حين مناص ! وأبى عليه واحدة من الثلاث .

والحق أن الحسين كان عادلا عاقلا فيما رجاه وأن بطر القوة المتفردة بالحكم هو الذي أملى برفض الطلب ، الذي يصون هيبة الحاكم ويحفظ كرامة رجل كالْحُسَيْن له مكانته التي لا شك فيها .

وبديهى أن يتأبى الحسين على ذل الإِسَار ، وأن يستعد للنضال عن شرفه ، وأن يبوئ عشيرته مقاعد للقتال ، حتى يحكم الله بين الفريقين .

روى أن الحسين حين مضى بأصحابه جلسوا يستريحون قليلا ، نفحق الحسين خفقة ، انتبه على أثرها فزعا ، وهو يسترجع ويحمد الله .

فسأله ابنه الأكبر : جعلت فداك ! رم استرجعت وحمدت ؟ .

قال الحسين رأيت فارساً على فرس يقول : القوم يسرون والمنايا تسرى إليهم . فعلمت — يا بني — أنها نفوسنا نعيمت إلينا .

فقال ابنه : يا أبت لا أراك الله سوءاً ، ألسفا على الحق ؟ قال : نعم . والذي إليه مرجع العباد .

فقال الغلام : إذا لا نبألى أن نموت مُحَقِّقِينَ .

ودار القتال واستمات الحسين وصحبه في الدفاع عن أنفسهم حتى كاد جند ابن زياد يقشون في النيل منهم على كثرتهم .

لكن ما تجدى الشجاعة والفروسية أمام هذه الأضعاف المضاعفة ؟ .

أخذ فرسان أهل البيت يتساقطون بطلا بعد بطل .

ولبت الحسين ينافح وحده في معركة ، لا أمل بها .

قال عبد الله بن عمار — وهو ممن حاربوا الحسين — حملت عليه بالرمح فانهت
إليه لأفقتله ، ثم قلت : ما أصنع بقتله ، ليقته غيرى . فانصرفت غير بعيد فقاتله رجال
عن يمينه وشماله فحمل عليهم الحسين بقوة حتى تفرقوا — وعليه قميص من خزٍ مغم —
فوالله ما رأيت مكسوراً قط — مات ولده وأهل بيته وأصحابه — أربط جأشاً
ولا أمضى جناحاً ولا أجراً مقدماً منه .

ولقد وجدوا يمدنه بعد استشهاده ثلاثاً وثلاثين طعنة ، وأربعاً وثلاثين ضربة
كلها فيما أقبل من وجهه وجسمه .

ويروى أن الحسين قال وهو يخوض هذه المعركة ، أو هذه المجزرة .

سأمضى ، وما بالموت عار على الفتى ! إذا ما نوى خيراً وجاهد مسلماً !

وآسى الرجال الصالحين بنفسه . . . وخالف مثبوراً وفارق مجرماً !

فإن عشت لم أندم ! وإن مت لم ألم — كفى بك ذلاً أن تعيش وترغماً !!!

وبهذا الختام الحالك انتهت مأساة كربلاء .

قتل الذكور كلهم إلا طفلاً ، وأخذ سائر النسوة أسرى .

ومشى أهل البيت إلى يزيد يجرّون قيود الهزيمة والشكل .

وللأم فترات يتبدّل فيها إحساسها ، فتطيف الأخبار الهائلة بها وهى حالة

ساهمة ، بين روعة المفاجأة ، واستكانة العجز ، وخزى الفشل .

وقد سرى موت الحسين فى أرجاء العراق ، وبدأت أصداءه الكئيبة ، تتردد فى

الآفاق ودويّه المزعج يطنّ فى كل فج .

وبين وطأة القوة المقتصرة وتربص الجماهير المحنّة جعل هذا المصارع المؤسف

يعمل عمله السريع والبطى فى نفوس المسلمين .

فكان مثار فتن وقلاقل بقيت تهز كيان الأمة الكبيرة أجيالاً متطاولة . . .

والمؤرخ للعقائد وعملها الحاسم فى توجيه الحياة ، يجب أن ينبّه إلى أمور :

منها أن كل جهد فى محاربة الباطل لا يذهب سدى ، وأن التضحيات المبذولة

— وإن بعدت نتائجها — تعمل عملها المتمهل أو المتقطع فى القضاء على الطغيان ،

وأن صدق النية قلما يضيع أثره عند الله ، أو عند الناس .

والجبناء فى حرب المنكر يتعلّلون لقعودهم بأعذار شتى .

منها أنهم قد يهلكون دون جدوى ، ويظل المنكر قائماً لا صدع به .
وهذا خطأ . فإن الانتفاض المتجدد عليه يقرب مصيره ، إن لم يجعل به . .
وقد مات الحسين ، وظل ملك أمية بعده حيناً
إلا أن دمه المسفوك هو الذى قوض الحكم الأموى وألب عليه ، فما زالت
تناوشه حتى انهار . .

والعاطفة القنبيلة ضد الظلم لا تنفى ألبتة عن رأى الحضيف والتدبير الحسن .
وعندى أن قول الشاعر :
إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكّب عن ذكر العواقب جانباً
لا يفاقضه قول الآخر :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول ، وهى المحل الثانى
وذلك أن هناك فروضاً يعتدُّ بها الفكر المجرد ، فلا معدى عن حسابها .
وهناك فروض يُظهرها الخوف على العمر ، والحرص على المال فلا بد من تنجيتها
فالشجاعة لا تعنى الحق وإطراح الرأى وتقليب وجوهه .
والمقل لا يعنى تجسيم الأوهام ، والتشبث بأذيال الحياة على أى لون .
وقد عاش الحسين شجاعاً ومات شجاعاً .
وربما تسرّب الخطأ إلى خطته فى المقاومة ، على أن الملابس التى اكتتفتها قد
تخفف من لومه ، والخطايا التى ارتكبتها الحكومة فى قمعته تبرر سوء الظن بها إلى
حدٍّ بعيد . .

والحسين السيّد لا يتوقع منه إلا أن يكون — إلى الرقى الأخير — بطلاً على الهامة .
إن أصحاب العقائد عندما يحاط بهم يشبهون النار عندما تنفخ فيها الرياح .
تتحفز مشاعرهم كلها ويجاهون الأخطار ببأس شديد .
وقد قتل قبله بشهور ، مسلم بن عقيل ، فكان فى دفاعه وتصبره وجلده مثلاً
للرجولة المبرّاة المساجدة .
أحاط سبعون من شرطة ابن زياد بالدار التى لجأ إليها ، فلم يشعر مسلم إلا
والقوم حوله .

فلما دخلوا عليه قام إلى السيف فأخرجهم من الدار ثلاث مرات .
وأصابت شفته العليا والسفلى . ثم جعلوا يرمونه بالحجارة ، ويلهبون النار
في أطناب القصب ، فضاق بهم ذرعا ، فخرج بسيفه يقاتلهم . فأعطاه رجال الشرطة
الأمان ، فأمكنهم من يده ، وجاءوا ببغلة فأركبوه عليها ، وسلبوا عنه سيفه فلم يبق
يملك لنفسه شيئا .

فبكي عند ذلك وعرف أنه مقتول .
فقال بعض من حوله : إن من يطلب مثل الذى تطلب لا يبكي إذا نزل به هذا !
فقال : أما والله لست أبكي على نفسى . ولكنى أبكي على الحسين وآل الحسين
إنه قد خرج إليكم اليوم أو أمس من مكة .
وأوصى مسلم من بعث إلى الحسين باسمه يأمره بالرجوع بعد فوات الوقت .
كان مسلم يريد تنبيه ابن عمه ألا يثق بصدق أنصاره فى العراق ، فهم خاذلوه
حتمًا كما تركوه هو ، يقتله ابن زياد .
ولكن القدر غلب . فتبع مصرع هذا مصرع ذاك .

وفىما نطالع من أنباء المكافين والأبطال نرى الرجال لا تخونهم شمائلهم فى اللحظة
الآخيرة ، بل تكون خصائصهم الكامنة فى أوج تألقها .
ولقد غاظنى — وأنا أتبع محاكمة الإخوان — أن أجد نفرا من قادتهم لا يستطيع
أن يتماسك لما أصابه من دعر . . .
ولم يعزنى عن هذا الشعور إلا أن هؤلاء سرقوا مناصب القيادة من ذويها ،
وما كان هؤلاء الذين احتلوا الصف الأول ، أهلا للبقاء فيه لحظة .
فلما ضاعت الأمانة افتضح أهل الإيمان . . .

العلم يدعو للإيمان

إلى متى يظل الإنسان منطلقاً في هذه الحياة كالتذيفة الطائشة ، لا يدري كيف يسير ، ولا إلى أين المصير ؟

وإلى متى يبقى مندفعاً بقواه المذخورة وأهوائه المحصورة حتى إذا نفدت قوته وبطلت حركته سقط حيث طاشت به مطارح الدنيا « فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ يَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ » ؟ ..

عجبت لقوم ينكرون الله ، ويحجدون مبتداهم منه ومنتهاهم إليه .
وأعجب من ذلك أن يقوسلوا إلى إلحادهم بالعلم ! ! العلم الذي هو نهج الإيمان الحق ، ودليل الوجود الأعلى !!

فإذا ذهبت تتعرف شبههم وجدت إما قصورا في العلم يلحق صاحبه بالجهال ، وإما غرورا بأدنى الحظوظ منه .

والغرور بالقليل يرسل أحكامه مبتسرة مضللة ، لا وزن لها ولا معول عليها . .
وفي بلادنا صنف من الناس ليس له زاد من المعرفة ، إلا قراءات على هامش الأسفار الضخام التي كتبها العلماء الراسخون .

قابلت أحدهم من سنين وما زلت أذكر الحوار العنيف الذي دار بيني وبينه !
كان هذا المغفل يجادلني في وجود الله ، ويسوق كلمات حفظها من نظرية النشوء والإرتقاء ، ويريد ليوهمني أن خلق إنسان سوى الشاعر نابض الأجهزة لمآح الذكاء أضحي عملاً في مقدور العلم ! وأن معامل الكيمياء توشك أن تفاجئنا بهذا الإختراع !!

فلما تحسست حصيلة هذا الجادل من علوم الكون والحياة وجدتها قشورا يسيرة ، فاستغربت أن رجلاً بضاعته حروف الهجاء في فن من الفنون يصطنع فيه درجة الإمامة التي تمحو وتثبت .

وفي ماذا ؟ في حقيقة الوجود الأعلى .
فاكتفيت بأن أكشف لهذا المغرور جهالته ، ثم تركته ، وعلى لساني قول الشاعر :

نجاً بك عرضك منجى الذبا ب ، حتمه مقاذيره أن يُنالا !
وتذكرت قول الله تبارك وتعالى : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانی عطفه ليُضِلَّ عن سبيل الله ، له في الدنيا خزيٌ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » .

من الخرافات الشائعة ، أن كثيراً من عطاء التاريخ لا أخلاق لهم ، وأن كثيراً من علماء الكون لا إيمان لهم !

وأحسب أن ترويح هذه الخرافة بعض ما تلجأ إليه الشياطين في محاربة الإيمان والأخلاق ، حتى تنشأ الأجيال الغضة وهي تحسب التحلل والتمرد أخصر الطرق إلى العبقرية والسمو . .

والحق أن عرا الأخلاق هي التي صنعت ألوف الرجال ، وأن الإيمان بالله حقيقة مقررة لدى جمهور العلماء الراسخين .

نعم قد تكون لدى هؤلاء العلماء ريب في أغلب الديانات المشهورة أو فيها كلها . بيد أن العيب لا يرجع إلى أولئك العلماء الماديين قدر ما يرجع إلى أصحاب الأديان الذين شوهوا رسالات الله ، إما بتحريف الكلم عن مواضعه ، وإما بالأعمال الشائنة التي تضع من أقدار المتدينين ، وما يحملونه من دين .

والقرآن الكريم لم يصم بالكفر إلا قوما تكشف لهم الحق فجدوه ، وعرض عليهم الدين كاملاً فأزروا به وانتقصوه « إِنَّ الدِّينَ ارْتَدَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ ، الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ » .

« وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ . . »

أقول ذلك بعد ما انتهيت من مطالعة كتاب « العلم يدعو للإيمان » للعلامة الجليل « كريسي موريسون » .

وموضوع الكتاب يفهم من عنوانه ، إنه تعريف بالخلائق يقودك إلى خالقها وشرح للكون ينتهي بك إلى باريه . .

وهل للإيمان الذكي العميق نبع يحش به إلا من هذه المطالعة الدارسة
للحياة والأحياء ؟

ولأمر ما ، قال الله عز وجل : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات
والأرض وليكون من الموقنين » .

إن الإيمان لا يتمو في قلب ويتخلل شعابه ويغمر رحابه إلا بمدى مايمى المرء من
آيات الله في ملكوته .

ومسلك المؤلف العالم في كتابه هذا ، يقوم على عرض الحقائق المتيقنة عرضا ، لا أثر
فيه للأوهام والفروض ، ولا مكان فيه للمغيبات والنصوص .

إنه يحترم قوانين المنطق الحديث والفلسفة الحرة ويستهدى إلى غاياته طرقا
لا يختلف على صحتها المؤمنون بما وراء المادة والجاحدون لها .

ولقد تابعته بعقلي كما تتبع العين الأشعة الكاشفة ، وهى تنتقل من أقصى الأفق
إلى أقصى الأفق .

إن ثروة هذا الرجل في المعارف الكونية طائلة هائلة وإنك لتعجب أهو
إخصائى في الفلك أم في التشرىخ أم في الكيمياء أم في غيرها ؟

ولا غرو فهو رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك « فحديثه عن العالم الكبير الذى
نعيش فيه ، وعن القوانين الضابطة لسيره ، وعن الأسرار الكامنة فى فنونه وحواشيه
حديث الخبير الراسخ المتأنق فى سرده واحتجاجه . . . !

والكتاب كله تفصيل مطرد متسق ، لما أسماه علماء التوحيد عندنا « بدليل الإبداع »
وأساس هذا الدليل على وجود الله لفت النظر إلى مافى الكون من دقة وحكمة .
هل رأيت شريط السكة الحديد الممتد من القاهرة إلى الإسكندرية مثلا ؟ إنه
يربو على مائتى ميل .

والمسافة بين الخطين المتوازيين الممهدين لانطلاق عجلات القطار فوقهما
لا تزيد ولا تنقص .

ألا يدل ثبات هذا العرض على إعداد مقصود لسير القطار فوقه .
ألا تدل طريقة المد والتسكين على أن القطار المنساب سيجرى بسرعة معينة ؟
ويحمل أثقالا كثيرة ؟

هل إذا رأيت أذرعة القاطرة تغمز العجلات بعدما حركتها سلسلة مضبوطة منسقة من الآلات والأجهزة ، فإذا بالقطار يتحرك وينهب الأرض نهبا .

أنحسب أن هذه الأجهزة المتراكبة والآلات المتناسقة قد أخذت أوضاعها العتيقة من غير فكرة صاحبها وغرض تنتهى به ؟

هذا مستحيل !

على هذا النحو أخذ الباحث الضليع يسوق آلاف الأمثلة من حقائق الأرض والسماء ، فإذا بك أمام حشود لا آخر لها من براهين الوجود الأعلى اسمع إليه يقول : « قد رأينا أن العالم فى مكانه الصحيح ، وأن قشرة الأرض مرتبة إلى مدى عشرة أقدام ، وأن المحيط لو كان أعمق مما هو بضعة أقدام لما كان لدينا « أوكسوجين » ولا نبات ! وقد رأينا الأرض تدور كل أربع وعشرين ساعة ، وأن هذا الدوران لو تأخر لما أمكن وجود الحياة ، ولو زادت سرعة الأرض حول الشمس أو نقصت لتغير تاريخ الحياة إن وجدت تغيرا تاما ، وقد رأينا هذه الشمس هى الوحيدة بين آلاف التى جعلت حياتنا على الأرض ممكنة وأن حجمها وكثافتها ودرجة حرارتها وطبيعة أشعتها يجب أن تكون صحيحة كلها على ما وجدناها ، وهى صحيحة فعلا ورأينا أن الغازات التى بالهواء منظم بعضها إلى البعض بنسب دقيقة . وأن أقل تغيير فيها يكون قتلًا . الخ » ماذا يعنى ذلك كله ؟ ألا يردك إلى الله ويعلمك به ؟

ومع ذلك فيوجد من الناس من يقول لك : إن الساعة التى فى معصمك قد استدارت تروسها وتشابكت آلاتها وانضبطت دقاتها وتحرك عقرب الدقائق بعد ما تحرك عقرب الثوانى وتحرك عقرب الساعات بعد ما تحرك عقرب الدقائق ، كل ذلك بمحض الصدفة !

فهذا الحساب المحصى للزمن لم تشرف على تسجيله وإحكام مراصده ففكرة وافية ولا يد صناع !!

كذلك يقول بعض المتعالمين عن السموات والأرضين وما بينهما وقد تحدث هذا العالم الحصيف عن الصدفة وما ينسبها لها الواهمون من تنظيم واقتدار فقال : « إن

الصدقة تبدو شاردة غير منتظرة وغير خاضعة لأية طريقة من طرق الحساب .
ولكن إذا كنا ندهش لفاجأتها فإنها — مع ذلك — خاضعة لقانون صارم نافذ .
لنفرض أن معك كيسا يحوى مائة قطعة رخام ، تسع وتسعون منها سوداء وواحدة بيضاء .

والآن هز الكيس وخذ منه واحدة .
إن فرصة سحب القطعة البيضاء هي بنسبة واحد إلى مائة .
والآن أعد قطع الرخام إلى الكيس وابدأ من جديد .
إن فرصة سحب القطعة البيضاء لا تزال بنسبة واحد إلى مائة وإن فرصة سحب القطعة البيضاء مرتين متواليتين هي بنسبة واحد إلى عشرة آلاف (المائة بعد ماضوغت مائة مرة) !!

ثم جرب مرة أخرى أو مرتين تصبح الأرقام فلكية !!
إن نتائج المصادفة مقيدة بقانون صارم تقييدا وثيقا كما أن اثنين واثنين يساويان أربعة .

ويقول في مكان آخر : وإذا نظرنا إلى حجم الكرة الأرضية ومكانها في الفضاء وبراعة التنظيمات التي تمسكها فإن فرصة حصول بعض هذه التنظيمات مصادفة هي بنسبة واحد إلى مليون . وفرصة حدوثها كلها معا مما لا يمكن حسابها حتى بالبلايين .

ونقول : بل لا يمكن افتراضها إلا في تصور المستحيلات ، فإن العقل الذى يمنع أن تبني المصادقات داراً من بضع حجرات يجزم أكد الجزم بأن هذا العالم الكبير — بأفلاكه وآماده وحيوانه وجماده وأنسه وجنه — يستحيل أن تنشئه صدفة عارضة .

ثم هل نحسب أن مثونة إبقائه وحياطته أيسر من إيجاده لأول مرة ؟
إن كلا الأمرين ليس له إلا الله « الله خالق كل شيء » وهو على كل شيء وكيل .
له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون .

رجال عز أشباههم

إن الرجال الذين تصلح بهم الحياة ويطيب معهم العيش ليسوا نماذج معتادة من من هذا الغناء الكثير الذى تراه العين ولا تجد فيه طائلا .

بل هم نماذج فريدة للفضائل الجليلة والأخلاق النبيلة والمواهب التى قلما تلقى نظائرُها لأنها كالمعادن النفيسة لا توجد إلا على ندرة .

وحاجة العالم إلى أولئك الرجال كحاجة العقل إلى المعرفة التى يتألق بها . وحاجة الجسم إلى الطاقة التى يتحرك بها . .

بل إن وجود أولئك الرجال بعض الخير الذى يبعثه الله فى الحياة ليعيد إليها توازنها إذا اختل .

وبعض الأمان الذى يسكن به النفوس القلقة ، ويرجع إليها ثقتها بالحق والكمال إذا هالها ازدحام الدنيا بالأوغاد والمبطلين .

ألا تنحنى احتراماً للإيثار العالى وأنت تسمع أحمد بن حنبل يقول : اللهم إن قبليت عن عصاة أمة محمد فداء فاجعلنى فداء لهم . . .

إن الغم الذى يرين على فؤادك من الأثرة الطافحة الغاشية هنا وهناك ينكشف كله أمام الشعاع الطهور الوضئ الذى يبرق فى هذه الكلمة الرائعة .

وانظر إلى طبيعة الخير المتغلغلة فى أعماق هذا الإمام وهو يدعو فى سجوده :

اللهم من كان من هذه الأمة على غير الحق — وهو يظن أنه على الحق — فرده إلى الحق ليكون من أهل الحق .

دع هذه القمة الشامخة ، ونقل بصرك فى قوم إذا رأوا الحق معك كرهوك من أجله ، أو كرهوه من أجلك .

فإذا حملوا عليه حملا أو نقل إليهم نقلا ، حولوه إلى تجارة خاصة ، ثم حاولوا احتكار الصنف ، لينفردوا بمفائمه

كأن الإيمان سلعة تباع فى سوق الجشع والمنفعة ، وليس جهادا ترجح مغارمه بكل ما ينشده الانتهازيون من مال وجاه . .

إن النهضات الإنسانية البحتة لا تبلغ تمامها إذا أشرف عليها صغار القلوب
وعبيد أنفسهم .

فإن الله قدر — في نظام هذا الكون — إن العظام كفوها العضاء ، وأن من
طلب عظيماً خاطر بعظميته .

فإن يك هذا في ميدان العمل للدنيا أمراً لازماً فهو في ميدان العمل للدين ألزم
وأحكم ! . . .

كنت أحسب أحمد بن حنبل رجلاً يغلب على تقواه التزمّت ، وعلى مذهبه في
الفقه القسوة والصرامة .

ولعل لفيفاً كبيراً من العامة والخاصة يحسبون الرجل كذلك ، وهذا وهم
بجانب الصواب .

وأروع ما قرأته وأكبرته وأغراني بالتعرف عليه موقفه الكريم يوم طلب منه
— بالسب والضرب — أن يشارك في بدع المتكلمين وأن يقول بخلق القرآن . .

قال أحمد : وجيء بالضرايين ومعهما الشياط فجعل أحدهم يضربني سوطين ويقول
له المعتصم : شد قطع الله يديك . ويجيء الآخر فيضربني سوطين ، ثم الآخر
كذلك . فضربوني أسواطاً حتى أغنى على وذهب عقلي مراراً .

فإذا سكن الضرب يعود إلى عقلي .

وقام المعتصم يدعوني إلى قولهم فلم أجبه !

ورجال حاشيته يصيحون : ويحك . الخليفة على رأسك ، فلم أقبل . . وأعادوا
الضرب ثم عاد إليّ فلم أجبه . . فأعادوا الضرب فذهب عقلي فلم أحس به .

وأرعبه ذلك من أمرى فأطلق سراحى ، ولم أشعر إلا وأنا في حجرة من البيت
وقد أطبقت الأقياد من رجلى . .

قال ابن كثير وجاء الأطباء إلى الإمام المذبذبة فحطموا لحماً ميتاً من جسده ،
وجعلوا يداوونه حتى عاد إليه روحه الذي كاد يزهى ، فلما شفاه الله بقى مدة
وإبهامه يؤذيها البرد . .

أتدري ما كان موقفه بعد ؟

جعل كل من آذاه في حل إلا أهل البدع ! وكان يتلو قوله عز وجل « وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم » .

يقول : ماذا ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك وقد قال الله « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » .

وينادي المنادي يوم القيامة : ليقم من أجره على الله فلا يقوم إلا من عفا . . .
ولست أسوق هذا الكلام في معرض المهادنة للاستبداد السياسى كما قد يسبق إلى أذهان الجهلة ، فإنى منذ أمسكت بالقلم لم أترث في مهاجمة الجبارة والإعانة عليهم بالتافه والجليل .

وكم أعيانى تدريس الحريات الاقتصادية وائسياسية لجاهير من المتدينين ما كانت تعقل فى الإسلام شيئاً منها .

وإنما أسوق كلام ابن حنبل ليعرف الناس أن الرجولة لا تحقد .

وأن الأتقياء فوق الأهواء .

وأن رغبتهم فى انتشار الخير وثبوت الحق أسبق فى أفئدتهم من رغبة التشفى وسورة الانتقام لأشخاصهم .

وعلى ضوء هذه الكلمة الرقيقة الندية للإمام أحمد « ماذا ينفعك إن أيعذب أخوك المسلم بسببك » تعرف أقدار قوم لا يرون بناء حياتهم إلا على أنقاض الآخرين ، ومن هم أولئك الآخرون ؟ إنهم ليسوا خصوماً يطلبون عفواً إنهم البناءون الأولون والمعلمون المجحودون .

لقد عرفت من عاطفة السباحة التى أودعها الله قلب ابن حنبل سرّاً من أسرار الاصطفاء الإلهى للإمامة فى الدين والإمامة فى الدنيا . .

والذين يتعشقون خلال الرجولة أين كانت يرون أن الإمام أحمد كان يسير على سننها العتيده ، الذى أوضح الشاعر معالمه بقوله :

وإن الذى بينى وبين بنى أبى وبين بنى عمى لختلف جداً

فإن أكلوا لحى وفرت لحومهم وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا

وإن ضيعوا غيبى حفظت غيوبهم وإن هم هووا غيى هويت لهم رشداً

وإن زجروا طيراً بنحس تمرُّ بي زجرت لهم طيراً تمرُّ بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم وليس رئيس القوم من يحمل الحقد
إن النهضات المجوسية يوم ترزق رجالا ذوى قلوب كبيرة تسير وتصنع العجائب .
والليقظات الإسلامية يوم يتصدرها رجال لا يفقهون منطق ابن حنبل في قوانين
السلوك تكبو وتتعت .

وإني أتصفح تاريخ ديننا يوم هجوم (المغول) على أرضه فأجد عجبا من صنع
أهله بأنفسهم ، وصنع أعدائه لأهمهم وعشائهم .

أنتسمع عن (جنكيز خان) قائد المغول ؟ إنك للوهلة الأولى تحسب أن زعيم
أولئك الهمج كان وحشا شرسا لا تعرف الرقة سبيلا إلى قلبه .

خاض إلى بلاد الإسلام بحرا من الدم المسفوك ظالماً وعدواناً . .

لا ، إن الأمر يتجاوز هذه الظنون إلى حقائق ينبغي أن نعيها وعيا جيداً . .

هب أن (هتلر) ساق جيوش (ألمانيا) على الملك « عبد الله » وشعب « الأردن »
أو « اليمن » أنتحسب أن مثل هذه الحرب تصور دقيق للصراع بين الإسلام يقوده
واحد من نسل النبوة ، وبين الصليبية الغربية يقودها زعيم أناي متطلع . . ؟

كم يكون حظ الإسلام كايا في هذه المباراة ، وكم يكون ميراث
نبيه مبخوساً ؟

قال ابن كثير متحدثاً عن (جنكيز خان) وشمائله : قدم له بعض الفلاحين
ثلاث بطيخات — وهو يصطاد — فاتفق أن لم يكن عنده أحد من الخزنة ،
ليعطوه الثمن ، فقال لزوجته أعطيه هذين القرطين اللذين في أذنيك . وكان فيهما
جوهرتان نفستان جدا ، فشحت المرأة بهما وقالت : أنظره إلى غد . . ! فقال لها
جنكيز خان : أنه يبيت هذه الليلة مقلقل الخاطر . . وإن هذين لا يمكن أحد إذا
اشتراها إلا جاء بهما إليك — فأنزعتهما فدفعتهما إلى الفلاح . .

قد تقول : فما بال هذا الذي عز عليه مبيت فلاح ليلة قلق الخاطر يشن على
المسلمين الأمنين هذه الحروب المهلكة ؟

وندع الجواب لابن كثير يقول فيه : كانت البداية بالشر من خوارزم شاه ،
الملك المسلم (١) .

فإن تجارا من رعية جنكيز خان انتهوا إلى إيران ومعهم بضائع كثيرة فقتلوا وسلب ما معهم .

وبلغ النبأ جنكيز خان المشرك (!) فأرسل إلى خوارزم شاه يستعلمه : هل وقع هذا الأمر عن رضا منه ؟ أو أنه لا يعلم به فأنكره ؟ وقال له فيما أرسل به إليه : من المهود لدى الملوك أن التجار لا يقتلون لأنهم عمارة الأقاليم ، وهم الذين يحملون التحف والنفائس ، ثم إن هؤلاء التجار — الذين أصيبوا — كانوا على دينك فقتلهم نائبك ، فإن كان أمراً أمرت به طلبنا بدمائهم ، وإلا فاستنكره واقتص من نائبك . .

فلما سمع خوارزم شاه ذلك من رسول جنكيز خان لم ير جواباً سوى أن يأمر بضرب عنقه (!)

قال ابن كثير : فأساء التدبير ، وقد كان خرق وكبرت سنه ، فلما بلغ ذلك جنكيز خان تجهز لقتاله واحتلال بلاده . فكان — بقدر الله تعالى — ما كان من الأمور التي لم يسمع بأغرب منها ولا أبشع .

إذا كان الإسلام في ميدان الحكم والسياسة يقوده أولئك الملوك السفهاء فهل يقودونه إلا إلى البوار ؟

وإذا كان الإشراف يقوده أولئك الملوك العقلاء فهل يقودونه إلا إلى السيادة ؟ وقل مثل ذلك في ميدان الدعاية والإرشاد والتربية والإعداد ، أفتحسب أن أصحاب الأفئدة الصغيرة والأهواء الكبيرة يحيون فضلاً أو يحسنون صنعا . .

إننا أمام أزمة الرجولة التي نعانيناها ، لا نطمع في رجال من أمثال ابن حنبل يعفون عن ظلمهم ، ولكننا نريد نخسب رجالاً ، لا ينامسون للأبرياء العيوب ، رجالاً لا ينجحون من أن يصفوا المؤمنين بالنفاق ويقولوا فيهم : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خيالا . . . » (١) .

اللهم إليك المشتكى ، وبك الحول ، وأنت المستعان .

(١) رمانا بها خطيب في المركز العام ليسكت صيحات المطالبين يعودتنا إلى صفوف الجماعة ، هذا والسكينة كلها — كما رأيت — عتب وتعليم .

بين الغيبة والنقد

إذا نصحت المسيء وأنت فرح لما فرط من إساءته ، وتربصت به العقاب ،
وأنت شامت لما أصابه من جريرته . . فأنت امرؤ لا تقوم لله ولا تنقيم حدوده .
وكلامك في وعظه — وإن كان حقاً — إلا أنه كجهاد المنافقين .

وطلبك للجزاء — وإن كان عدلاً — إلا أنه إشباع للشهوة لا إقامة للدين ! !
إن النية الصالحة روح كل عمل ، وبها ترسو الموازين كالجبال ، أو تخف كالهباء .
وصدق رسول الله إذ يقول : « إنما الأعمال بالنية » .

المؤمن الصادق رجل يعشق الخير ويهوى وقوعه ويحب أصحابه . .
جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل : « ما علامة الله فيمن يريد
وما علامته فيمن لا يريد ؟ » فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « كيف أصبحت ؟ » .
قال : أصبحت أحب الخير وأهله ، وإن قدرت عليه بادرت إليه . . وإن فاتني
حزنت عليه وحننت إليه قال : « فتلك علامة الله فيمن يريد »
هذه النفس التي تحب الخير عن نقاء وطهر ، تكره الآثام بداهة وتنكش
من ذويها .

فإذا رأيت جرماً استسكركه . وإذا كانت بينها وبين صاحبه جفوة قديمة
لم تفرح لمعرتة .

إن العصيان قذارة تلوث وجه الحياة كما تلوث الأقدار وجوه الطرق .
ومجرد الفرح بوقوع معصية — أيًا كان مرتكبها — يدل على طبيعة
مريضة كفود .

إن المؤمن لا يبهجه وقوع سيئة من أحد .
ويوم يحس الرضا في نفسه لجريمة تقع من إنسان عدو أو صديق ، فليثق
بأن في إيمانه علة خفية ، ولينسج إلى الاستشفاء منها .

كذلك ليس من الإسلام أن تندفع فاضحاً مشهراً بمن أخطأ . . مظهر
الشامة به . طالباً له النكال به ، وكأنما تدرك ناراً فاتك ، ومكنتك الأيام منه ! !

إن المرء قد يهتاج لمظلمة تنزل به . وقد يسره أن تقتص الأقدار من البغاة والجبابة ، ولكن هذا أمر غير ما نحن بصدده .. إنما نعالج هنا نفوسنا تندد بالشر لوقوعه من فلان ، وتخرس عنه لوقوعه من فلان .

وهي تحارب الخطأ بقسوة من الأول . وتتغاضى عنه من الآخر، أى أنها تحارب بعض الناس — باسم الخير — شفاء لضغنها ، وتبسط اللسان فيه لا شتماً شخصياً — كما هو الواقع — بل نقداً دينياً ، وهذه هي الطامة .. !!

إننا نثبت هذه الصور بين يدي بحث مفصل في الغيبة ، ليعرف المسلم الحدود التي تحرم فيها قطعاً ، والحدود التي تنفصل بها عن دائرة المحرم شرعاً .. وسترى أن القصد المصاحب للعمل هو الفيصل المميز بين هذه وتلك . عن أبي هريرة . قيل : يا رسول الله . ما الغيبة ؟ قال : « ذكرك أخاك بما يكره قيل : « أفرأيت إن كان في أخى ما أقول ؟ » قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » .

إن ذكرك أخاك بما يكره جريمة ، ضرب لها القرآن هذا المثل الشنيع : « أُنحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ » وذكر النبي صلى الله عليه وسلم هؤلاء المغتابين بما يكشف عن خبيثة الإثم في أفئدتهم فقال : « لما عرج بنى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم . والحق أن تناول الناس بالسوء قد ينال من أقدارهم ، بل ربما يدمر حاضرهم ومستقبلهم .

فكلمة القدح قد تُميت ، كما أن كلمة المدح قد تحيي .. !! هب أن رجلاً كبير القلب حى الضمير ألمَّ بخطيئة ما ... إنك تزلزل قدمه في طريق الخير حين تُندد به .

وتمطيه فرصة لتجديد حياته واستعادة ثباته إذا سترت عليه . لذلك يقول رسول الله : « من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موءودة » إن الفضيلة الجريح في نفس مؤمن أزاله الشيطان ، تجد في هذا الستر دواء تحيا عليه وتقوى وتنمو .

أما إذا اطلع على سوانها رجل سليط أو خصم حسود فهو يجب أن ينكأ الجراح ولو اندملت حتى يوردها القبور .

وأدب الإسلام - في هذه الحالات - أن ليس كل حق يقال . . فلا تذكر أخاك بخطيئة اقترفها ، لا لأن الإسلام يريد بقايا الخطايا في المجتمع ، فإن هذا ما يستحيل أن يريده دين .

بل لأن هذا أسلوب ناجع في محاربة الإثم ، وتخليص النفوس من أوضاره . . فكم من ستر أعان على متاب ، ومكّن من عصمة .

والناس ليسوا سواء في الإفادة من هذا العلاج إن المدح قد يشجع رجلا على الكمال والإجادة ، وقد يقصم آخر بالغرور والتراخي ! !

والإحسان يستعبد نفوسا ويملكها ، وقد يفسد نفوسا أخرى ويضر بها ، حتى تفتك بمن أحسن إليها . .

والكلمة التي لا يبالي بها عبد قد يُرعد لها أنف الحر .

ومن الناس من ترهبه فيشُمُس ويتمرد . . فإذا خفضت له جناحك وألّنت له القول ملكك لسانه وقلبه . .

وكثير من الناس إذا طويت معايبهم ونشرت محامدهم أخذت أحسن ما فيهم وسرت بهم إلى الخير . .

وذلك ما ينشده الإسلام حين يحرم الغيبة . وحين يشغل الناس بأنفسهم يصلحونها ويجمعهم يعلمون مكانتها وينفون عنها الريبة والفاحشة .

فإذا لم يكن بدٌّ في سبيل الإيمان والإحسان - من ذكر رجل أو قوم بما يكرهون فليذكروا ولو طفحت نفوسهم بالأذى ، مادام تناولهم بما فيهم ذريعة إلى غاية شريفة ومادام هذا التناول محكوماً بالحق الذي لا تريد فيه ولا نقصان :

روى أبو داود تحت عنوان « من ليست له غيبة » جاء أعرابي فأناخ راحلته . ثم عقها ، ثم دخل المسجد فصلى خلف رسول الله ، فلما سلم رسول الله أتى الأعرابي راحلته فأطلقها . ثم ركب ، ثم نادى : اللهم ارحمني ومحمدا ، ولا تشرك في رحمتنا أحدا . . . ! !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتقولون : هو أضل أم بعيره ؟ ألم تسمعوا
إلى ما قال ؟ قالوا : بلى . !!

وترجمة أبي داود لهذه القصة بالعنوان الآنف جمعت كثيراً من العلماء يقسم
الغيبة إلى قسمين :

قسم محرم ، وهو ما يقوم على نهش الأعراض وفضح الأخطاء لشهوة رديئة .
وقسم مباح أو واجب ، وهو ذكر الأغلاط لتفنية المجتمع منها . . فالجزم الفار من
القضاء إذا حوكم غيايباً فشرحت جنائته وكشفت سوءاته وتكلم فيه بما وقع منه
فهذا . في نظرهم من الغيبة الجائزة .

وقد عني أولئك العلماء عناية بالغة بهذا الموضوع ، وألفت فيه رسائل شتى .
منها ما كتبه الشوكاني « رفع الريبة عما يجوز وما لا يجوز من الغيبة » .
ونظم بعضهم - على عادة القدماء - مواطن الجواز فقال :

القدح ليس بغيبة في سotte متظلم ، ومعرف ومخذر
ولمظهر فسقا ، ومستفت ، ومن طلب الإعانة في إزالة مفكر
ورأى أن الغيبة المحرمة شيء .

والأمور التي أحصاها الأئمة شيء آخر ليس من قبيلها ، ولا ينبغي أن يجمعها به
عنوان واحد وإن تشابهت الصورة العامة .

ألا ترى أن قتل الغيلة . . وقتل القصاص . وقتل الجهاد ، يلتقي كله في أنه
إزهاق للروح ؟ ومع ذلك فشتان بين قتل وقتل ؟ كذلك الوضع هنا .

إن حرب المظالم ، وتغيير المناكر ، وتحديد الفواصل بين الحق والباطل ، تقتضي
أسلوباً ربما قسا على الأشرار قسوة لا تهتم بأشخاصهم قدر اهتمامها بملاج
ما يقع منهم .

ولا تشبه النيل منهم قدر اهتمامها بإثبات المصلحة ومحو الفسدة .

وهذا المعنى نقيض ما هو ملحوظ في الغيبة من رغبة في الفضح والشماتة والنشفي ،
بل من رغبة في بقاء الجريمة يصلح المجتمع ناراها ، ويصلح صاحبها عارها
في وقت واحد !!

قالوا : التظلم غيبة مباحة .

وأقول ، إن ذكر الظالمين بآثامهم التي بعثت على الشكوى منهم ليس استثناءً شاذاً عن قاعدة ، بل هو اطراد مع قاعدة أخرى وعمل بنصوص لا ريب فيها ، تهدف إلى صيانة الأمة من البنى والعدوان : « لا يحبُّ اللهُ الجهرَ بالسوءِ من القولِ إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً » .

وقالوا : المجاهر بفسقه لا غيبة فيه .

وأقول : بل إن تعريف الغيبة لا يشمل ابتداءً ، فإن المرء الذي يفخر بمعصيته ويصبح يكشف ستر الله عنه بعد ما أسبله عليه ، ويقول — ذا كراً نفسه بمقابحها — : فعلت كذا وكذا .. لا يسوءه أن يذكره الناس بما فيه ، بل قد يستحب ذلك منهم . إلا أن ذكر هذا المجرم على سبيل التسلية والتلهي ليس بإيمان ولا إجمال . فإن الواجب تتبعه بالنقد والصد ، وتناوله بالخصام والملام ، وإن الحملة على مثله دين !

إحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، وحماية المصلحين حتى يؤدوا رسالتهم ، وكبح المجرمين حتى تفحسر شرورهم ، وإنزال الناس منازلهم حتى يوضع كل أمرى موضعه الذي لا يخس فيه ولا شطط .. هذه جميعاً من تعاليم الإسلام الأولى . وعليها تمهدت قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأداء النصيحة وحفظ الأمانات ورعاية الحقوق ومنع الإضرار .

ومن ثم كان لابد من المصارحة في وزن الرجال حين يترتب على تقويم أشخاصهم حق عام أو خاص .

فإذا سألك وليُّ الفتاة عن خاطبها فاذكره بما تعرف فيه ، ففي مثل ذلك سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عن معاوية : صعلوك لا مال له .

وإذا سئلت عن مرشح لمنصب ما ، فاذكره بما فيه ، ولا تقل عدل في مستور الحال ولا جيد جدا في إنسان متوسط المواهب مثلاً .

وتعريف الرجال بما أوتوا وبما حرموا ليس أمراً مباحاً فقط ، بل هو من معالم التقوى ما دام القصد ألا ينخدع بهم ساذج ، أو يقع في شراكهم موهوم .

وقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال — في أحد السفهاء — : بُسّ أخو العشرة هو ، وقال : أظن فلانا وفلانا لا يعقلان من أمرنا هذا شيئاً .

ولم تخف على علماء المسلمين هذه الحقيقة ، فقام علم الجرح والتعديل في صميم الثقافة الإسلامية ، يتعرض لأقدار الرجال الذين ينقلون السنن ، فيصف هذا بالصلاح ، وهذا بالفسق ، وهذا باليقظة ، وذاك بالغفلة !

بل إن تاريخ الأمم قاطبة تناول الحكم والقادة ، تناول الناقد المحصص ، فهاجم ودافع ، وعظم وحقر .

والقرآن الكريم ذكر الأمم المفرطة وما أسلفت من سيئات ، وكيف هوت بها مصارعها إلى أسفل سافلين .

والحكمة من هذه السياقات محض العبرة ، تستخلص من وقائع لاتهمة فيها ، وتقدم إلى الأخلاف ، كيما يتعلموا وينتفعوا .

والغرض النشود إحقاق الحق وإبطال الباطل ، بغض النظر عن الأشخاص وشؤونهم الذاتية .

سئلت يوماً عن « فلان » الزعيم الإسلامي الكبير ما رأيك فيه ؟ فقلت : ليس بأديب ولا خطيب ولا فقيه ولا شجاع ولا سياسى

وحظه من كتاب الله وسنة رسول لا يرتفع به عن مستوى العامة .

فقال لى أحد أتباعه : إنك تغتاب المسلمين ! ؟

فقلت : بل أعرف الناس بأقدارهم وأنزلهم حيث يستحقون .

ولو قلت غير هذا لغششت أمة محمد بن عبد الله

إن التزييف في النقود جريمة ، لأنك تروّج النحاس بوصفه ذهباً

وأوغل من ذلك في باب الإجرام أن تروّر في قيم الناس ، فتوهم تاجراً ما أن فلانا

يصلح شريكاً له ، وفلان هذا خائن ، أو توهم جماعة ما أن فلانا يصلح نائباً عنها في أحد

الجالس وفلان هذا أعجز من أن يفوب عن نفسه بله عن غيره

غاية ما يوصى الإسلام به تصحيح النية فإن كلمة التجريح ولو كانت صدقا ، إذا

أملت بها شهوة الولوغ في أعراض البشر والزّراية عليهم فهى عند الله ساقطة داحضة .

أما إذا قصد بها دفع مضرة وحفظ مصلحة فلا حرج على قائلها .

إباحية

إن احتلال الغرب لبلادنا عسكرياً أعقب نتائج بعيدة المدى في أخلاقنا الخاصة وعلاقنا العامة .

ويحزنني أن أعترف بأن الأجيال الجديدة تنبت في مغارس رديئة وبيئات ملوثة وأن الفضائل الشخصية والجنسية تذوب في حرارة الإثم الزاحف كما تذوب كتل الجليد فوق أسنة اللهب . .

كنا ونحن يافعون نعتقد أن النظر إلى مفاتن امرأة ، سيئة تسطر في صحائف الإنسان وتدع في فؤاده نكتة سوداء .

ونعتقد أن الانصال الحرام يسمى « زنا » ، وأن الفحش السكمن فيه لا يقل عن الفحش السكمن في جرائم القتل والشرك وما إليهما .

وكان وازع الإيمان يصون المجتمع من مزالق الفتنة ولا يدع المنكر يظهر إلا شدوذا يتوجس منه صاحبه وتهتز له ضمائر الناس .

أما اليوم فإن النسوة المتبرجات في الطرق يأخذن على المرء كل وجهة .
فإما أن يسير مغمضاً ، وإما أن يفتح عينيه مكرها على العورات المفضحة قد صبت في قوالب تستفز الشهوات استغزازاً .

وإلى جانب هذا السيل القدر تسهم دور اللهو وأصوات الغناء في تأجيج الشر وإيقاظ الأهواء وتيسير الفجور وتسمية السمار الحيواني المتمرد حباً شريفاً أو غير شريف . ثم تعتذر عن هذا السقوط المتتابع بأنه نداء الطبيعة .

والواقع أن عمل الدين في علاج هذا الفساد العريض إذا كان دقائق من الوعظ في محطاة الإداعة أو حصصاً من الدروس التافهة يلقيها التلامذة كارهين ، فإنه عمل لا طائل تحته .

بل إن هذا الصوت الطيب - لو قدرنا أنه خلص واستقام - سيعتبر نشازاً وسط الضجة الهائلة المتواصلة سحابة النهار والليل تصرف الناس عن الله وعن دينه وتجرحهم على اعتداء حدوده وغشيان محارمه . .

وستعبر الصحائف القليلة التي تخدم الإسلام والتي يقرؤها نفر محدود من المتعلمين به لوناً من التفكير الضيق يحيا اليوم لموت غدا ، ويموت معه الآخذون به . . .
إن الغزو الخلفي المقارن للاستعمار الغربي بدأ يؤتى ثماره المُرّة في تمزيق أمتنا وفض تقاليدها واهلاك آدابها .

والأمراض النفسية التي تصحب هذا التحلل أسرع فتسكا بنا من الغربيين أنفسهم فإن انتشار الشهوات في الغرب جاء بعد ازدهار الحضارة والمعرفة ، وبعد أن نال الفرد حظوظا كبيرة من الفهم لمصلحته ومصلحة أُمته .

فهم يقبلون على العمل وعلى اللهو معا .
ويبنون المصنع الفذ والمسرح العايب ، ويقسمون أوقاتهم على هذا وذاك بحكمة أو نزق . .

أما نحن فقد اندفعنا إلى تقليد الغرب في ناحيته الماجنة قبل ناحيته الجادة .
فلما مرت في بلادنا جرائم الفسق لم تجد مناعة تسكس ضراوتها ، فكان هذا الفساد العريض .

وعادت إلى الأذهان قصة الحمار حامل الإسفنج عندما تبع زميله حامل الملح وقد اعترضهما مجرى ماء فخرج هذا متخففا وذاك موقرا .

منذ أيام شغلتنا إحدى الصحف بقصة مدرسة اختفت أياما مع عشيقها ثم ظهرت لتجد صورتها مطبوعة براها أهل الأرض فلا يطالعون في ملاحظها ولا في النبأ المثير الذي كتب معها إلا شيئا تعودوه فتركوه يمر بلا نكير .

هذه المدرسة هي التي وكلت إليها وزارة المعارف تعليم بناتنا الصغار وتنشئتهن لا أدري على ماذا ؟

هل فكر أحد في المطالبة بطردها من ميدان التدريس أم ستشترك مع مثيلاتها من النسوة العابثات والرجال الفاسدين لقيادة البلاد إلى الخراب والفوضى . ؟

ثم أين الأتقياء العاطفون على دينهم الحراص على استنقاذه مما عراه ؟

أما لهم من جهد يوقفون به هذا السيل قبل أن يتحول طوفانا مدمراً ؟

أما يتجمعون لمدارسة الوسائل التي تحد من خطره وتخفف من ويله ؟
إن النسكبة — عندى — لا تتمثل فى وقوع هذه الفواحش قدر ما تتمثل فى
بلادة الشعور بها وقلة الاكتراث بمحاربتها .

ولا أدرى ماذا يتمخض عنه هذا البلاء من ظلام يحيق بمستقبل الإسلام فى
بلاده لافى حكمها بل فى خلقها . ؟

والغريب أن ناسا ممن كانوا يحيون قدوة فى الدين أضحوا يحيون غير مكترئين
لهذا العيب فنههم من يقضى الصيف بين السابحات الفاتفات ، ومنهم من يدع صور
محارمه ، فى الأحفال الساهرة تنشر ، فيراها هذا ، ويراهها ذاك . .
إن مستقبل الإسلام يفرض على حراس الشرف والعفاف أن يتيقظوا للنوازل
السود التى دهمتنا فعرضت أعراضنا للذئاب والكلاب .

هل الصراحة الجنسية تغني الدعارة ؟

قرأت مع ألف القراء تلك الرسالة التي نشرتها « الأهرام » للدكتور مصطفى الديواني يتساءل فيها مستنكراً « . . لماذا لا نراجع أنفسنا وقوانيننا في حدود التطور العالمي الخلق ؟ فللشباب ثورته ، ولا مفر من مهادنته بطرق محتشمة حتى يزهد في المرأة عند ما يراها في متناول يده ! »

والدكتور يقول ذلك بعد أن يعلن رضاه عن الحال التي وصل إليها « الغرب » من ناحية العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة فيعرض علينا المشاهد التي راقته « . . . نظرت من نافذتي وأنا أكتب هذا فرأيت أجمل « السويسريات » يمشين في الشوارع دون أن يلتفت إليهن شاب أو يما كسهن فتى رقيق ، وتذكرت كيف ذهبت أمس إلى مسرح « باتا كلان » — الذي تقصده أرق طبقات « جنيف » — وكيف صُدمنا — نحن المصريين — في بداية الاستعراض ، إذ وجدنا الراقصات عرايا تماماً لإلّا من ورقة توت صغيرة ، ثم لم نلبث أن اعتدنا العري والجمال بعد الدقائق الخمس وأصبحنا ننظر إلى الاستعراض ، على أنه قطعة من روائع الفن العالمي ! .

ثم تذكرت « باريس » وكيف أبيضحت فيها الدعارة سراً وعلناً ، وإيطاليا وكيف نظمت الدعارة فيها بشكل محتشم « ! » غامض ، وإنجلترا العجوز وكيف أباحت الحرية الشخصية في حدود القبلات والمقابلات في الحدائق العامة .

تذكرت هذا كله ثم قلت لنفسى : هل حالت الصراحة الجنسية دون تقدم هذه الأم ؟ »

وأخيراً يعلن الدكتور حكمه على الطريقة التي تعالج بها الشئون الجنسية هنا وهناك فيقول : « إن آفة الشرق كذب في رياء .

وتعلق بالقشور دون جوهر الأشياء .

الغربي يقابل الداء صريحاً ويكافحه صريحاً .

والشرقي يحاور ويداور حتى يسقط في الميدان صريعاً أو جريحاً . .

ثم يختم الدكتور رسالته بهذا الدعاء الصالح ! « اللهم ألهمنا الصواب فأنت خير العالمين » . .

كاتب هذه الرسالة مثل صادق للجيل الذى يرمى حضارة الغرب بإعجاب وإعزاز ، ويتقبل تقاليده فى نواحى شتى ، لافى الناحية الجنسية وحدها ، تقبل الفاقه المقتنع ! أو تقبل التابع المسحور .

ويؤسفنى أن أذكر أن هذه التقاليد الوافدة علينا من بعيد .
تكسح فى بطن ، مختلف السدود التى أقيمت فى وجهها .

وأن أمورنا العامة إذا ظلت سائرة فى الطريق التى اندفعت إليها من ثلث قرن
فهى لا بد منتهية إلى الوضع الذى يقترحه الدكتور المعجب بالأجساد العارية
تكسوها — أو تكسو جزءا منها — ورقة توت ..

أو المعجب بالبغاء المباح يقدم للشهوات المسعورة ما يطغى لوعتها . . !
أجل فهناك حداثة للإثم كثير .

وعلى لحنهم الصياح المتنازع أخذ مجتمعنا الضعيف يهفو إلى الشر ويتطلع إليه بنهم .
ومن آثارهم أن أزقة المدن الكبرى والصغرى تبيع بجهاير من النساء يرتدين
ملابس قد فصلت لغرض واحد هو استثارة الغرائز الدنيا وإيقاظ ما نام منها .
فكأنها وقد أبرزت الأنداء ولفت الأدبار وعرت النحور والسيقان تقول
للشباب الجائع : هيت لك !

وكاتب الرسالة الآفة لم يجز فى باله أن يستفتى الإسلام فى شىء مما اقترح
وما أظن أنه استفتى الإسلام فى مسألة نافهة أو جلييلة عرضت له ، بل ما أظنه يهتم
لأن الإسلام يقبل أو يرفض بعض ما يفكر فيه .

إنه — كهذا الجيل الذى صنعه الغزو الثقافى — يحمل اسما مسلما وليس له قلب
مسلم ولا عقل مسلم . ومن ثم فلا مكان فى حياته لصلاة أو صيام أو جهاد أو غيره .
والغزو الثقافى فى الغارة التى شنتها أوربا على بلاد الإسلام يقوم على تجهيل المسلمين
فى دينهم وشحن أذهانهم بمعارف محدودة ثم ترك أفئدتهم هواء !

وليت الأمم المقهورة — إذا أعجبت بالمنتصرين — تقلدهم فى فضائل القوة
وعناصر الغلب

إننى أفهم أن يغبط المصدور الضعيف عملاقاً سليم الرئتين عريض المناكب

وأن يتمنى لو كان مثله ! أما أن يكون هذا العملاق مولعاً بالتدخين فلا يجد هذا
المسلول العليل ما يزدهيه في حياة صاحبه إلا الدخان يتغزل في سجائره ولفافاته
فهذه هي الطامة التي — لاشك — مودية بحياته .

لقد تركت الخرطوم من بضعة شهور وإحدى شركات الخمر تبني فيها مصنعاً
هائلاً للبيرة !

وهكذا نسارع إلى إنتاج اللهو والمجون قبل إنتاج الخير والقوة وحجتنا أن
« أوروبا » لا يخلو بيت فيها من خمر .

والفرق الذي جهلناه أو تجاهلناه ، أن مصنع الخمر في أوروبا أنشئ بعد أن أسست
آلاف المصانع للإنشاء الضخم في السلم والحرب . .

أما نحن فقبل أن ننشئ في عاصمة السودان شيئاً طائلاً نسمح ببناء هذا الخبث ! .
واذكر إنني قرأت في المكان نفسه الذي نشرت فيه رسالة الدكتور مصطفى
شكاة حارة لمواطن كادت العلل تفتك بابنته فلما عزّ شفاؤها بمصر ارتحل إلى
« أوروبا » حيث أمكن تشخيص الداء ووصف الدواء في أسابيع . .

ونعى الكاتب على أطبائنا تخلفهم في مضار سبق فيه أطباء الغرب سبقاً بعيداً . .
ووددت لو أن الدكتور — كاتب رسالة العرى والفن — استفاد من سويسرا
ما يزيد علمه بصناعة الطب بدل أن يقحم نفسه في أمور لا يحسن منها قليلاً
ولا كثيراً . . .

ولندع كاتب الرسالة ولنعد إلى موضوعها .
إن الإسلام حين حرم جعل فيما أحل غنية عن كل محذور .
حين حرم لحم الخنزير لم يكتب على الناس أن يقرموا إلى أكل اللحم فليهم
في لحوم الضأن والطيور والإبل والبقر ما يسد شهوتهم أو يزيد . .
وحين حرم شرب الخمر لم يسلمهم إلى الظمأ ، فعندهم من أثرية الليمون والبرتقال
والفواكه المختلفة ما يروون به ويستمتعون .

وعند ما حرم الربا أباح البيع . .

وعند ما حرم الزنا أباح الزواج .

إن محمد بن عبد الله جاء إلى الناس كما قال الله « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحِلُّ لهم الطيبات ويحرمُ عليهم الخبائث . . . » .
فتماليم الإسلام متكاملة لا يغنى أمر عن نهى ، ولا تصلح أمة بانفاذ وصية من وصاياه وإهمال أخرى ، بل لابد لإدراك رضوان الله في الدنيا والآخرة ، من انفاذ وصاياه كلها . . .

والدعاة الذين يحسنون ذكر المحرمات ، دون أن يذكروا الموض الذي شرعه الله ليسد مكانها أناس فاشلون . . .

وقد اتسمت حاجات المجتمع وتشعبت أفضيته وأمسى لزماً على من يتصدى لخدمة هذا الدين أن يذكر ما يثبتته قبل أن يذكر ما يحجوه .

وأن يظهر قدرته على البناء قبل أن يظهر قدرته على الهدم .

فإن السلبية في مواجهة المشكلات تبقئها ولا تزيلها . . .

إنك إذا لم تقم نظام التأمين الاجتماعي — كما يطلبه الإسلام — فسوف تبقى منطقة فراغ لا يملؤها غير شركات التأمين .

وإذا عسرت الاتصال الجنسي الحلال في الوقت الذي تقول فيه بجحمة الزنا فأنت تتيح للسكبت والتزوير والشذوذ طرائق ممهدة . . .

والناظر إلى العلاقات الجنسية في عصرنا يرى أن المسلمين لم يضعوها أيَّ حلٍّ .
هم يقررون أن الزنا حرام .

بيد أنهم رسموا تقاليد الزواج تجعله مستحيلاً ، إلا بعد بضعة عشر عاماً على نضج الفرزة الجنسية . فكيف يقضى الشباب هذه الفترة ؟

إن الآباء والمدرسين والوعاظ يفرون من هذه الإجابة المريعة لأنهم يعلمون أنها فترة ظلم أو ظلام عند كثير من الفتيان .

أما أوربا فخلت العقدة بإباحة الدعارة ، وإطلاق الحيوانات النابحة في دماء البشر تلغ وتعض كيف شاءت . . .

وأما أسلافنا الأول فقد بسروا الزواج وبنوا نظام الجماعة على مواجهة الحقائق الجنسية دون موارد .

وأما نحن — فكما علمت — بعضنا مصرٌّ على احترام دين الله واعتبار الزنا فاحشة

ومقتاً ، وقد استطاع هذا الفريق تحريم البغاء العلني أو حمل الحكومة على تحريمه ولا يزال يقاوم ضراوة الغريزة المحتاجة ويحارب الكتاب الفسقة ويوصد أبواب الخلاعة التي تفتتح هنا وهناك . . .

إلا أنه يحارب في ظروف عاتية ويلقى أشد العنت من أعدائه وأقل العون من أنصاره . .

أما البعض الآخر فهو يجهر دون حياء بإباحة الفسق أو ما يسميه الدكتور مصطفى (!) بالبغاء المحتشم . . !

فهل تيسير الدعارة وجعل المرأة في متناول اليد هو الحل الصحيح أو العلاج الصريح لتأعبنا الجنسية ؟

وهل الغرب أذكى من الشرق لأنه انتهى إلى ذلك المصير ؟

دهل هذه هي الصراحة الجنسية المنشودة ؟

وإذا كنا نستريح إلى هذه النهاية فلماذا لا نعدُّ الاختطاف والاختلاس

وظائف محترمة لكسب العيش وجمع المال الحلال ؟

إنني لا أسأل أحداً من دعاة البغاء : هل يجب أن يقدم أخته لتلميذ فائر الشهوة

أو زوجته لرقيق يما كس النساء حتى يمنعه من ذلك الصنيع ؟ أو يجب أن يرى ابنته

ترقص عارية إلا من ورقة توت أمام الأعين الساهرة والحالمة ؟ إنني لا أسأل أحداً

من دعاة البغاء هذا السؤال لأنني أتوجس أن تكون الإجابة : نعم . أقبل !

فإن الضمير الذي يلحُّ بضرورة إشاعة الفاحشة في الناس لا يتحرج من إشاعتها

في بيته وبين أهله وعشيرته .

ولكنني أسأل أهل الأرض : أليس لهم رب يرجون ثوابه ويخشون عقابه ؟

أليس لهم دين يُحلبون حلاله ويحرمون حرامه ؟ إن الزنا وما يؤدي إليه منكر قبيح

في ديانات موسى وعيسى ومحمد جميعاً .

فكيف يطلب منا أن نرخص له ونهش لمراء ؟ إن الصراحة الجنسية غير

الدعارة الجنسية .

الصراحة الحميدة أن نبحث عن الموانئ الموضوعة أمام الحلال لنزيحها

وأن نستعرض العقد التي تواجه الشباب فنحلها .
وإذا تهرب من أمور يعتبر التهرب منها تمكيناً للرزيلة وتجاهلاً للحبائل التي
نصبها الشيطان في طريق الإنسان . .
إن في دين الله حلولاً سمحة للمشكلات التي يُظن بادی الرأي أنه لا حلَّ لها
إلا بالمرق والفسوق .
وأستطيع أن أجزم بأن السلف الصالح لم يتعرضوا - لا شيوفاً ولا شباناً -
للأزمات العصبية والنفسية التي يسقط في مخالها جمهور غفير من شباننا
المحافظين والمنحليين . .
ذلك أننا لم نحسن صياغة أوضاعنا في القوالب التي ارتضاها الإسلام جعل
ما سواها إفراطاً أو تفريطاً .

إن الكُتَّاب الذين يتملَّقون الفراز الدنيا على هذا النحو ، لا يُعالِجون عِلَلنا
إلا كما يعالج السَّكَّير بلاءه بقوله : وداوني بالتي كانت هي الداء . . ! !
سنستريح من بلائنا يوم يفوق هذا من نشوته أو من غشيته .
وخير لنا أن نستعيد ثقتنا في أحكام الشرائع ، وقيم الأخلاق .
فهما اصطنعنا الحضارة بالتحلل فلن نزداد إلا انتكاساً .

وفاق وخلاف

طالباً تساءلت عن موقف الكنيسة من طوفان التحلل والفسق الذى سرى إلى العالم ممزوجاً بمحضرة «أوربا» ! ونضح علينا بحكم التفوق المادى الذى ساند الغرب ورجح كفته فى كل ناحية .

إن الإنجيل غالى بفضائل المغاف والطهر ، وحسم دوافع الجريمة ومفاتيح الغريزة وفى إنجيل « متى » أن العينين إذا أزلتا الإنسان فهما جديرتان أن تفتقا .
إن تلف عضو واحد أيسر من هلاك المرء كله .

وعيسى بن مريم — كاخوته من أنبياء الله — غيور على حرمة الله أن تنتهك ، وعلى أعراض عباده أن تهان وتداس ! .

فأهذا الرجس الذى عم وطم وانفجرت عيونه الجمثة بين شعوب أوربا وأمريكا ، ثم منها إلى أقطار العالمين ؟ .

وفما أنا حابس نفسى على نقد واستنكار لهذا الصمت المريب ، إذا بى أقرأ نداء حسنا . « بابا روما » وجهه إلى النصارى الكاثوليك جاء فيه :

... إن ملابس السيدات أضحت مأساة خلقية يندى لها الجبين ، وإن محاربة هذه الخلاعة هى إحدى بنود الإصلاح الذى يعمزمه « البابا » .

واستطرد النداء يقول : « إن العرى لم يعد مقصوراً على ملابس الشاطئ بل ساد الأماكن العامة والخاصة ، حتى الكنائس ودور العبادة أمست مليئة بالمرأة .

ويسير علينا أن نتصور مدى الفساد الذى ينتج عن ذلك ، وخاصة بين طوائف الشباب » .

وأشار « البابا » إلى جهود الكتاب الأوائل أمثال « شيشرون » و « وسينكا » فى الدعوة إلى الاحتشام وارتداء الجلابيب . وبين أن الجسد الإنسانى ينبغى أن يحاط بسياج من فضائل العفة وآداب السلوك ، وحض رجال الدين — فى كل مكان — على الدعوة إلى ذلك والدأب على تحذير الأطفال والشباب من تقاليد العرى التى تتجدد كل عام فى فصل الصيف ، وتبصيرهم بمواقب هذا الاستهتار فى أنفسهم ومجتمعهم .

وختم « البابا » نداه بأن هذه الحرب الشعواء على « مودات » الخلاعة جزء أصيل من رسالة الكنيسة » .

سرّنى هذا الوعظ الحكيم ، ورأيت فيه غيرة محمودة على فضائل توشك أن تندثر في أنحاء العالم . إن البنات في أى بلد كدن يحسبن عملهن الأول إبراز محاسنهن لاجتذاب الرجال ، ووظيفة الملابس الأولى — عندهن — أن تكون إطاراً لما يراد تعريته ، وستاراً خادعاً لما تحسن تغطيته .

وقد انطلق مرده الإنس والجن في سباق فاجر لا يتكار ألوان من الملابس المختلفة تلتقى كلها عند غاية واحدة ، هى تجسيم مفاتن المرأة طولا وعرضاً ، حتى تحظى بنظرة خبيثة أو اشتهاى حرام .

والإحصاء الثابت فى أغلب أقطار العالم عن الأمراض السرية والنفسية ، وعلل الشذوذ والانحراف ، وعن اختفاء « البكارة » فى فتيات بعض الأمم ، يدل على شناعة الحراب الأدبى الذى انتهت إليه الدنيا ، ونالت به سخط الله .

والقوادون من الرجال هم الذين يزينون هذا العهر ليجعلوا الفتك بالمرأة عُملةً متداولة لا يَحْتَشِيها أحد ولا تحذر مغبتها امرأة .

ومن المصائب السود أن ترى إعلانات « السينما » صوراً داعرة لرجال احتضنوا نسوة فى أوضاع تسرق ألباب المراهقين .

وقد رأيت — منذ أيام — امرأة معها أطفالها قد وقفت تتأمل — فى دهشه — منظر فتاة مستلقية ، قد جثم عليها كلب من نجوم السينما — لا تدرى أو تدرى — ما يفعل بها .

التقطت هذه الصورة ثم ألصقت على جدران القاهرة إغراء بحضور رواية من الروايات الخليعة !

ويبدو أن منظر الأم وأطفالها أمام هذه الصورة المزرية قد آذى مشاعر أحد الإخوان السائرين معى .

ولعله سبى بفسكره بعيداً ، إذ قال لى : ربما كانت تلك الأم أرملة وهؤلاء يتاماها . إن هذه المسكينة تحيا فى مجتمع ، يحث على السقوط ! ولنعمد إلى حديث « بابا روما » .

وددت لو أن رجال الكنيسة في الشرق — على اختلاف مذاهبهم — أيدوا هذه الصيحة وأكدوا ما تضمنته من دلالات طيبة ، حتى يشعر المارقون من الفضائل أنهم خارجون على كل دين .

وإن بهيميتهم تلك منكر لا يرضاه أحد ممن يتصلون بالسماء مهما كانت طبيعة هذه الصلة .

إن في أسفار العهد القديم والجديد نصوصا شتى تحارب الفاحشين وتطارد وساوس الهوى لتقضي عليها ، وواجب على آباء المكفائس أن يقيموا تعاليم دينهم في هذه الناحية ، وأن يتعاونوا معنا في حفظ تقاليد الشرف وحدود الفضيلة .

لقد جاء في (العهد القديم) .

خروج ٢٠ : ١٤ ، ١٧ (من الوصايا العشر) .

« لا تزني » . « لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته » .

وجاء في (العهد الجديد) .

متى ص ٥ : ٢٧ (من عظة المسيح على الجبل) .

« قد سمعتم أنه قيل للقديماء لا تزنوا . وأما أنا فأقول لكم : إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتتها فقد زنى بها في قلبه » .

وفي كورنثوس الأولى ٦ : ١٨ .

« اهربوا من الزنى . كل خطيئة يفعلها الإنسان هي خارجة عن الجسد لكن الذي يزني يخطئ إلى جسده » .

وفي كورنثوس الأولى ٥ : ٩

« كتبت إليكم في الرسالة أن لا تخاطبوا الزناة » .

وفي كورنثوس الأولى ٦ : ٩

« لا تضلوا ... إنه لا زناة ولا عبدة أوثان ولا فاسقون ولا مأبونون ولا مضاجعو

ذكور ، ولا سارقون ولا طماعون ولا سكيرون ولا شتامون ولا خاطفون ، يرثون ملكوت الله » .

وفي كورنثوس الأولى ١٠ : ٨

« ولا تنووا كما زنى أناس منهم (بنى اسرائيل) فسقط في يوم واحد ثلاثة وعشرون ألفاً » .

وجاء في تحریم الخمر .

أمثال ٢٣ : ٢٩ — ٣٢ .

« لمن الويل ؟ لمن الشقاوة ؟ لمن المخاصمات ؟ لمن الكرب ؟ لمن الجروح بلا سبب ؟ لمن ازمهرار العينين ؟ للذين يدمنون الخمر الذين يدخلون في طلب الشراب المعزوج . لا تنظر إلى الخمر إذا احمرت حين يظهر خبابها في الكأس ، وساعت مرقرة في الآخرة تلسع كالحية وتلدغ كالأفعوان » .

(العهد الجديد) .

أنس ص ٥ : ١٨ .

« لا تسكروا بالخمر التي فيها الخلاعة » :

لو أن الكنيسة المسيحية — على اختلاف مذاهبها — جدّت في الحملة على الفسوق لكفكت من حدة المعاصي في حضارة أوربا . ولأعانتنا — نحن كذلك — على تجنب ألوف الشباب المفتونين بها مهاوى الرجس التي ينزلون إليها ويستمرّون فيها .

إن الملابس المتحشمة تهدي إليها الطبائع النظيفّة ولو لم ترد بوصفها نصوص مفصلة .

وقد زكيت — في كتاب لي — ملابس الراهبات النصرانيات ، وأشدت بالنسب القريب بينها وبين ملابس السيدات الريفيات في بلادنا . وهذه الملابس وتلك بقايا فاضلة من تقاليد الدين الحق .

ماذا ينقم الفساق من الملابس الطويلة ؟ ينقمون أنها تحجب عنهم ما يهيج الحيوان الرابض في دماهم ؟

إن الحفاظ على قوى الأمم السادية والروحية يوجب على الحكومات اليقظة أن تعنى بهذا الأمر . . .

ولقد كتب رجل أجنبي إلى « الأهرام » يقول : إن محافظة حكومة موسوليني على الآداب العامة بلغت في هذه الناحية حداً أنها أصدرت قانوناً حددت فيه ما يجب أن يكون عليه طول الثياب التي ترتديها المرأة — وهي خارج دارها — وصدرت الأوامر إلى رجال البوليس ، كي ينفذوا — بدقة بالغة — تعليمات القانون .

فكان يقع كثيراً أن يستوقفوا بعض النسوة لقياس ملابسهن عند ما يشتبهون في قصرها عن الطول المقرر .

وقرأت كذلك في الصحف أنه :

- قامت في أسبانيا حملة أخلاقية يترجمها الأساقفة الكاثوليك تدعو إلى :
- ١ — الامتناع عن مشاهدة الأفلام أو ارتياد المسارح المحلة بالآداب العامة .
 - ٢ — عدم ارتداء المايوهات أو الملابس الرياضية العادية .
 - ٣ — عدم ارتياد حمامات السباحة التي تجمع بين الجنسين .
 - ٤ — الابتعاد عن أماكن الرقص ، حيث لا تراعى الأخلاق العامة .
 - ٥ — عدم قراءة الكتب التي تحوى ما يخالف التعاليم الكاثوليكية .
 - ٦ — عدم استعمال الألفاظ النابية أو البذيئة في المعاملات الشخصية .
 - ٧ — عدم التفاضى عما يرتكب من أعمال تنهك حرمة الأخلاق العامة .
- هذا في أسبانيا ، حيث لا يكون احترام الدين سبباً في الاتهام بالتأخر والعودة إلى الوراء .

ونحن نرجو من شبابنا الذين يُقلِّدون أوروبا ومن فتياننا اللاتي يحاكين أزياءها وسلوكها ولهوها ولعبها أن يروا في هذه التقاليد الأسبانية الجديدة ما يستحق النظر أو ما يحسن تقليده دون التوجس من اتهام بتأخر أو رجعية .

والغريب أنى عند ما طويت الصحيفة بعد مطالعة هذا النبأ تناولت جريدة الأخبار لأقرأ فيها ما يكتبه الأستاذ زكى عبد القادر « نحو النور » فوقعت عيناي على الفقرة الأخيرة من كلمته « وهذا صعيدى من الأقصر هاله أن يرى رجلاً أجنبياً يخاصر فتاة في منظر مخجل أشد الخجل ، وفي الطريق العام ! فاستعاذ بالله وأدار وجهه ناحية اليمين فإذا به أمام منظر ثان ثم ثالث . ورابع . . .

عدد من السائحين كل منهم يمثل دور « روميو وجوليت » جهرة ، والذي أزعجه أكثر وأكثر أنه لفت نظر الشرطي الحارس ، فكان جوابه أنه لا يتدخل فيما لا يعنيه ما دام الأمن في سلام .

أجل أن قصور القانون عندنا سمح بمخازي شتى ولتتنا نفذ قوانين «موسوليني» في رعاية الفضيلة إن عز علينا إقامتها باسم الإسلام . . .

والخلاعة العالمية هي بعض مانؤيد الكنيسة في محاربته ونسر لما بدا من حملتها وتيقظها .

إن الإسلام أخذ أهل الكتاب الأولين بأنهم مفرطون فيما لديهم من نصوص لا يبالون أن يواقعوا الحرام في ما كلهم ومنكحهم . ولا يصدون نوازع الهوى يوم تغريهم بمدوان أو اختلاس . فقال عز وجل « ترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والمدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون . لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون » .

فالرعية مؤاخذه بما اجترحت ، والأحبار والرهبان مؤاخذون بما سكتوا . وإن لم يتدنوا إلى قول إثم ، أو أكل سحت .

وهذه الأحكام التي اتفقت فيها الأديان كلها واطردت في تبيانها وتوكيدها الكتب الثلاثة في الديانات الكبرى «التوراة» و«الإنجيل» و«القرآن» لا بد من إقامتها حتى تصح نسبة الأمم إلى كتبها ونسبة الأديان إلى السماء . وإلا فالأمر كله لغو وادعاء . وذلك معنى قوله تعالى « قُلْ : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » .

مثل هذا الإنذار يوجه إلينا نحن المسلمين كذلك فلسنا على شيء حتى نقيم ما أنزل إلينا من ربنا . . !

ونحن نفرح أشد الفرح يوم تفلح الكنيسة في القضاء على الخلاعة ويوم يستجيب النصراري في أوروبا للنداء الجليل الذي وجهه إليهم « البابا » الأكبر ، ذلك لأن الميوعة في بلادنا رشح الفيضان الموار الذي تضطرب به حضارة الغرب وهو رشح نعترف بضعفنا الشنيع في ردم مصادره والتغلب عليه .

وثمَّ عَنصر آخر في رسالة المسيح عيسى بن مريم ، نود لو اهتمَّ آباء الكنيسة العظام بإبرازه وأخذ شعوبهم به ، فإنَّ خاصمة البغى ليست أقلَّ شأنًا من خاصمة البغاء ورسالة البابا ضد العرى جميلة حقًا ، وأجل منها لو وجه نداء آخر معها يحث الدول المستعمرة على نبذ سياستها القديعة في السلب والنهب ويوصيها بترك الأمم المستضعفة تجدد حياتها وتبنى كيائها بدل التسلط عليها بالجبروت واستنزاف دماءها بالهجوم إثر الهجوم .

إن فرنسا أم الخلاعة في عصرنا وهي كذلك ، أم الكبائر في ميدان الاستعمار . والمجازر التي تصنعها في المغرب الأقصى لا تحف ، وفي فزعة العدوان ورهبة الأسى ، أرسل رؤساء الأحزاب في مرا كش المذبذبة إلى « البابا » يستنجدون به . فإن فرنسا ابنة الكنيسة الكاثوليكية المكر . ولو أن نداء إلى شعبها وحكامها أردف به « البابا » نداء في محاربة العرى لكان لذلك وقع في نفوسنا عظيم . أجل ، ولو عصاه الفرنسيون ! فإن إنقاذ الأديان من تهمة التواطؤ مع الجبارة والسفاكين أكبر لدينا من أى نتيجة أخرى .

جاء في نص البرقية المرسلة إلى « قداسة البابا » و « فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر » طلب بالتوسط إلى فرنسا لوقف العدوان على علماء المغرب المسلمين . والطلب بالنسبة إلى شيخ الأزهر تذكير بما يلقاه إخوانه في ميدان الجهاد من قسوة الأقوياء العادين .

وهو بالنسبة إلى « بابا روما » تذكير بما يفعل أشياعه دون أن يسمعوها نكيراً أو يخشوا عقبي .

إننا نريد أن نسمع نداء في محاربة البغى كما سمعنا في محاربة البغاء . وقبل ذلك سيكون الحديث عن التعاون بين المسيحية والإسلام لونا من الضحك على الدُّقُون إن لم يكن عملاً مقصوداً لتنويم المجاهدين ثم تمويت نشاطهم . ولا بأس من أن أثبت هنا رداً مبيناً لكبير من رجالات الإسلام سئل : كيف يتم التقارب بين الإسلام والمسيحية على مقاومة النظم والنظريات المادية التي تهدد حضارة الجنس البشرى ؟

فأجاب : هنا أمران يجب التنبيه لهما وإعطاؤهما حظهما من العناية والتقدير .

أولهما : ألا تنظر الكنيسة الغربية إلى الإسلام كما تنظر إلى العدو البغيض الذي يجب التخلص منه فإن ، مثل هذه النظرة تضر الإسلام والمسيحية جميعا وتفسح الطريق أمام الإلحاد ليهدم الديانتين معا . ولهذا يجب أن يكف المتعصبون من أهل الغرب عن المفتريات التي يلصقونها بالإسلام وينالون بها من جلاله وقديسيته في أنفس المسلمين ويحاولون بها أن يخرجوا المسلمين بالترغيب والترهيب عن دينهم .

وإني لوائق من أن المسلم الذي يخرج عن دينه — بدافع الرغبة أو الرهبة — إنما يخرج عن الدين نفسه . فلا يكون مسلما ولا يكون مسيحيا .

ومعنى ذلك أن هؤلاء المتعصبين يقومون بعملية هدم خطيرة لن تستفيد المسيحية منها شيئا . إنما تستفيد منها مذاهب التحلل والإلحاد وحدها .

الثاني : ألا تنظر الدول المعترفة بالكنيسة إلى بلاد المسلمين نظرتها إلى البقرة الحلوب تسخرها وتسوقها إلى الخضوع والاستعباد . وإن أخشى ما أخشاه أن يوازن المسلمون — مضطرين — بين المعسكر المادى الذى لا يعترف بالدين ، وبين المعسكر المادى الآخر الذى يعترف بالدين ، ثم يرون أن معسكر الكنيسة يحتل بلادهم ويمتدى على مقدساتهم وينظر إليهم على أنهم عبيد مسخرون ، فلا يجدون فائدة من التعاون معه والاطمئنان إليه .

وعند ذلك يفقدون الأمل ، ويطوف بهم طائف اليأس ، فيهتفون هتاف الوحش الذى أخذت عليه سبل النجاة : علىّ وعلى أعدائى .

هذا كلام صادق فى تصوير العلاقات بين الإسلام والنصرانية ، وبين الأمم التى تعتنق الديانتين الكبيرتين .

وسرى ما يصنعه العقلاء فى محاربة البغى والبغاء .

وعلى ضوئه يكون الغدا القريب والبعيد .

تذكر...

التعليم شفاء الجهالة ، والتذكير دواء النسيان .
وهناك حقائق كثيرة هُدى إليها الإنسان ولم يكن من قبل يعرفها .
وحقائق أخرى كانت نفسه مستعدة لها أو ملهمة بأطراف منها ثم — لأمر ما —
غابت عنه وذهل عنها . فإذا أعيدت عليه ، تعلق فكره بها ، كما يتعلق فكرك بوجه
رجل برز إليك فجأة ، وكنت قد رأيته من بضع سنين ، فأنت تشق حجب الماضي
الملتفة بذكرك حتى تستبين الملامح الأولى ، وتربط بين ذكريات الأمس المدبر
وصفحة اليوم الجديد . . .

الحقائق الكبرى في دين الله من هذا القبيل .
توحيد الله ، اللجأ إليه في الشدائد ، الإحساس بالعودة إليه ، إن قريبا ، وإن بعيدا .
احترام الفضائل وأهلها ، الاشتراز من الرذائل ومقترفيها النشوة من انتصار الحق
وإقرار العدالة . . . الخ

إن هذا كله مغروس في الفطر السليمة ، لا تدهش له إذا سمعت به . ولا تستغربه
إذا اقتيدت إليه ؛ بل نحس كأنها تسير في طريق لها به عهد ، وبينها وبينه أواصر شداد .
ومن هنا سمي الله القرآن الكريم ذكرا ، لأنه يجيء بتعاليم جديدة على الفطرة
الأصيلة تعد معرفتها علما بعد جهل مطبق ، لا ، إنها تذكير للعقل بما لا يليق أن
يعزب عنه ، تذكير للضمير بما ينتظر أن يحكم به ، تذكير للمرء بما ضيه الأول ونسبه
العريق وصلته الموثقة بمن أحياه واستيقاه إلى أجل مسمى . .

وقد اطرّد استعمال هذا اللفظ في القرآن الكريم في مناسبات شتى .
« مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى : إِلَّا تَذَكُّرٌ لِمَنْ يَخْشَى » « وَكَذَلِكَ
أُنزِلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ
ذِكْرًا » « وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ » .
« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »
« كَلَّا إِنَّهَا تَذَكُّرٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرَهُ » .

« إنما أنت مذكّرٌ لست عليهم بمسيطرٍ » .

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

« فلما نسوا ما ذُكِّروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء » .

« فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهنٍ ولا مجنونٍ » .

« فتولّ عنهم فما أنت بملومٍ وذكّرٌ فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

والآيات التي تخبرت هذا التعبير كثيرة ، وهي كلها تشير إلى أن قضايا الإيمان والبعث والجزاء ليست غريبة على نفس الإنسان ، وأن الذين جاءوا بها لم يكتشفوا المجهل المنكورة ، أو يبدعوا ما يضيق به أو لو النهى .

الحق أن الوحي الأعلى جاء منظماً لقوى موجودة ، أو موجّهاً لمواهب قائمة ، أو محرّكاً لأجهزة معطلة

فإذا حدث — لأمر ما — أن اختفت هذه الأسس العتيدة فإن يكون للدين عمل ، إذ ما يصنع البناء وقد فقد اللبنة التي يرضها والأرض التي يشيد عليها ؟ إن عمل الدين إيقاظ قلوب غفت ، ودفع أفكار توقفت .

فإذا مات القلب وهمد الفكر ، فقيم العمل ؟

قد يوقظ الطبل النيام إذا غفوا فمن لك بالطبل الذي يوقظ الموتى ؟

إن الإيمان بالقيمة الدائمة للإنسان نفسه جزء من الإدراك الصحيح لرسالة الدين ، لا يصح أن يغيب عن داعية حسيّ . .

على أن القلوب أوعية متفاوتة جداً . . .

ورؤيتها للحق التي تذكّره ، واستفادتها منه ، أمر لا يعلم مداه إلا الله . . .

أرأيت هذه العيون الشاخصة في وجوه أصحابها ؟ إن في بعضها قصورا لا يكمله إلا منظار طبيّ معين . وهذه العيون الضعيفة ، وما يكملها من عدسات قد لا تلمح من الشخصوس والمسافات ما يلحجه بصر حاد بأصل الحلقة يستجلى المراثيات الدقيقة دون وساطة ودون إعياء . . .

كذلك القلوب !! إن بعضها - من غير دراسة طويلة - يدرك من حقائق الوجود أقصاها وأخفاها .

وبعضها - على طول الدراسة - لا يكاد يعي .

إن المطر ينزل من السماء فتمتلئ به الأواني القافهة وتموج به الأنهار والبحيرات . .

كذلك الوحي النازل من السماء ، يتحول منابع جياشة بالرى في قلوب ، ورغوة زائلة في أخرى .

وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة « أنزل من السماء ماءً فسالت أوديةً بقدرها . فاحتمل السيلُ زبداً رابياً . ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حليةٍ أو متاعٍ زبد مثله . كذلك يضربُ اللهُ الحقَّ والباطلَ . فأما الزبدُ فيذهبُ جفاءً . وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ . كذلك يضربُ اللهُ الأمثالَ » .

إن القرآن لا يزال بين أظهرنا . وهو صوت يذكر بقوة وجلاء .

وبقى أن نسأل لآعن عدد السامعين ، بل عن عدد من يشعرون أن النسيان المضروب عليهم قد زالت غشاوته وتقطعت ضلالتة .

حياة ...

قال الله عز وجل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ . . »

الحياة التي يدعو إليها الرسول ليست حركة الأجسام على ظهر الأرض في طلب الضرورات والمرفهات .

فإن الناس ليسوا بحاجة إلى من يذكرهم بهذا ، أو بشيء منه .

إنما الحياة التي يراد نقلهم إليها ، أو بعثهم بها ، هي حياة العقل الذي عرف الحقيقة والضمير الذي هفا إليها والإنسان الذي يتحرك بعد ذلك فتتمشى في أوصاله فكرة يريد تحقيقها ورسالة ينشد أداؤها .

هذه هي الحياة الصحيحة التي يتصور أن يدعو إليها رسول .

ومن ثم فإن الاستجابة له تعني حياة أرقى مما يعرف الجهال ويألف السفهاء .
حياة أسمى مما يصل إليه أصحاب المشاعر المحدودة والحواس الموصولة بظاهر الحياة الدنيا فحسب . .

والصورة الجلية لهذه الحياة اليقظة الذكية التي لا بد منها لاتباع الرسول وفقه دعوته وإبلاغ رسالته تراها في قول الله لنبيه : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ؟ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصِرُونَ » .

إن البشر الذين احتبست أنصبتهم من الحياة في حدود ضيقة من الجهل والخرافة ، وسقوط الهمة وخور العزيمة ، ليسوا أهل الاستجابة للرسول الداعي إلى حياة راشدة ماجدة ، يُقبل الإنسان فيها على الدنيا وعلى الآخرة ، إقبالاً عارماً جاشاً . وقديماً قيل :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيها كاسفاً باله قليل الرجاء

فإذا لم نعلم أن الإسلام حياة تجدد المجتمع ، وروح يخلق الفرد ، فقد جهلنا الإسلام

الذى يباعد البون بين رسالته وبين غيرها وبين أتباعه وبين غيرهم فيقول :
« وما يستوى الأعمى والبصير ؛ ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ،
وما يستوى الأحياء ولا الأموات » .

لا أدري سر هذا الفتور الشائع في بلادنا شيوع الخدر في العضو
الخامل النوم .

إن الجماهير في الغرب كالنحل في خلاياها ، لا تهدأ لهم حركة ، ولا يسكن لهم
مطمع ولا يضعف لهم إنتاج .

والدول — كبرها وصغرها — تحشد رعاياها في مشروع ضخم لا يكادون
يخلصون منه حتى يشغلهم آخر أضخم منه .

أما نحن — أعنى بلاد الإسلام كلها — فلا تزال ندور حول أنفسنا ونتحرك
في مواضعنا ونذهل عن مصائرنا ، وتصلنا أنباء الحياة الزاحفة هنا وهناك وكأنها
أنباء العالم الآخر . ما هذا . . ؟

إن الوحي الإلهي روح يدفع الملهمين ، ويغرس في نياتهم الصدق وفي أهدافهم
السمو ، وفي حركاتهم الجهد والمشقة وركوب الأخطار .. فكيف جعلنا الوحي الملهم
قيداً معوقاً وركننا في ظلاله إلى الدعة والخلول ؟

بل كيف عشنا في ظلاله أصحاب عيون لا تبصر من آيات الكون شيئاً
وأفئدة لا تلمح من أسرارهِ إلا قليلاً . . ؟

على الدعاة المخلصين لله ورسوله أن يحملوا من تعاليم هذا الدين الخصب بذرة
تعيد الحياة إلى هذا الركام الكثيف من العامة الهامدين والخاصة الجامدين ، وأن
يفهموا الدنيا الحائرة أن الإسلام دعوة مفرطة في التحرر والتقدم إذا كان بعض
الحمقى يحسبه رجعية واستكانة . .

يا أسفاه . كم حمل الإسلام من أهواء الناس وكم أصابه من جهل بنيهِ .

كاد الليالى . وكادته مجالدة وارثه عدوانها من بعد تقشال
ثم انثنت — وبها من صبره حرق — وإن كسته — لكيد ثوب — أمثال

في سبيل من . . . ؟

نحن نتبع بمواطننا صراع الثوار الحمر مع الغزاة الفرنسيين في الهند الصينية مؤملين أن تجيء نتأججه قامة لغرور المستعمرين وهاشمة لصلفهم القديم . .

ومؤملين كذلك — شأن الضعاف الموغرين — أن تقصص الأقدار لقتلانا في المغرب ، بعد ما عجزنا نحن عن الانتقام لهم .

ألم نقرأ في صحف اليوم مصرع الأبطال الثلاثة الذين حاكمهم الفرنسيون في تونس ثم حكموا عليهم بالقتل رميا بالرصاص ؟

أو لم نزوّع من إقدام الجبناء وهم ينفذون ما قضوا به ، فإذا بالضحايا الكرام يستقبلون الموت محدقين جرّاء ، رافضين أن توضع على أعينهم عصائب ، وسهام الهلاك تنطلق إلى صدورهم ورءوسهم وأعناقهم . . ؟

فإذا يصلنا بهؤلاء الفرنسيين الوحوش ؟ وماذا يجعلنا نحبس مشاعر الشماتة وجيوشهم تتلاشى فرقة بعد فرقة أمام الثوار الحمر . . ؟

بيد أن شيئاً يحيك في أنفسنا كلما طالعنا أنباء هذه المعارك .

هو أن الدم الفرنسي الصّرف ليس وحده هو الذي يسفك في ميادين التحرير بالهند ، فهناك ما يسمى بالفرقة الأجنبية ! جيش ذو لجب يقاتل — في جانب الغزاة — أهل البلاد الأصلاء !!

ممن تتكون هذه الفرقة ؟ من الزنوج . . ومن المسلمين المغاربة الذين شأهت بلادهم تحت وطأة أولئك الفرنسيين .

أرأيت ؟ أن كتائب العبيد تقف بين يدي جلاديها !!

ماذا دهى أولئك الذين يسمون مسلمين ؟

ما هذا العمى الذي طمس على أبصارهم وأفئدتهم ؟

لقد تبعت قتال أولئك المسلمين تحت رايات مبتوتة الصلة بتوحيد الله ، مبتوتة الصلة بحقوق البشر فيما يقدسون من دماء وأعراض ، مبتوتة الصلة بما يتمشقه الناس من أعجاد وآمال ، فلم ألقه له معنى ألبته .

ولقد ضحكت - وشر المصائب ما يضحك - يوم أذاع « رويتر » في أنحاء العالم أن المسلمين الأتراك كانوا يقاتلون في ميدان « كوريا » بحماس بالغ ، وأن صيحاتهم التقليدية في القتال « الله أكبر » كانت تلقى الذعر في صفوف أعدائهم .

يا للفوضى المفرقة ! ماصلة تكبير الله بحرب تقع بين روسيا وأمريكا ؟ .
ولماذا يكون الدهاء من المسلمين علف مدافعها ؟ .

ومن قبل ذلك تبعت قتال أهل الريف وراء الجنرال فرانكو .
إنهم استماتوا مع رجاله حتى أكسبوه النصر العظيم في أسبانيا ، ضد أعدائه وأعداء الكنيسة الكاثوليكية العتيدة .

واليوم تتكرر المأساة نفسها ويقاتل رجال الفرقة الأجنبية من زوج ومسلمين !
في سبيل مجد فرنسا التي أسست في العصر الحديث أسوأ استعمار عرفه العالم .
كان المسلمون قبل غيرهم رماد ناره المستعرة . .

إن التعليل الوحيد لهذه الطامة الشنعاء أن هناك جمهوراً كثيفاً من هذه الأمة المسلمة قد تحجّر أو استعجم ، لا ندري كيف نصفه ، فأسمى لا يحير صواباً ولا يعقل خطاباً ، فهو يستأجر للأغراض الدنيئة كما تستأجر الدواب للحمل سواء بسواء .

وإلا فلماذا لا يدير الجندى الغربى سلاحه ليقتل به من قتل قومه واستباح حماء وأذل أرضه وأرض آبائه . . ؟ ؟

بدلاً من أن يحارب في قارة أخرى لا يعرفه أهلها ولا يعرف أهلها ؟

ربما قلت : هذه قسوة في الحكم . لعله مستضعف أحكم الإِسار حوله ، فقلبه ضد فرنسا وسيفه معها .

وهذا - لو صح - لا يغير من النتيجة شيئاً .
فإن ذمة الله بريئة من كل أحد يمكن للظلم على هذا النحو ، ويوطئ ظهره لإراحة الطغاة وإرهاق المستضعفين كما ترى .

إن هؤلاء الجنود المرتقة يذكروننا بما روى في المسلمين الذين قتلوا مع المشركين

في معركة بدر ، فإن بعض المستضعفين ممن اعتنق الإسلام حمله كفار قريش أن
ينحاز إلى جانبهم ، وأن يبق مع أهل مكة في هجومهم على الرسول وصحبه ، فقتل وهو
ظالم لنفسه .

فنزلت فيهم الآية : «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ .. فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ
جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا» .

إن الظالم لنفسه كالظالم لغيره ، كلاهما حرب على الحق والكرامة ، فلا مكان له
في دين الله ، ولا منزلة له في هذه الدنيا .

والمسلمون الذين ينتسبون لهذا الدين ويلوثون دعوته وأمته بالعمل في خدمة
الظالمين يجب أن يبتروا بترا وأن ننساهم نسيا .

وسائل

يظهر أن الإسلام أكبر منا ، وأن تكاليفه أبعد من هممنا ، وأن مطالبه الكثيرة لاتزال تتحدى مزاعمنا .

وأول ما يكشف عن هذا العجز الشأن أننا نريد الوصول إلى أهداف إسلامية — كما نقول — بوسائل مبتوتة الصلة بالإسلام .

وأظن أن هذا المسلك لا يتحمل إلا تفسيراً واحداً ، هو أن الإسلام ليس بغيتنا وأن شيئاً آخر هو الذى يسيطر على نياتنا وأعمالنا .

هل تظن أن إخوة يوسف كانوا صادق الرغبة فى صلاح النفس ورضوان الأب يوم قرروا قتل يوسف ؟ كلا !

فأى صلاح . هذا الذى يتوصل إليه باقتراف جريمة ؟

« اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ » .

إنهم لن يكونوا قوما صالحين بوسائل فاسدة ، وغارس الأشواك لن يلقى جناها ورداً أبداً .

وقد لفت البوصيرى أنفسنا إلى هذه الحقيقة ، فإن المرء قد تحدته نفسه أن يشبع هذه النهمة فحسب ، وأن يدرك هذه الشهوة وكفى ، وبعد ذلك تسكن نفسه إلى ما حصلت عليه من حرام وتستأنف حياة أفضل . فقال الرجل الحكيم :

فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتها إن الطعام يقوى شهوة النهم

أى إن الوسائل الفاسدة لن تزيد مرضى القلوب إلا علة ، وإذا حسبوا أنها تكسر شهوتهم فهى فى الحقيقة تطفى شررتهم وترسخ فى الإثم أقدامهم .

وعند ما كان بعض اللصقاء بالإسلام يطلبون منا مداينة فاروق وأمثاله ابتغاء نصرة الإسلام ، قاومت هذا العوج النفسى جهد الطاقة ، لأن الإسلام الباقى بعد ترضى المتألهين فى الأرض شيء آخر ، غير الدين الذى ارتضاه الله لعباده .

ولن نكون أصحاب رسالة صحيحة إذا كان الملوك الفسقة وأمثالهم من دهاقين الاستبداد السياسى هم رعاة الدعاة إلى الله وحماتهم الأشداء .

إن الإسلام بحاجة إلى من ينجده من هؤلاء الطغاة .

وإن أمتة المهیضة بحاجة إلى من ينقذها من عتوهم وعلوهم ، فكيف يطلب منا أن نركن إلى أولئك الطغاة والله يقول : « وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ » .

وعلى المسلمين ألا يخامروهم القنوط إذا مارأو بعض المرتزقة فى ميدان الجهاد لا يزالون يبحثون عن طاغوت آخر ليخدموا الإسلام بالانحناء له ، والاعتراف من خزائنه .

إن العبيد لا يقدرّون الحرية يوم تساق إليهم عفواً . ألم تر كيف صنع اليهود مع موسى لما استخرجهم من مصر واستنقذهم من بطش فرعون ؟

حنت نفوسهم إلى صنم يشكسون عنده رؤوسهم كأن ارتفاع الهامة أمر معنت ، « وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ . قَالَ : إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَؤُلَاءِ مُمْتَرِبُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . قَالَ : أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ؟ »

إن الإسلام صنع الرجال الذين هدموا كسرى وقيصر ، ولم يلتحق أحد من رجاله بالوثنيات السياسية ليستنزل فى مقاصيرها نصر السماء .

فلنعد إلى صفوفنا المتواضعة ، وقروشنا القليلة ، فذلك أجدى من خزان الذهب تلتمس عند ذوى السكموز .

ما تمسكتنا بهذه الوسائل ؟ إن كنا صادقين فى إعزاز ديننا وإحياء أمتنا ؟ إنه فى سبيل العمل للإسلام توجد أعمال تحتاج الجندى المجهول ، تحتاج المكافح الصامت ، تحتاج الرجل الذى يبذل من وقته وماله ، دون رياء أو ضجة .

وقد كان لدينا قسم « البر والخدمة الإجتماعية » والفروض في منهاج هذا القسم ، أنه ينظم أعمالا واسعة ، أعمالا استطاع إخواننا الأقباط — بقليل منها — أن ينهضوا بطائفتهم ، وأن يدفعوا بها إلى الأمام .

فماذا فعلنا نحن لنستدرك ما فاتنا ، وأن نلحق من سبقنا ؟
لقد جمعنا الألوف من طرق شتّى لإصدار مجلة نحن في غُنية عنها .
وضننا بأى قدر من المال — مهما زهد — على أعمال البر والخدمة الإجتماعية .
فهل هذه وسائل الفوز والفلاح .

كم تكلفنا محاربة الرذيلة والتفكُّك والجهالة من جهد وسهر ؟ ومن
تجميع وتنسيق ؟

كم نحن فقراء إلى المدارس التي ترفرف عليها روح القرآن والمستشفيات ؟
والملاجئ والأندية المبرّأة ، ولجان الخدمات العامة ، ومَحَاضِن الأولاد والشباب .
كم نحن فقراء إلى مؤسسات تشد أعصاب أمتنا .

هذه الأعصاب التي استرَّختْ ، ووهنت لطول ماعراها من أَرَمَات ونكبات .
إن الإسراف في هذه الأبواب ، لا يعترضه أحد ، ولا يتوقع منه إلا أطيب
النتائج أما « تسوُّل » المبالغ الطائلة ، لتنفق في غير مصرف ، وترك الأعمال
الصحيحة تتطلب العَرَن ، فلا تجده ، فذاك مسلك عجيب .
إن الوسائل الصحيحة وحدها ، هي التي تخدم الإسلام .

تحدّى

الكارهون للعرف السيء، والخارجون على التقاليد القديمة مكروهون من العوام والجامدين .

وعلى قدر ما تكون قداسة الخرافة الشائكة يستمر الغضب ضد المتبرمين بها والمنكرين لها .

ولذلك يقول الله لنبيه « وإن يكادُ الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكْرَ ، ويقولون : إنه لمجنونٌ . وما هو إلا ذكرٌ للعالمين . . »

وأصحاب الحق بإزاء هذه العيون التي تقدح شررا ، وهذه النفوس التي تتميز غيظا ، لا يزدادون إلا ثقة بما لديهم واستهانة بما يواجههم .

وإنا لك لتسمع إلى واحد من حملة الوحي يعالج جهالة الجماهير حوله فترى آية من آيات الله في الرسوخ والصرامة والتحدى .

كأن عناد العوام معه عبث صبية يلعبون في أصول طود ذاهب في الجوزاء .

قرأت هذه الآي يصف بها القرآن دعوة نوح لقومه « واتلُ عليهم نبا نوحٍ إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبرُ عليكمُ مُقامي وتذكيري بآياتِ الله فعلى الله توكلتُ ، فأجمعوا أمرَكم وشركاءكم ثم لا يكن أمرُكم عليكم غمّةً ثم اقضوا إليّ ولا تنظروني » .
وراعني ما فيها من إصرار وإقدام .

إنه يقول لهم .

إن ضايقتكم دعائي إلى الله فما أبالي بكم ، ومهما اشتد سخطكم فلن أحذر جمعكم أو أتهيب عقبي النزاع معكم . . فإنني أستاذ إلى الله وأطمئن إلى تأييده وأعرف أن ما ملقتم به من دون الله أعجز من أن ينالني بضر فاجهدوا جهديكم ، واجمعوا كيديكم ..
ثم اصنعوا ما شئتم وعجلوا بما تقدرون على فعله فلا ضرورة لتريث أو إهمال . .

ويشبه نوحا في هذه المقالة هو عندما صاح بقومه « إني أشهدُ الله - واشهدوا -

أَنْى بَرَى رِمًّا تَشْرُكُونَ مِنْ دُونِهِ ، فَكَيْدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبُّكُمْ .

وهذا التوكل ضرب من القوة التى يزود الله بها المصلحين كما يزود الصحيح
بالمناعة بين المرضى ، فيموتون وينجوا ، ويقعدون ويسير .
ثم يقول ما قال الشاعر :

ويوجد بيننا أمد قصي فَأَمُّوا سَمْتَهُمْ وَأَمَّتْ سَمْتِى

والتوكل هنا أمانة من أمارات القدرة على الحياة والأمل فى المستقبل ، إن ضعفت
الطاقة واكفهر الجو ، فهو قرين الصلابة والبأس وسر الرباط والكفاح .
لكن هذه الأمة لما جف عودها تحولت الخضره اليانعة الطاخة بدلائل الحياة
إلى هشيم تذروه الرياح بل توقد به الأفران .
وإذا كان التوحيد قد انقلب إلى شرك فلا غرابة إذا انقلب التوكل إلى انكسار
وخور ، وانهباز وهزيمة .

إن التوكل على الله يبعث الجرأة على الناس .

فلن يكون أبدا سبب ضيعة فى الدنيا أو هوان بين أهلها .

وقد سمعت نوحا وهودا كيف يحفزها التوكل إلى أن يقولوا لقومهم : هاتوا
ما عندكم فلن نحفل به .

إلا أن ثَمَّتَ عنصراً آخر يقارن هذا التحدى أو يعين عليه ، هو تجرد الداعية
واستغناؤه المطلق عن البشر قاطبة .

فن التناقض المثير أن تحرص على تملق الدهاء فى الوقت الذى تسكف فيه بردهم
عن غوايتهم وشفائهم من جهالتهم .

إن المعلم يترضاه تلامذته وليس هو الذى يترضى تلامذته .

وخير ما يقال فى داعية : إنه استغنى عن دنيا الناس فلم يخافوه عليها ، وبذل
مالديه من خير فهرعت إليه الوفود ترجوه .

وهذا المعنى أكدته نوح لقومه « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَامِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

صدق من قال : أذل الحرص أعناق الرجال .

إنه ليس أعصى على فنون الإغراء من الرجل الزاهد ينظر إلى الناس وهو بنجوة من مشاعر الرغبة التي تدنيه حيث يجب أن يبعد ، أو مشاعر الرهبة التي تبعده حيث يجب أن يدنوا .

كلا . إن غناه في قلبه حصنه من هذه الثغرات التي تستندل الملوك .

فهو مليء النفس ، رفيع الرأس بما يدخره عند الله وحده . .

وتنزيه الدعوات عن المتاجرة بها هو معنى الزهد الذي لازمه الأئمة واحتفى به العلماء .

فليس الزهد هو الجهل بالحياة وهجر أسباب العمل ، وقصور الباع في مختلف الحرف ، وترك زينة الدنيا عجزاً عن بلوغها أو بلادة عن تذوق الجمال الذي أودعه الله فيها . .

ورب نبى استمتع بالمال والبنين وهو — مع ذلك — من الزاهدين . . !

ورب محروم عاش يتشهى ويتملظ فما كان فقره رفعة لشأنه ولا زيادة في حسنة .

إن الزهد ألا تبيع مثلك العليا بملك الدنيا أن خيرت بين هذه وذاك .

فإن الله عاب قوماً بأنهم آثروا الأولى على الآخرة فقال : « . . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعَهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَاُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » .

أما أن تحس نعمة الله وتستمتع بها ويشوق بدتك وروحك حسناتها فهذا مالا يضير رجلاً مؤمناً مجاهداً وفيّاً لفضائله .

ألا ترى القرآن الكريم ينبه إلى ناحية من نعم الله على أبناء آدم فيقول --- في تسخير الأنعام — « وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ » .

إن هذا الجمال مِنَّةٌ تستحق التنويه ، فما بالك بألوان الجمال الأرقى ، وقد أتاحها الله جميعا للذين آمنوا . . ؟

إن أصحاب الدعوات قد تحبب لهم من الدنيا أشياء . بيد أن شيئا مما يروقهم فيها لا يحجبهم عن الله ولا يهون عليهم الحق ولا يذلمهم للناس . . . !

وهذا الذى سقناه من دلائل التوكل والتجرد . خُلِقَ بنى عليه أولو العزم من الرسل ، وكلف الله صاحب الرسالة الخاتمة أن يعتصم به وأن يتأسّى فيه بأخوته السابقين « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » .
وعلى السائرين فى آثار النبوات الأولى أن يأخذوا بحظوظهم من هذه الخلائق الصلبة ، فإن رسالات الله لا يستطيع حملها طلاب الدعة ومتملقو الجماهير . .
ليس أقوى فى عرض قضية ما من الرجل الذى لا يهاب أحدا ، ولا ينشد رفدا ، فإنه يعتمد على الله ولا يرقب إلا جده . . .

نصيحة

المسلمون الآن في مرا كز حرجة تقع بهم المآسى وتلاحقهم الإهانات .
فما يخرجون من غمة إلا ليدخلوا في مثلها أو أنسكي منها .
كل ذى قوة في الأرض يفتات عليهم ، وكل ذى مآرب يتجه إليهم ، وبلادهم
تدور فيها رحي المطامع ، وينتجعها الرواد من كل صوب وحذب .
شأن أى مكان ممرع أغفى أهله وذهب حراسه .
والإسلام — تبعاً لأصحابه — يلقى العنت وتكتنف مستقبلة الصعاب .
ونحن لانذكر متاعبنا هذه لنقنط من زوالها أو نستكين لبقائها .
فإن الاستسلام للهزائم لا يقول به رجل ، مسلماً كان أو كافراً .
أجل ، إن الرجولة المجردة تتحمل المكاره فكيف إذا اصطفت بالإيمان ،
وفاض في نواحيها اليقين والأمل ؟؟ ألا تفعل العجائب ؟؟
عندما سقطت الدولة الإسلامية في القرن السابع على أيدي التتار المغيرين لم تقن
هذه الأمة ولا ضاع دينها . بل لم تمض أيام طوال حتى ذاب التتار أنفسهم في غمار
المسلمين . فهضمتهم الأوطان الإسلامية وفرضت عليهم دينها وتقاليدها .
ثم مضت أيام أخرى فإذا بالمغيرين الأوائل يتحولون جندا للإسلام ، ويمدون أمتهم
الأولى بعناصر جديدة ، بادية الحماس ، شديدة الوطأة .
وبديهي أن الفاتحين الذين اعتنقوا دين المغلوب وأعجبوا بتقاليده لم يفعلوا ذلك
إلا لأن الأمة التي انهزمت عسكرياً ظلت من الناحية العلمية والاجتماعية أرجح كفة
من الغزاة المزهوئين .
وأحسب أننا — وسط الدائرة المعتمدة المحيطة بنا — يجب أن نبني سياستنا
الإسلامية على أمرين متكاملين ، هما المنفذ الوحيد من هذا الحصار الخانق .
ولأبدأ بآخرهما ترتيباً . وهو حسن الصلة بالناس . إن الدعاة الذين يُخَلَّفُونَ
وراءهم أحقاداً اجتماعية عنيفة يدمرون على أنفسهم وعلى رسالتهم . ولو كانت قوى
البر والبحر تظاهروا بهم !

ونحن المسلمين أولى الناس طُراً بالاعتماد على الحكمة والجدال الهادئ والإقناع الكريم في عرض قضايانا المعقدة وقضايا ديننا المظلوم .

نحن أجدر بذلك — ولو كنا مدججين بالسلاح — من رؤوسنا إلى أقدامنا . .
أما إذا كان السلاح ومصانعه عند خصومنا فإن التحدى الطائش لون من الانتحار فوق أنه ضرب من العصيان . ولا أحب أن يفهم امرؤ من هذا الكلام إنى من أتباع غاندى في سياسة المقاومة السلمية ، أو أنى ألائن الغاصبين وأنسى ضرورتهم بنا وباخواننا في كل قطر . كلا كلا .

إننى أرى ظهر الأرض خيراً من بطنها إذا لم نعش أعزة بديننا . بل إنى من دعاة الاستقتال دون أن تطيش غاياتنا وتهون مقدساتنا .

والروح أرخص ما يُدفع غضبا لله وزيادا عن حقوقه . هو أرخص ما يدفع ولو في معركة لا تكافؤ بين أطرافها ، نحمل فيها المعصية ويحمل أعداؤنا فيها قتابل الذرة المتفجرة . !

هذا مفتحى غير ما نحن بصدده هنا . إن حق الدفاع غير أسلوب الدعاية والعرض والاستدلال .

والإسلام أغنى الأديان بمغريات القبول ، فإذا فات إنسانا حظه الواجب من إدراك هذه المغريات فلن يعوضه عنها الجماس القائم على الخشونة والجلافة والغيرة البالغة ، سواء كان ذلك عن إخلاص أو اضطناع . !

إن هناك أناسا أحيوا السنة عن صدق ، لكنهم أساءوا خدمتها بشئ من القسوة بدا عليهم أو اتهموا به فتقهقروا في المجتمع العام وتقهقرت معهم السنة .

وفي الدنيا فتانون كثير يصرفون الناس عن الحق بسوء فهمهم فيه وسوء عرضهم له . وضيق العطن آفة فريق من المتعرضين للكلام عن الإسلام . حتى لقد أوقعوا في أوهام شتى أن الإسلام يوم يقوم حكمه فلن يسمع إلا صوته .
وهذا جهل بالدين والدنيا معا . .

ومن حق العالم كله أن يصيح : خذوا الطريق على أولئك اللتائين ، قبل أن يوصدوا منافذ الفكر الحر على أهل الأرض .

يجب أن يعلم الناس عنا أننا — استجابة لديننا — حراس على نشر الإسلام بأسلوبه العتيق ، أسلوب الأدب والمرونة والتجمل وأننا — لو ملكنا قوى الذرة — ما استعنا بها في إقامة دليل أو تدعيم حجة .

إن معتمدنا الأول والأخير هو الإبانة عما في الحق من جمال تهوى إليه الأفئدة ؛ وسلاحنا الفذ اجتذاب الألباب بما يقنعها ، لا بما يرغبها .

هذه نصيحتي لإحسان الصلة بالرأى العام .

أما الأمر الأول الذي يسبق تلك الوصاة فهو أن نضمن عناية السماء بنا ، وأن نستوثق أن الله معنا . وذلك بتطهير النفوس والتزام التقوى .

إن الغنى قد تطغيه ثروته :

والقوى قد تبطره قوته :

والأُمم المتمكنة في الأرض قد تدفعها أسباب الغلب إلى الفتك والاستعلاء .

أما أن يطغى البأس ويستكبر العاجز وينسى المستضعفون في الأرض ربهم وما يحب له من توقير ، وعباده وما ينبغي لهم من مرحمة .

فهذه هي الطامة :

ونحن المسلمين إذا كنا — على منازل بنا — لن نصحو من سبات ولن نرجع عن إعنات . وإذا كنا سنظل سراعاً إلى مواطن الأثرة والحقْد والقطيعة ، فكيف نرقب أن تعمل قوى السماء معنا ، وأن تعز جانبنا المهيض .

إننا — في هذه الحن المشابكة حولنا — أفقر خلق الله إلى تأييد الله . باصلاح ما بيننا وبينه ، والاستقامة على سننه السمح الرحيم .

ويوم تكون أحوالنا من السمو والسناء بحيث تجعل البشر يرمقوننا بإعزاز وإعجاب ، ورب البشر ينظر إلينا نظرة الرضا والقبول فسوف تتكشف هذه الكروب كلها .

أما أن نفضب الله بالعصيان ونفأى عن خلقه بسوء السيرة ، فأمر لا تصلح به دنيا ولا يصلح به دين .

لو انهزمنا أمام الغرب هزيمة المسلمين الأول أمام التتار لأوشك الغرب أن يدخل في ديننا وفصير وإياه سواء .

أما أن نتحول نحن إلى أخلاق التتار أنفسهم فتلك هزيمة لا قيام منها .

طبيعة الإسلام

أحق أحرى بوظيفة ما ، من كمل استعدادها لها وتمت طاقته عليها . . فمنصب القضاء يرشح له المبرزون في دراسة الشرائع والقوانين ، وأعمال الهندسة الكبرى والصغرى يقدم لها من أوتوا حظوظا موفورة من الدراية والخبرة ، وكذلك سائر شئون الحياة الأخرى ، لا يعد أحد من الناس أهلا لها حتى يستجمع الأسباب الميسرة لمباشرتها ، وإلا نُحْيَ غير مأسوف عليه .

واستكمال القدرة على ولاية وظيفة ما ، لا يقع بفضة .

إن الإنسان في هذا المجال كالثمرة ، لا تنضج إلا بعد مراحل متأنية ، فإذا أُنعت صلحت لما خلقت له ، أما قبل ذلك فإن فجاحتها تغرى باطّراحها لا محالة .

وإذا كان الفرد لا يحمد في منصبه إلا إذا نهض بأعبائه ، فكذلك الجماعات والأمم إن إصلاح الأرض وترشيد الحياة ليسا أعمالا هينة ، ليسا ادعاء يملكه أى قبيل من الناس .

إن الأقدار التي تتبرم بموظف مهمل في عمله ، تتبرم أشد وأوسع ، من أمة مهملة في واجبها .

وكما تطرد الدولة الموظف الكسول المتلاف ، تؤخر العناية العليا كل أمة أعجزها القصور وشللها الفساد .

نعم تؤخرها وتقدم من هو أكفأ منها على إصلاح البلاد ونفع العباد . .

وعندما تنظر إلى الأمة الإسلامية الأولى تعرف أن الرسالة التي اضطلمت بها في الحياة هي التي منحتها حق السبق ووضعت في أيديها الزمام .

ولقد شرحنا في موضع آخر كيف أنه كان من مصلحة البشر قاطبة أن تتحول السلطة عن الدول الكبرى يومئذ لتستقر في هذه الأمة الجديدة ولتبقى في ربوعها حيناً من الدهر .

إن السيادة التي واثت المسلمين الأولين لم تجي عفواً لخطاير أو محض الصدفة ، ولم تجي ربح قار أو جائزة « يانصيب » كلا .

إن الدولة التي أقامها المسلمون الأوائل بنتها نفوس بلغت شأواً بعيداً من مجادة الخلق وسعة الكفاية وعمق اليقين وروعة التجرد وصدق الإخلاص .

ومن وراء هذه النفوس الكبيرة تلمح صاحب الرسالة العظمى يتعهد القلوب بالصقل ، ويأخذ النفوس بالأدب الشامل ، وينسق الصفوف بالوعى لا بالغباء ، وبالخلق لا بالهوى .

وقد تستطيع عصابة من الناس أن تخطف « حكماً » بالاغتيال والنسف أو بالاحتيال والعسف ، بيد أن نسبة هذا « الحكم » لله حق كبير .

إن الانتساب لله يقتضى شمائل أنبل وفضائل أجل مما تواضع الناس على إكباره من شمائلهم وفضائلهم .

وفي أقطار العالم اليوم حكومات يشرف عليها رجال أولو عزم وبأس ، وهي حكومات ناجحة في حدود برامجها وأهدافها ، ولن نبخس أصحابها حقهم من تقدير .

لكن البؤن بعيد بين حكم ينجح في إسعاد شعب ما ، وبين نبوة انخلعت من حظوظها الخاصة ومشت في الأرض تفرس أعواد الوحي ، وترقى بالعالم إلى آفاق أزهى وأنضر ، تريد أن يعرف الناس ربهم الذي جهلوه ، وأن تمسكهم بكتابه الذي جحدوه وأين ورّارت هذه النبوة ، ورعاة هذا الميراث ، بل سل قبل ذلك : أين أساليب الأنبياء في العمل والبلاغ والإعذار ؟

لقد ضيّبتْ نفسى من أناس تمقصهم القدرة على إقامة حكم لأنفسهم ثم يزعمون أنهم يريدون إقامة حكم لله ؟ ، بم ؟ كيف ؟ بأدوات معطوبة ووسائل مقلوبة وغرور بعيد . . ؟

إن الأمة المسلمة ، إذا لم تدعُ للإسلام بسيرتها ، صارت وبالا عليه .
فإن عبثها بالنصوص التي بين أيديها واضطراب أمورها نتيجة هذا العبث ، سيكون فتنة تصد الآخرين عن اعتناق هذا الدين .

وقد فسر العلماء قوله تعالى : « رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا » بما يشبه هذا ، قال مجاهد : لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا : لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا . .

إن الرجال الذين يحملون الحق يجب أن يشرفوه بعملهم . لا أن يشوبوه بهوهم ، فإن إهانتهم له تبعد الكثير عن قبوله ، وقد يدخلهم ذلك في نطاق مَنْ عَنْتَهُمُ الْآيَةُ « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُونَ » .

إن الموائيق التي أخذها الرسول صلى الله عليه وسلم في بيعة العقبة الأولى على الأنصار الداخلين في دينه تستدعي التأمل ، كان الإسلام محصوراً مُعْتَنًى في شعاب مكة يتربص أعداؤه به الدوائر وتهدد مستقبله الخطوب ، ومع ذلك فإن اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بالأنصار الجدد لم يتعد الطريق المرسوم لتكوين الرجولة المؤمنة ، فبايعهم أولاً على ترك المناكر الشائنة من شرك وسرقة وزنا وبهتان ، ثم استوثق من أنهم توابون يعمدون إلى الله مجملين ، إذا باعدهم الشيطان عنه . . فلما رست مكارم الأخلاق في جذورهم واستقامت مع أصول التقوى طريقهم جاءت البيعة الأخرى على الكفاح والتضحية .

والقرآن النازل بمكة سار على هذا السنن ، ربَّى الرعيل الأول على الإيمان والعفاف والأدب والوفاء ، وصنع منهم نماذج رِيَّةً للدعوة التي ينادون بها ، فلما اصطدموا بقوى البغى نزلت ملائكة السماء لتؤيد إخوانها على الأرض . إن العالم شهد قديماً وحديثاً ألوفاً من الجنود المرتقة يسيرون في ركاب الجيوش الغازية ابتغاء السلب والنهب . .

وهؤلاء المغامرون من طلاب المنافع - ولو بأرواحهم - ليسوا أصحاب دعوات ولا حملة رسالات .

وما كان محمد صلى الله عليه وسلم يجمع أمثالهم حوله بل ، ما كانوا هم ليطيعوا السير معه وهو يكلفهم بالصلاة والزكاة والذكر والعبادة . . فطبيعة الارتزاق لا تقبل دروس التربية .

ماذا يصنعون في قول النبي صلى الله عليه وسلم لهم « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : ما هو يارسول الله ؟ قال : ذكر الله عز وجل .

إن هذا الحديث مبين عن طبيعة السلام في الإسلام وكشف عن العروة الوثقى في تعاليمه ، وعن الغاية التي يدفع عباد الله إليها ، فإذا أكره بعدئذ على حرب خاضها ليخلص منها إلى هذه الغاية وحدها .

دروس التربية العملية ومراتب الارتقاء النفسى هي في الإسلام كيان الفرد وكيان المجتمع ، وهي وسيلة وغاية وسبب ونتيجة معا .

روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : كان إذا نزل على رسول الله الوحي يسمع عند وجهه كدوى النحل ، فلبثنا ساعة ، فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا !

ثم قال : لقد أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة .

ثم قرأ « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون الخ . . . الآيات المذكورة صدر سورة المؤمنين .

أترى أحداً يجمع هذه الشيم الرفيعة ثم يضل أو يزيع أو يجاهد لغنم عاجل ؟ كلا . . . ولو حرصنا على اتباع منهج الإسلام في عملنا لانتهى بنا إلى خير كثير . إن التأسى برسول الله لازم علينا ، فلنعد إلى أنفسنا ، ولنستأنف السير على بصيرة . وإني لأسجل هنا ما كتبه الأستاذ أحمد حسن الزيات في التهديد بما يصطنعه « البعض » من أساليب مخزية في خدمة الإسلام . قال :

هل قرأت منذ يومين في الصحف ما أذاعته شركات الأنباء من أن عصابات مسلحة تألفت في اندونيسيا باسم الدين وصمت نفسها (جماعة دار الإسلام) ، وسيلتها الإرهاب والقتل والتدمير والنهب . وغايتها إقامة دولة إسلامية تحكم بدستور القرآن وتقضى بشريعة الله . وقد بدأت (جهادها) بغارات دامية على بعض القرى في غرب (جاوة) قتلت فيها عشرين جنديا ومدنيا ، ودمرت أربعة وستين منزلا بعد أن سلبت ساكنيها الحياة والمال ! ! فماذا دهي الحنيفة السمحة حتى تبدلت سنتها في هذه النفوس فارتد نورها ظلاما وترياقها سماً ، وسلامها حربا ، ونظامها فوضى ؟ هل يرى هؤلاء الضالون مازعمه (الباطنية) من أن للقرآن ظاهرا هو ما يعلمه الناس ، وباطنا هو ما يعلمونه هم ؟ فالخلال هو الحرام ،

والحرام هو الحلال . والمعروف معناه المنكر ، والمنكر معناه المعروف ، وكذلك يقولون في الصلاح والفساد والخير والشر ؟

حقيقة الأمر وواقعه أنهم لا يعلمون من القرآن ظاهرا ولا باطنا ، ولا يفقهون من الدين أصلا ولا غاية ، إنما هم كقوم عثمان : طعام مثل النعام ، يتبعون أول ناعق ، والناعق قد يكون طماعا يريد المال ، أو طامحا يريد الملك . وعلة ما أصاب الإسلام من الانتكاس في هذه الحقبة الأخيرة ، أن المثقفين من ذوى البصائر والضمائر قد شككتهم مادية العلم في روحية الدين ، فوقفوا من الإسلام موقف المحاييد ، لا يؤمنون ولا يكفرون ، وأخطأوا القياس ، فظنوا كما ظن بعض دول الغرب : أن الدين عائق عن التقدم فقطعوه عن دنيائهم وتركوه للعامة وأشباههم من جهال العلماء يفترون على الله مالم يوح ، وينسبون إلى رسوله مالم يقل ، ويؤولون آى الكتاب على الوجه الذى يدينهم من الثمرة الحرام ويؤديهم إلى المنفعة الضارة ، ويحشون رءوسهم ورءوس الأغرار والسذج برواسب من مخرقة اليهود وصوفية الهنود ، لا تدفع إلى الإمام ولا ترفع إلى فوق . لذلك اختلف مفهوم الإسلام في أذهان أهله اليوم عما كان في أذهان عمر وخالد ، والرشيد والمأمون ، والناصر والحكم ، والعزیز ، والحاكم ، في صدر الدعوة الإسلامية ، وفي قلب الحضارة العربية ، مفهومه اليوم في أذهان الخادعين الطامعين من طلاب الغنى أو الحكم الإرهاب والاضطراب والغيلة والفرقة والتزمت والتعصب ، وكان مفهومه في أذهان صحابة الرسول ، وخلفائه العدل والإحسان والوثام والسلام والنظام والتسامح والمحبة .

فلنجدد أولا هذا المفهوم في أذهان الناس ، ثم لندع بعد ذلك إلى أن يكون الحكم له والقضاء به . وتسألنى من الذى يستطيع أن يجدد هذا المفهوم على النحو الذى أنزل الله القرآن به وأصلح أمر الأولين عليه ، فأقول لك : إنه الأزهر . ونقول نحن : ذلك ، يوم يعود الأزهر إلى الكتاب والسنة ويجعلهما لباب ثقافته ومحور دراسته .

ثم يوم يوائم بين ما يعلم من دين . . . وما بلغته الحياة من أطوار .

من تجارب داعية

[من عشر سنين أثبتت هذه الكلمات
ويبدو أنه لا يزال فيها ما يغرى بمطالعتها]

ذكاء في الضلّول وغباء في الهرمى :

أكره الرجل يكون قويا في عصيانه فإذا اهتدى كان ضعيفا في تقواه .
وأكره الرجل يفهم دقائق الأمور ، ويحسن مواجهة الحقائق ، ولا يستطيع أحد
أن يضحك منه إبان انطلاقه مع شهواته واسترساله في مطاوعة أهوائه .
فإذا تاب وأناب استغلق تفكيره واضطرب تصرفه .

فلو كان تاجرا لم يحسن الربح في تجارة الآخرة ، كما كان يحسن في تجارة الدنيا
ولو كان رئيسا لم يستطع ضبط شئونهِ ، كما كان يديرها قبلا بكل دقة .

ومن المضحكات ، أنى أعرف رجلا كان في جاهليته بارزا مرهوبا ، فلما طلق حياة
الشقاوة آثر أن تكون طاعته لربه على نحو لاغناء فيه ، فهو يصلى الصبح في الحسين
والظهر في السيدة ، والعصر في الإمام الخ .

ثم هو يندفع في هذه العبادة بحماسة تجعل قلبه يتعلق بما أدخله العرف الخاطى
على الدين من قشور ومظاهر ؛ فكأنما انتقل من ضلال إلى خبال .
هذا إخلاص قتل الجهل قوته ، وبدد فائدته .

والإيمان يحتاج إلى العلم والذكاء ، كما يحتاج إلى طيبة القلب .
ويحتاج إلى المهارة والحنكة ، كما يحتاج إلى مرونة النفس .
ولأمر ما ، دعا النبي صلى الله عليه وسلم أن يعز الإسلام بأحد العمرين

كلمة الربحانه :

قد يشترك بعض الناس في وصف واحد ، ولكن اختلاف أنصبتهم منه لا يجعل
الحكم لهم كما لا يجعل الحكم عليهم ، سواء في الخير أو في الشر !
فإذا كانت ٥٠ ٪ هي النسبة الفاصلة بين النجاح والرسوب ، فليس معنى هذا
أن رسوب الذى نال ١ ٪ كرسوب الذى نال ٤٩ ٪ أو أن نجاح الذى نال
النهاية الصغرى كنجاح الذى نال أعلى الدرجات ، وإن اشتركا جميعا في وصف
النجاح والرسوب .

وقد يشترك بعض الناس في النطق بكلمة واحدة ، ومع ذلك لا يعنى أحدها من المعانى ما يعنيه الآخر ، ولا يقصد أبداً إلى ما يقصد إليه الآخر من أهداف .
وخير مثل لذلك ما ذكره أحد الأدباء من أن « الحمائل » فى محطات السكك الحديدية يقول « الدنيا كلها متعاب » وهو قول يكاد يتحد فى لفظه مع قول أبى العلاء المعرى :

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب فى ازدياد
فأبو العلاء لا يشكو من حمل ثقل ناء به كتفه ، ولكنه يقرر فلسفة التشاؤم ويستعرض أموراً لا عداد لها ، قبل أن يرسل حكمه على هذه الدنيا .
وكثير من المسلمين يشترك فى النطق بكلمة التوحيد ، فيهم المستغرق ، وفيهم الذاهل ، فيهم المتفانى ، وفيهم العاصى . . . وفيهم من يقولونها عندما يشبهون فيعطسون فيتشهدون .

فإذا أردت توزيع الأحكام على هذه الحالات فيأياك إياك أن تخلط .
لا تعط مرتبة الامتياز لكل ناجح ، فإنها للأوائل فقط .
ولا تعط صفة التفكير الفلسفى لجمالى المحطات ، فإنها لأصحابها من طبقة أبى العلاء .

وإذا سمعت أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : من قال « لا إله إلا الله دخل الجنة » فاعلم أن البشرى ليست لكل قائل . .
فما أكثر الذين يهبطون فى فهمها إلى درجة جمالى المحطات فى فهمهم لمتاعب الحياة ، وما أكثر الذين ينجحون فيها بالنهاية الصغرى ، بعد مختلف الشفاعات والاستثناءات . .

صماسة :

للعامة مفارقات فى أقوالهم وأعمالهم تستحق أن نقف لديها قليلا لنعجب من كثرة المسارب النفسية ، التى تهرب إليها الحقائق ، وتتوارى فيها إلى حين !
جاءنى مرة رجل يسألنى عن حقيقة صلاة التسابيح ، فقلت له : لا داعى لأن تعرفها لأنها لا تنفعك بشئ .

فقال : كيف ، انتهاني عن الصلاة ؟ قلت له : أنك عن الدجل ، فأنت شخص تخون في أداء واجبك ، وتفطر في ضرورات دينك ، فتفكيرك في استحکال نوافله كتفكير بائع الفسيخ في الروائح العطرية ، قبل تنظيف جسمه وغسل ثوبه .

وسمعت خطيباً يرغب ويبرق ويرعد ، يقول : إن الناس تهاونوا بالدين وأصبحوا يلقون بضائهم في أوراق الصحف والمجلات ، وفي ذلك إهانة للإسلام وانتهى الرجل من قوله ، ثم بدأ أن أفرج عن نفسي بمناقشته .

فقلت له : يا فلان . ولكن الناس تعدوا من حدود الله ما هو أخطر من ذلك وأبين في ضلاله ، فلئن أغضبك اتخاذ الصحف لفافات لشتي السلع ، فهلا أخرج صدرك من قبل أن الناس اتخذوا آيات القرآن هزوا ولعبا وأن أركان الإيمان متهمة في نفوسهم ومجتمعاتهم واتجاهاتهم ؟ ؟

وخرج الرجل وأنا أؤكد أن عين الشيطان قريرة بجهاذه الهزيل .

لقد ذكرني الاستمساك بهذه التوافه بنبأ قوم جاءوا يستفتون عن حكم الصلاة في ثوب عليه دم البعوض ! على حين كانت سيوفهم مخضبة بدم البشر ! والجنون فنون ، والنفاق أيضا فنون .

ولعل من عجائب الجهاد في هذا العصر ، أن الجماعات الإسلامية أعياها أن تعمل للدين كله ، فجزأت الفضائل والردائل ، وتخصصت كل طائفة في محاربة رذيلة بعينها ، ومناصرة فضيلة بعينها ، والوقوف على الحياد فيما وراء ذلك من فضائل وردائل .

وكذلك يكون الجهاد :

نهاية الجهد :

دين المرجئة شائع الآن في أغلب الأقطار الإسلامية :

والمرجئة طائفة تربطها بالمناقين الأولين أواصر متينة ، ترجع كلها إلى ترك الأعمال وإهمال التكليف ، والتهرب من الواجبات والتبعات ، والزعم بأن الإيمان منفصل عن هذا كله .

ولاشك أن هذه الإباحية في الدين ، هي التي هدمت المسلمين ، وأسقطت دولتهم .
فما يعقل أن يقوم بناء على هذا الانحلال الشائن .

والعلة في شيوع هذا المذهب جاءت من الإبقاء على الجدل الكلامي ، الذي دارت
رحاه بين الفرق الأولى للمسلمين . ثم دراسة هذا الجدل للعامة من المتعلمين ، والعامة من
الرعاة ، والغفلة عما سيخلفه من آثار سيئة .

في القرآن آيات وعد ووعد ، لو تركت في مجراها الطبيعي لأدّت رسالتها الحقّة
في توجيه النفوس إلى الخير ، ولحفظت على المسلمين قوتهم ودولتهم .

أما الآن فلا يروعي إلا أن آيات الوعيد يعرفها الكثيرون مقرونة بالتأويل
الذي يصرفها عن ظاهرها ، وبالتالي يسلبها أثرها التوجيهي المطلوب .

هذا التأويل القديم جهد العلماء في تقريره هدماً لمذهب الخوارج .

ففهم الجمهور منه نصفه الذي يحلوه ، وترك غلو الخوارج . . . إلى باطل المرجئة ،
وضاع لب الدين الصحيح وجوهر الحق الواضح في تيار هذا الجدل .

إن جماهير المسلمين الآن يجب أن يفقهوا دينهم كما أنزله ربهم ، وليتق الله
أولئك العلماء الذي يسردون جدل الفرق الأولى سرداً مجنوناً .

فربما وضوا السلاح المرفف في أيدي من لا يحسنون استخدامه ضد أعدائهم
بقدر ما يحسنون استخدامه في إيذاء أنفسهم وجر البلاء عليها .

ملحظة :

طب الأرواح كطب الأجسام . . . علم وفن .

يزور الطبيب رجلان مريضان يطلبان لديه الشفاء ، من ضعف يحسان به ، فيصف
الطبيب الغذاء الجيد لأحدهما لأنه مريض بالسل ، ولا يصف هذا الغذاء للمريض الآخر
إذ أنه مصاب بالسكر .

ومعنى هذا ، أن سبب الضعف هو الذي يملئ نوع الدواء .

ومثل هذا يقال في علاج الأرواح واختيار الأدوية الناجمة لمرضى القلوب .
فقد يصف الرسول صلى الله عليه وسلم دواء لشخص ما ، فيكون من الخطأ
أن نصف الدواء نفسه لشخص آخر .

لأن الرسول الحكيم وضع لهذه الحالة الأخرى دواء آخر يخصها .
المرءى الجاهل قد يسيء إلى الدين وإلى الناس ، بعدم بصره بأسباب الداء وأصول
الدواء ، فيصف للإيمان المصاب بفقر الدم رياضة تقتله ، ويصف للإيمان المصاب
بضغط الدم علاجاً يزيد سوءه على سوء .

إذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تغضب » فاعلم أنها لم تقل لشخص
بليد العاطفة ، فلا تقلها له ، وإذا قال « اتقوا الله وأجملوا في الطلب » فاعلم أنها لم
تقل لقعدة البيوت فلا تقلها لهم ، وإذا قال « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق »
فاحذر أن تقولها لرجل كسول في العبادات . . الخ .

إن قراءة النصوص — وخاصة السنن — دون معرفة الملابسات التي أملت بها
ليست باباً إلى العلم الصحيح ، ولا وسيلة إلى التربية الجيدة . .

أخرج ابن أبي خيثمة من طريق ابن إسحاق عن عمر أو عثمان بن عروة عن أبيه
قال : قال أبي — الزبير بن العوام — : أدنى من هذا اليماني — يعني أبا هريرة —
فإنه يكثر من الحديث عن رسول الله . فأدنيته ، فجعل يحدث . والزبير يقول
صدق ! كذب !

فقلت : ماهذا ؟ قال : صدق أنه سمع هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ولكن منها ما وضعه في غير موضعه .

أخطاء :

عندما قامت هذه الحرب^(١) أعطيت نفسي حق الباحث المدقق في أسبابها ونتائجها
وبدايتها ونهايتها ، وتبأت بمصير أسود لحضارة الغرب ونظمه ، كما تنبأت بمستقبل
زاهر لبلدان الشرق الإسلامي المتعب .

(١) الحرب العالمية الثانية

وجلس أنتظر من الأيام أن تصدق ظنوني . فإذا بالأيام تتكشف لي عن نقائص مزعجة .

وإذا بي أجد أن آرائ كلهما أو أكثرها خطأ في خطأ ، ولم تجد فلسفتي الفارغة شيئاً في تغيير الواقع .

تبين لي أنه ليس صحيحاً أن الحضارة الأوربية تنهار بمثل هذه السهولة ، أو تختفى في مثل هذه المدة ، نتيجة حرب أو حربين .

فإن هذه الحضارة قامت بعد قرابة مائتي عام من اليقظة العقلية الجارفة ، وغارت جذورها في بيئات المغرب إلى عمق بعيد ، فإن احترقت ثمارها يوماً ، تجددت أغصانها وثمارها ما بقيت عوامل الحياة موفورة بترتها .

وربما لم يزد لها الحصاد المتكرر إلا نمواً .

ومهما كان الحصاد شديداً ، فإن النمو بعده يكون شيطانياً عاتياً .

على أن الجوانب المادية لهذه الحضارة ليست شراً كلها ، وليس من مصلحة العالم الإتيان على كافة معالمها .

أما مستقبل الشرق الإسلامي فهو - برغم ما نؤمل - ليس واضحاً مشرقاً ، ذلك أن طول الأمل وكثرة الانتظار لا يردان السواد بياضاً فإن علل المسلمين التي أصيبوا بها كامنة بينهم كونا غريباً .

لقد اعتري بناءهم الحيوى من الضعف العقلي والأدبي ما يعتري الأجسام ، من فقر الدم ، وضعف الأعصاب ، ويوم يلح الإنسان بواذر الشفاء من هذه الأدوية ، يوم يلح في الأفق طلوع النهضة الصادقة ، ويوم يتحدث عن مستقبل الشرق الباسم .

أما بناء نصرنا على هزيمة غيرنا ، وانتظار النجدة من الغيب المبهم ، فذلك مسلك هو الحق بعينه .

نعم قد تكون هناك عوامل مساعدة ينتفع بها في تدعيم نهضتنا ، ولكن العوامل المساعدة ثانوية إضافية ، أما عوامل النصر الأولى فهي ما نقوم به نحن من تلقاء أنفسنا وبقوة سواعدا ، لا ما نحلم به من آمال .

المرتدية والنطيحة :

هذه قصة شهدت وقائعها ولم أعجب لها ، لطول مارأيت من أمثالها ، وأحسست من آثارها .

كان لرجل ترى ولد مريض البصر ، عاث الرمد في عينيه برغم جهود الأطباء المتوالية ، حتى كاد يأتى عليهما لولا بقية من ضياء يعرف بها الولد ألوان الحياة . وجلس الأب يوماً فقال لأصحابه : أنا وهبت ابني لله ، وسوف أدخله الأزهر بعد أن يحفظ القرآن !!

وماهى إلا أيام حتى كان الولد يرتل الآيات ويستظهر الصفحات على يد فقيه أعمى معروف بالمهارة !!

ولكن القدر العجيب لم يشأ أن يترك المسألة تمر على هذا النحو ، فإن الولد الذى حار الطب فى عينه ، بدأ يصح ، وكلما مرت الأيام كلما ازداد بصره حدة ، وازدادت أجفانه نضارة وإشراقاً ؟

وحار الوالد وجاشت فى نفسه شتى الخواطر ، لقد وهب ابنه للأزهر على أساس أنه أعمى أو شبه أعمى ، وذلك ما يجعله يقفه على التعليم الدينى ، من باب قول الله « وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ » .

أما الآن فماذا يصنع ؟

لم يطل تردده فماهى إلا أيام حتى كان الفقيه الأعمى طريداً والولد ملتحقاً بإحدى المدارس المدنية !

ذلك مبلغ عناية المسلمين بدينهم ، لا يهبون لتعلمه إلا طوائف من الناس ، فيها العمياء ، والموراء ، والمرتدية ، والنطيحة ، وما أكل السبع ! أما أصحاب المواهب العريقة والخصائص الدقيقة ، والوجوه الصبيحة ، والأجسام المكتملة ، فليس من البر أن يظفر بها دين الله ! !

أخشى أن يرتفع المستوى الصحى فى الأمة ، فلانجد من يتعلم الإسلام . . .

بين الرؤكفاء والرؤعباء :

قال لى صديق ذكى — ظلمته أوضاع الحياة — : لوأن هؤلاء القصار — أعنى قصار
الباع والرأى والتدبير — أحبوا أن يتطاولوا على غيرهم ، بطريقة لبقة هادئة لكان الأمر ،
ولتساحنا فى ارتفاع رؤوسهم على رؤوسنا !

قلت له : وما هذه الطريقة التى ترضاها ؟ قال : لو صعدوا على أكتافنا لما وجدنا
ضيراً فى أن نحملهم

ولو استووا على قوائم من خشب فاستطالت بها قاماتهم ، وامتدت بها أعناقهم
لما شعرنا بخرج فى استواء الصفوف حتى على هذا النحو !

أما الذى يملأ النفس حقناً أن يحاول هؤلاء الأغبياء تحطيم أقدامنا حتى نعبز
عن الوقوف .

ومن ثم يتطاولون فى الحياة كيف يشاءون !

قلت — وأنا أبنتهم — : يا صديقى إن الذكاء كالجمال ، ربما جنى على صاحبه .

ألا تعلم أن عمر نبي أحد الملاح من المدينة ، سدا للذرائع ؟

قال لى — ضاحكاً — : إذا أنصرف قبل أن تفكر فى تغريبى .

وذهب صاحبى ولم يذهب من نفسى وقع حديثه .

فقد طافت برأسى صور من تاريخنا الغابر والحاضر عرفتنى مدى الخطر فى تولية
المناصب الكبرى من ليسوا لها أهلاً .

فإن هؤلاء الضعاف لا يستعينون على ضعفهم باصطفاع الأكفاء واحترام
مواهبهم وتقدير كفايتهم ، بل تراهم يحقدون ويخذرون ، ثم يبذلون جهدهم فى إقصاء
كل ذى نباهة أو فى استغلال حاجته إليهم — إن كان ذا حاجة — فيصرون على
إذلاله وتقليم أظفاره .

وتأمل فى تاريخنا وفى مصارع كثير من أئمة العلم والدين ، تجد مصداق ذلك
واضحاً فى تهشيم الأغبياء لرؤوس الأكفاء ، لا لأقدامهم — كما قال صديق —
خشية على منازلهم التى قفزوا إليها فى غفلة الزمن .

ألا فلنحسن اختيار من يَلُونُ أمورنا ، فإن الغبي لا ينفع ولا يترك لغيره المجال كي ينفع .

فالنكبة به مضاعفة ، والمصيبة فيه فادحة .

لست أستكثر على الرجل الممتاز أن يعرف لنفسه قدرها وأن يقرر لها حقها !
وليست مبالغته في ذلك جرماً يؤاخذ عليه بعنف ، ولكنه قد يكون إفراطاً
ينبه إليه بلطف !

إنما الشيء الذي يستثير النفس أن يكثر الادعاء المريض ، وأن ترى الرجل في
منزلة غريبة يراها لنفسه ، فيصبح وليست له كفاية القواد ، ولا طاعة الجنود .
لأنه — في رأى نفسه — يجب أن يتقدم .

وهو يحرص على ذلك ، بينما لا تساعده مواهبه على الوقوف في الطليعة
وتحمل العبء !

ثم هو يكره أن يتراجع إلى مستقره العتيد وأن يتقبل — في طواعية — ما يليق
إليه من توجيه .

وقد يؤثر العزلة على العمل ، أو يركب العناد رأسه ، فيكون على نفسه وعلى الناس
شراً مستطيراً !!

هذا المرض شائع بيننا ، فإذا أراد قوم أن يؤسسوا جماعة — مثلاً — في بلدهم
كان هذا المرض هو أول عوائق تقدمها وأول أسباب انحلالها . .
وما أكثر ما نجد مظاهر هذا الادعاء الذي يجعل الرجل — كما قلت — ليس له
كفاية القواد ولا طاعة الجنود .

وعندما يشيع الادعاء تفقد الحقائق قيمتهما ، ويستبد الجهل بأصحابه ويتقهقر العلم
والخلق ، وتضطرب موازين الأمور ! !

وذلك هو ما كَوَّنَ بيننا جيلاً من الناس يحسنون ، إصدار الأوامر فحسب ،
ويريدون أن يشرفوا من بعيد على تنفيذها .

فإذا تغير الوضع وصدر إليهم أمر ، لم تجد أمامك تنفيذاً ، بل لا تجد أمامك أحدا .

هذه الأمة :

دعاية المسلمين لديهم لن تقوم لها حجة ، ولن تكون لها وجهة ، إلا إذا تغيرت أحوالنا العامة ، وبُدِّلَتِ الأرض غير الأرض .

فإن جمهور الأجانب ليسوا فلاسفة ، حتى يفصلوا بين الدين وأصحابه ، وحتى يهضموا أن مبادئ الإسلام شيء وعمل الناس بها شيء آخر قد يناقضها تمام المناقضة وقد لا تكون صلته بالإسلام أوثق من صلة الكفر بالإيمان ! !

... أمس رأيت جنازة تسير وأمامها صفان من المأجورين بملابس التشيع ، وخلفها جماعة يتصايحون بالتكبير ويتميلون على أنغامه ، ومن خلفهم عربات تحمل النساء النادبات ، وقد اختلط صراخهن بصياح الحوزية ، وهم يكيلون السباب لمحيرهم ، كي تضبط سيرها في موكب الموت الرهيب ! !
وقد لا يكون في هذا - على أنه منكر - ما يغرى بالتعليق ، لأننا ألفنا المنكر ، فقلما نفضب له . . .

إنما المؤسف أن خلف هذه الجنازة وملحقاتها ، كانت عدة سيارات تمشي ببطء وكانت تحمل فريقا من - الإنكليز - المحاربين .

ولمحت إلى جانب عجلة القيادة في إحدى السيارات فتاة ترتدى اللباس العسكري وتنظر إلى النسوة الصاخبات الباكيات ، وعلى فمها ابتسامة هائلة !

ودارت عيني بين وجهها ووجوه سائر الجنود المحملقين ، ثم بين أفراد الجنازة الشرقية الإسلامية المأبجة بما فيها ، وشعرت بسخونة تكاد تحرق رأسي وبحياء شديد يستولى على أوصالي . وطن في أذني صراخ الصارخين وضحك الضاحكين ، ثم أدركت أن كل شيء في هذا الشارع يتساءل عن وجودي ، كعالم دين ، أو رجل دين - كما يقولون - فيهمس : أي معنى له ؟ أي معنى له !

فنون الرعاية :

يظهر أن دعاية القلم واللسان مهما اتسعت فهي قليلة النتائج ، ضئيلة الآثار .
وقد يكون في الكتابة أو الخطابة شيء من الغناء إذا استخدمتا لغرض محدود ،
ولكن إذا كان الأمر يتعلق بإقامة نظام سياسى أو اجتماعى ، فالكتابة ، أو الخطابة ،
أسباب مساعدة ، وليست وسائل مباشرة للنجاح .

نعم قد تحدث الدعاية القوية بصحفها ، وخطبائها جواً يخلب أبصار الناس
بألوانه ، ومظاهره ، وقد يدوم ذلك أياماً أو أعواماً ، غير أن هذا الجو الصناعى
لا يلبث أن يزول ، كما تزول غيوم الدخان ، إذا دفعها الريح بصدرها فجعلتها — بعد
ما سدت الأفق — هباءً باطلاً .

ومع ذلك فالذين يميلون بطبائعهم إلى الجدل والثروة يؤثرون هذه الدعايات ،
ويعلمون عليه آمالاً واسعة وبرون الانتصار فى معركة كلامية أمراً له ما بعده فى
توجيه التاريخ ، والهيمنة على الحوادث ! !

وخصوصاً إذا كان الحق نصيب هؤلاء ، فيما يمتقدون ويدافعون . إنهم عندئذ
لا يدركون إلا منطق الكلام وحده ، وهذا — للأسف — ما وقع فيه المسلمون ،
وما اتجه إليه دعايتهم منذ زمن بعيد ، يحسبون أن مناظرة أهل الأديان الأخرى ،
والانتصار عليهم فى نقاش علمى حاد ، يجدى على الإسلام كثيراً .

وجرّم ذلك إلى ترك العمل الصامت ، وهجر المسلك المغرى بفضائله .

على حين أن المبشرين المسيحيين جعلوا الأساس الأول فى دعايتهم عكس هذا
الانجاء ، فجعلوا من الاشتغال ببعض الأعمال الإنسانية وظيفتهم الدائمة . واختبأوا
بين ما توحى إليه هذه الأعمال فى النفوس ، ثم بدأوا يقومون بدعايتهم .

ومن ثمّ فتحت المدارس والملاجئ والمستشفيات ، وأشرفوا على تحقيق غايتها
الأصلية ، والتبعية بمناية ونظام ، وساعدتهم على المضى فى طريقهم أنهم اختيروا
بطريقة غير الطريقة التى يختار بها دعاة الإسلام عندنا ؛ طريقة اختيار
المجازين فى أجسامهم ، والقاصرين فى ثقافتهم ! . ألا فلنراجع أنفسنا ! إن الدعاية
للإسلام لا معنى لها إلا بعد إقامة دولته وتكوين أمته ، وحشد الناهيين من بنيهِ
لخدمته ، وإلا فإن الكلام الكثير لن يكون إلا لغواً .

متاعب الحياة :

لما انتهى العام السابق ، ووقفتُ على أعقابهِ أودع لياليهِ ، بجلوها ومرها ، بدرت مِنِّي لفظة تدل على الشعور بالضيق ، وعلى الإحساس العميق بما قد يكون أصابني من المتاعب والآلام :

وما كاد يساورني هذا الخاطر الضعيف المهزوم حتى راجعت نفسي ، وعادوني رشدي ، فعلمت مقدار ما أفسد حياتنا من معاني الضعف الإنساني .

إنني أشبه الطفل المدلل يصرخ للحوادث التافهة ، ويشور لأقل المضايقات ! .
والحقيقة أنني في ذلك كسائر المصريين — وربما كسائر الشرقيين — أنسوا بحياة الراحة ومعيشة الخفض ، فهم لا يطيقون أى تمكير لها !

وأرهفت إحساساتهم جدا فهم يحسّمون ما يمسهم من أشواك الورود ، فإذا بها طعنات رماح ، وتذكر قول القائل في وصف هذا الضعف العجيب .

خطرات النسيم تجرح خديه ولس الحرير يدمى بفتاه
ونتيجة هذه الدعة التى ألغناها كانت وخيمة فى نظرتنا للأمر ، بل كانت
وخيمة فى أوضاعنا الاجتماعية ، والسياسية .

فالموظف الذى يضطرب إذا نقل إلى الصعيد ماذا نقول فيه إذا قارنته بابن لندن
أو بنت لندن التى تجوب شوارع القاهرة آمنة ! ؟

والشاب الذى يشعر بالخطر على حياته الغالية لمجرد الوهم ، ماذا يكون أمره إذا كلف
— كما يكلف غيره — بأن يظل أياما طويلا فى قلب غواصة تجوب أعماق المحيطات ،
وتكون بمن فيها كالذئب الجائعة ترتقب الفرائس لتفكض عليها .

والرجل الذى يجزع من خسارة قرش ماذا يكون موقفه إل جانب من يفضل
نصف بيتته على الاستسلام للذليل . ؟

لنكن أقوىاء لا تهزنا النوائب ، ولا تقع منا إلا موضع أقدامنا .

لماذا لا يحيط بشغاف قلوبنا إطار من الصلابة والقوة يحمينا من الخضوع لمتاعب
الحياة ، ويثير فى دمائنا غريزة العناد والكفاح ! فإما سدنا الحياة ، وإما فقدنا الحياة .

الأغاني :

من الخير أن نعلم شيئاً عن منازع الطبيعة الإنسانية التي لا يصح أن تقاوم ، لأنه لا معنى لمقاومتها ! والغناء بعض هذه المنازع التي ترتاح إليها النفس وتسلم إليها الجماهير مقادها ، وتجذ فيها متنفسا لمواطنيها المكبوتة .

والكثرة العظمى من الناس يصغون إلى الأنغام المتسقة والأصوات الطروب ، ويتفتح المستعصى من مشاعرهم على هذه الأصداء الشجية أو المرحية .

وربما نسوا متاعهم وتجدد نشاطهم واستأنفوا السير الجاد في مواكب الحياة ، كما تستأنف الإبل اندفاعها في قلب الصحراء على حذاء القائد اللبيب .

وقد فهم قادة الأمم هذه الطبيعة ، فاستغلوا الأغاني في سبيل تدعيم نهضتهم والتمكين لها من أفئدة الناس .

وكان للصحابة غناء طيب ، حفروا الخندق حول المدينة على نبراته ، وذرعوا الصحراء الفسيحة وهم يرددون مقطوعاته .

وللشعوب المتحاربة الآن غناء أدى رسالته الرهيبة في دفع أبنائها إلى الميدان الدامي ! !

ونحن لاننكر الغناء ولا نتجاهل أثره ، وكثيرا ما ألمح طوائف الشباب تسمع وتستجيد ، فلا يؤسفن إلا شيء واحد !

هو أن هذا الاستماع يثير دماء الشهوة ولا يثير دماء التضحية .

ويهيج عواطف اللهو الخبيث ، ولا يهيج عواطف المرح الطيب والنخوة العالية . إننا لانحرم الشعوب من متعتها ، ولكن هذه المتعة ستقتلها إذا تناولتها بهذه الطريقة المجنونة .

إننا بحاجة إلى الأغنية الجادة ذات المعاني الكريمة والأهداف النبيلة .

فلنوجد هذه الأغاني أو هذه الأناشيد ، ولنزاحم بها ما يملأ حياتنا الشرقية من لغو وعبث . . .

إن الشعوب دائماً الحركة فإن لم يتحكم في حركتها أهل الخير تحكم فيها أهل الشر .

وهي دأمة الغناء ، فإن لم يغن لها العقلاء غنى لها السفهاء .

نفسيات الشعوب

للسعوب نفسيات عامة تختلف عليها شتى المشاعر ، وتتوارد عليها الأحوال المتباعدة ، وتستقبل بها ما يعرض لها من المشكلات على النحو الذى تشاء من حفاوة أو جمود ، ومن استخفاف أو جد .

وهذه النفسية غامرة قاهرة ، تفرض مسلكها على الجماهير ، فلا يكاد ينجو من ضغطها أحد ، ولعلها هي التى أوحى بقول القائل .

وما أنا إلا من غزية إن غوت غوبت وإن ترشد غزية أرشد

وهي كذلك متغلغلة مطردة تتناقلها القرون ويتركها السابق لللاحق ، ويبقى طابعها واضحا فى التقاليد والعادات ، وسائر عناصر البيئة .

والذى يهم الدعاة من هذا الكلام أن يعرفوا عوارض هذه النفسية فى أمتنا وأن يتبينوا الأصيل فيها والطارىء والحديث فيها والطيب .

فإن ذلك أدنى إلى نجاح دعايتهم !

فى بعض الأحيان تكون نفسية الأمة فى حال استرخاء وفتور ، نتيجة لبعض الحوادث المفاجئة ، فقلما تكثرت لها يوجه إليها من نداء أو تلتفت لها يطلب إليها من عمل .

وفى بعض الأحيان تضطرم مشاعر الأمة وتتحرك بقوة تسمعصى على كل توقف .

والدعاة الأذكياء يلبسون لكل حال ثوبها ، فإذا لم يستطيعوا مواجهة أمر لم يعجزهم الالتفاف حوله والإحاطة به ، فلامم الذين يقفون فى مد السيل ، ولاهم الذين ينكشفون فى جزره .

ونفسية المصريين على جانب من التعقيد الغريب ، ولذلك يحار معها من لم تطل خبرته بها .

كثيراً ما يخفى تحت مظهرها الوادع الساخر الباسم قدر كبير من العنف والضيق والألم ! .

ربما تجد هذه الأمة هادئة ، فسل نفسك ، أهو هدوء رضا ، أم هدوء انتظار ؟ وربما تجدها غرقت في جو نفعى مادي ، فسل نفسك : أهى سَوْرَةُ اللذة ، أم هى النفرة من الألم ؟

ومن الخطأ أن تحسب الأعراض الطارئة دليل علة قديمة في نفسية الأمة ، فيدخل اليأس إلى قلبك ، فالحقيقة أن جوهر الأمم قلماً يلتوى مع اليد الصانع ، وليس يتهم الأمم بالنقص إلا من جهل أساليب العمل معها أو استطال أمده .

قيمة الرعاية

أثار التفاتك منظر بائع فواكه يسوق عربته الصغيرة أمامه ، وعليها صفوف مرصوصة متسقة من الثمر الجيد ، قد وضعت الواحدة منه إلى جانب الأخرى بعناية ودقة ونظام ، لم يضطرب عقده على طول ما انتظم فيه من مئات وألوف .

فكان المنظر — بحق — مغرباً على الإعجاب إن لم يكن مغرباً على الشراء .

إن هذا الرجل قد أفرغ وسعه في إجادة عرضه لبضاعته التي يرتزق منها .

وهنا شعرت بخاطر سريع يمترض تفكيرى ، ويلوى عنانه إلى ناحية أخرى . .

سمعت سؤالاً خافتاً ينبعث من أعماق نفسى : هل أنت — كمال دين — تنظم للناس بضاعتك ، وتحسن عرضها على أبصارهم وبصائرهم ، لتبعث في نفوسهم الإعجاب على الأقل إن لم تفرهم بالإقبال والقبول ؟

وشعرت بحيرة في الإجابة ! ومعنى هذه الحيرة أن الجواب بالسلب !

وبدأ لي كأن علماء الأديان يكتفون بما لها من قيمة اسمية طنانة ، وبما لهم فيها من منازل متوارثة عالية ، فهم لا يحشمون أنفسهم مشقات العرض المنظم الطويل لما لديهم من بضائع ، هى — لا ريب — أنفس ما في الحياة من عروض .

ماذا يتصور الناس عند ما يسمعون صوت الدين ، أو عند ما يلحون سميت رجاله ؟

إن أذهانهم تعترىها صور مبهمه للحرمان والتزمت ، ورسوم فاترة للسكون
الموحش ، والفناء القريب .

وتلك التصورات الخاطئة وحدها تكفى لهدم كل مايجب للدين من محبة خالصة
عميقة ، وتكفى لصرف النفوس عن مبادئه وفضائله .

فالدعاية للدين ، تشبه أن تكون معكوسة النتائج لا تغرى الرائي بالحجى
إلا لتغريهم بالانصراف ، وهذا فشل ذريع يحمل تبعته العارضون المفرطون .

إن حسن العرض طابع العصر الحديث والمذاهب المتكاثرة التى تتراكم فى
زحام الحياة تتمتع بدعاة أقوياء يشدون أزرها ، وقيمون أمرها . .

ومن الخير لعلماء الدين أن يهجروا — إلى غير عودة — حياة التراخى والطمأنينة ،
وأن يُقبلوا على مألوفهم ، يعرفونه على حقيقته ، ثم يعرفون الناس حقيقته من غير
تزيد ، ولا انتقاص .

فن الظلم الفاسد للجهال الغالى أن يلف فى بالى الخرق ، وأن يتراكم عليه
الوسخ والتراب .

ومرة الأديان :

حاجة النفس الإنسانية إلى الدين كحاجة الجسم إلى الغذاء ، ووجود الدين فى
المجتمع الإنسانى ضرورة ماسة ، يفقد المجتمع — إن فقدها — عقله وأمانه وتوازنه
والأديان الكبرى تقوم حقائقها على أصول سماوية ثابتة ، وتعتمد على الوحي من الله
عز وجل . .

أما الأديان الأرضية الأخرى فهى — فى الحقيقة — فلسفات نفسية ، صادفت
فى بيئاتها رواجاً وقبولاً جعلها تشبه الدين ، وليست بدين .

وكلا منا الآن عن الأديان السماوية الحقّة ، ومبلغ تقارب حقائقها ، ومدى صلة
الناس بها .

فإن الأديان تواجه من فوضى الإلحاد والإباحية حرباً ، إن لم تتحد أمامها
ذهبت فيها .

والناظر إلى الإسلام ، وإلى أركانه الخمس ، وإلى سائر شرائعه يراه قد وضع
(١٤)

الأساس لوحدة دينية يصح أن يلتقي الناس جميعا عليها ، كما التقت بها الهدايات الأولى تلك الهدايات التي بشر بها جميع الأنبياء وظهرت بها كتبهم ووصاياهم ، وانتفع الناس بها حيناً ، ثم زاغوا عنها حيناً آخر .

الإيمان بالله وحده عامل مشترك في كل دين ، والقرآن يقول « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » .

وكذلك تطهير النفس بإقامة الصلاة ، وإعانة الفقراء بإيتاء الزكاة ، والقرآن يقول عن أمم الأنبياء السابقين « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ » .

والصيام ليس بدعا في التشريع الإسلامي ، ولكنه طاعة روحانية عريقة في قدمها « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » . والحج عبادة شرعت على عهد شيخ الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، وهو الذي بنى الكعبة ، ودعا الناس إليها

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة لم تخل منها رسالة ، ولم يعذر في تركها جبر ولا راهب ، من أصحاب الديانات الأولى .

والدعوة الحارة إلى مكارم الأخلاق ، والبعد عن الرذائل .

بل العقوبات الرادعة في كثير من هذه الجرائم تكاد تكون واحدة في الأديان كلها ، كما تتشابه الملامح المتوارثة بين أدنى الأقرباء .

إن وحدة الدين في كل زمان ومكان ، هي لب الإسلام .

وعوامل المسألة والتقريب بين المتدينين في متناول اليد ، لمن يبتغى وجه الله ، والمسلمون من جانبهم أسرع الناس إلى محو بذور التفرقة والشقاق كما يأمرهم بذلك دينهم الذي يجعل من مقومات الإيمان الاعتراف بجميع الأنبياء ، وبجميع الكتب المنزلة .

وهل الإسلام إلا تأكيد للحقائق السليمة في الديانات الأولى ، وحث على الاستمساك بها ، وإزالة لغبار القدم عما نسي من تعاليمها ، وعتب على المقصرين من أبنائها يصح أن يوجه مثله ، وأشد منه إلى المسلمين أنفسهم إذا ما قصرُوا في حقوق ربهم وخرجوا عن هدى كتابهم .

إن القرآن يصح جعله كتاباً للأديان — كلها كما رأيت — وإن من مصلحة العالم أن يلتفت المتدينون فيه إلى مبادئهم ، وإلى مبادئ إخوانهم ، وأن لا يمكنوا للشياطين الإلحاد والعصيان من الظفر بمصير الأرض ، والاستيلاء على أزمة الأمور فيها .

عمرو ولكن له فضل :

أستطيع أن أقول إنني استفدت من أعدائي بقدر ما استفدت من أصدقائي .
فأنت كان بر هؤلاء بي قد دفعني إلى الإجابة ، وتطلب الكمال ، لقد كان كره أولئك لي يدفعني إلى الحذر وتوقى النقص ! .

والمرء تتيسر له سبل الاستقامة بين عوامل الرغبة والرغبة ، فقلما يحيد أو يتراجع .

والهيئات والأحزاب بإزاء هذه الحقيقة كالأفراد ، وليس يغير من أثر هذه الحقيقة أن الناس يكرهون أعداءهم ، ويودون أن يختفوا من أمام وجوههم .
فكم من هيئة تريت في حكمها ، خشية امتداد الألسنة إليها ، وكم من حكومات لزمت الصواب خشية ثورة المعارضة عليها .

ومن ثم يجب أن نرب أعداءنا لنستفيد منهم كما أننا نربهم لتتق غوائل حقدهم ، وكوامن خصوصاتهم .

سمعت مرة أحد أصدقائي يتكلم — بحماسة — عما صنعتته دول الغرب بأمر الشرق فقلت له : يا صديقي لست أظنك جاوزت حد الصواب فيما ذكرت .

إن هؤلاء الناس أهانونا حقاً ، ولكننا كنا نياماً ، فاستيقظنا على ركل أقدامهم ، وصفع أكتفهم .

ومن الخير لنا أن نستفيد من بواكير هذه اليقظة ، وأن نزيل بقايا النعاس من أجفاننا ، ثم نأخذ بعدئذ بتلايب هؤلاء القوم لنعاتبهم أو لنحاسبهم على أسلوبهم البارد في إيقاظ النائمين !

أما طريقي أنا في فهم الأمور ، فهي تلقى تسعة أعشار اللوم على النائم الغافل ، ولا تعني بتوجيه العشر الباقي إلى الموقظ الشرس .

ذلك لأنى أقدر الفائدة التى تصيبنى من أعدائى ، وأنتفع بها فى تقويم عقلى ،
وتدعيم شأنى .

ومن الخير لنا - نحن أبناء الشرق الإسلامى - أن نراجع أنفسنا قبل أن
نراجع غيرنا . وأن نداوى أخطاءنا على عجل قبل أن نفكر فى الانتقام ممن
نقدوا إلينا منها .

وإذا ضربك خصمك على عضو مريض ، فاستشف أولاً ... ثم انزل معه فى
ميدان المعركة ، وذلك طريق النصر .

إن أقواما محصتهم الشدائد فحمدوا مغبتها بعد ما كرهوا وطأها فلنستفد من
الخصومات التى تقع لنا ، فكم تهذى عين الناقد الناقم ، وكم تزل عين
الصديق المغضى .

موظفونه .

كنت أسير يوماً ، فسمعت اثنين يتجادلان . يقول أحدهما لصاحبه : أنا لا أفضى
لأحد من الناس عملاً إلا إذا أشعرته بأن دون ذلك عقبات صعبة التذليل . وأن
مصلحته معقدة ، ليس فى إمكان أحد حلها ، فإذا أحس بالرجوع وأخذ يلح فى الرجاء
قت مقبراً ما متناقلاً ، وأخذت أفضى له مسألته قليلاً قليلاً ، لى أطيل عليه أمد
بلائه ، وأستمع إلى شدة رجائه ! !

حتى إذا ما انصرف أدرك أننى صاحب الفضل عليه ، ووجدت أنا فى ذلك
ما يثبت مكانتى ، ويفخم وظيفتى .

وكان صاحبه يستمع إليه وهو يومئ برأسه ، موافقاً على مسلك صاحبه الموظف
الأمين على مصالح الجمهور . ويؤكد أن الناس يستحقون هذه المعاملة ، وأن هية
الموظف لا تقوم إلا بها ...

وكنت أستمع إلى هذا الحديث ، وأنا أتميز غيظاً . وقلت : لو أن لى سلطة

حكام القرون الوسطى لأمرت بضرب أعناق هؤلاء الذين يأخذون مال الأمة ، ليعذبوا أبناءها ، ويهدروا حقوقها ، ويكتبوا مشاعر الأنفة والإباء فيها !!
ومالى أتمنى سلطة حكام القرون الوسطى ، وفي أحداث الأيام المعاصرة ما يريح من هذا البلاء .

لقد قرأت منذ شهور حكما روسيا بإعدام نقرئت عليهم التلاعب بأنظمة الملاجىء ، والإساءة إلى من فيها ، فتقرر قتلهم بتهمة خيانة الشعب !!
إن خيانة الشعب أمر خطير ، وجرم دنى ، لا ينبغي أن تأخذنا فيه هواة ، بل ينبغي أن تحدد عناصر الجريمة فيه بدقة بالغة ، فإذا ثبت على أحد من الموظفين أنه يستغل وظيفته لإشباع شهوته ، وإرضاء غروره ، جعلناه هدفاً لنكال أليم .
وبذلك تصان المصالح العامة ، وتقضى حاجات الناس فى هدوء وكرامة .
أعتقد أن فى مصر عدداً من الأطباء يكفى لمداداة المرضى جميعاً .
وعددا من المدرسين يكفى لتعليم الأمين جميعاً .
وعددا من الموظفين يكفى لتنظيم وادى النيل كله من منبعه إلى مصبه .
ولكن وجود هؤلاء جميعا لم يستأصل المرض ، ولا الجهل ولا التراخي فى إتمام الأعمال .

وعلة ذلك واضحة . فحتى يؤدى كل واجب على ما يرضى الله ؟ .

ترثرة بالاصلاح :

بعض الناس يجدون مهارة ملحوظة فى وصف الآفات الخلقية والاجتماعية التى تشيع بيننا . ولكن قلوبهم لا تكاد تهتز لشئ مما يقولون .
فهم يقفون عند حد النعى على الناس ، ووصف ما يقع من تصرفات سيئة .
وربما جاوزوا ذلك إلى بعض تمنيات سطحية عن إصلاح الفاسد ، وإقامة المعوج ، ثم لا يساهمون — بعد ذلك — بجهد ما فى نهضة إصلاحية ، ولا يهتمون بعمل ما ، فى سبيل تغيير ما ينكرون .

وهؤلاء — في نظري — مجردون من معاني الدين الصادق ، والوطنية الصحيحة .
ولو أن سائحاً أوريا جاس خلال هذه الديار ، وتعرف أحوال أهلها عن كذب ،
وشاهد حياتنا العامة من جميع نواحيها ، لاستطاع — ما دام له عين تبصر ، وفؤاد
يعقل — أن يعرف كثيراً من أخطائنا المنبثة في كل مكان ، والتي صارت سمّة لا تزول
في حياة هذا المجتمع المريض . بضعة شهور فحسب تجعل الأوربي الطارئ الغريب
يعرف الكثير عنا إن لم يعرف كل شيء .

فكيف بالمصري الذي يحيا على هذه الأرض من مهده إلى لحدّه !!

لا جرم كان لطبائع قومه أبصر ، وبوجوه الخلل فيها أعلم .

فالوقوف عند سرد العيوب الشائنة ، والإفاضة في شرح أعراضها وآثارها
لا يدل على شيء من الكفاية ، ولا ينبئ عن ذرة من الإخلاص ، وهو ضرب من
الشقشقة يتقنه بعض الناس ، وخصوصاً المرضى بداء القنوط . لا تكاد تستمع إلى
أحدهم حتى يلقى عليك خطبة طويلة عما أصاب الأخلاق من انتكاس ، وعما أصاب
المجتمع من تدهور ، وعما أصاب السياسة من ضلال .

ثم هو يعد لا يتحول من مكانته تلك .

أقصى ما لديه هذه المعرفة المجردة ، وكأنه يُدلُّ بها على من حوله ، فهو يظن إليهم
كأنه فوق قّة .

وإنما يتفاوت الناس بعد معرفة الداء في البحث عن العلاج . وفي السعي إلى
إيصاله لكل عضو مريض من جسم الأمة ، وفي السهر على ذلك حتى تتم السلامة
وتعود العافية المفقودة ، وتستأنف الأمة طريقها إلى الغاية العليا التي ننشدها وهي
أشد تماسكاً وأقوى على مواجهة صعاب الحياة .

كيف نعيشهم وكيف نموت (*) :

هناك شبه قريب بين حاضر المسلمين المبعثرين في قارات الأرض ، القابعين في أماكنهم من « الدنيا القديمة » وبين ماضى المسلمين القلائل الضعفاء يوم استجابوا لدعوة النبي العربي ، فما كادوا يؤمنون برسالته حتى وقعوا في مهاب عواصف حمقاء من الحيف والخسف ، روعت يومهم وغدهم ، وأباحت مالههم ودمهم ، وجعلت آفاق الصحراء الفسيحة أضيق في أعينهم من سم الخياط !

كان أعز المسلمين يلتمس (الحليف) القوى أو الجار العزيز ، ليدرك في ظله بعض الأمان على نفسه وأهله . وكان زمام الحياة الاقتصادية والسياسية في الوطن الخاص ، بل الدنيا كلها — بعيداً عن أيدي هذا النفر من المسلمين ، وأنّى لهم به ؟ بل أين هم منه ؟ وهم قليل مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس ! . كانوا يعيشون على هامش الحياة كما نعيش نحن الآن ، أو لعلنا نحن الذين نعيش على هامش الدنيا كما كانوا يعيشون ! .

وأياً ما كان الأمر ، فإن هذه الحياة التي فقدوها فسمعوا إليها — إذ كرهوا العيش على هامشها وفقدناها نحن ، ولم نزل نضطرب في حدودها المهيئة ، إذ لم نسع بعد إلى التخلص منها .. هذه الحياة المفقودة المنشودة — هي الحياة في ظل دولة مستكملة الحرية والسلطان ، تأخذ لربها ولنفسها ما تريد ، وترسل جندها في أى ميدان ، ليعودوا بالنصر الغالى ، وليفرضوا على الناس شروط المنتصرين . ولقد جاهد المسلمون الأولون بضعة عشر عاماً حتى استطاعوا أن يحققوا هذه الأمانى ، وأن يسجلوها يوم بدر تسجيلاً لا يزال يعجب له التاريخ .

أما نحن فلا تزال أماننا أمور وأمور ، ولئن كان الشبه قريباً من ناحية بين المسلمين الآن ، وبين المسلمين قبل بدر ، فهو بعيد من ألف ناحية أخرى . فهم ضعفوا بقلتهم ، على حين ضعفنا بكثرتنا . وهم عزوا في أنفسهم ، على حين استكننا في أنفسنا .

(*) قيلت في ذكرى بدر .

وهم منذ دخلوا الإسلام رفضوا كل وضع جائر ، وتربصوا به الدوائر .
أما نحن فمذ ولدنا في الإسلام لم نزل نغمض العين على القذى ، ونتفلسف في تحمل الأذى .

وهم بنوا على العقيدة الراسخة آمالهم وأعمالهم ، وبنينا — نحن — آمالنا ،
وأعمالنا على المآرب والمنافع .

فكان من البدايات أن يبعد عنا النصر إذ فرّت من بين أيدينا أسبابه ،
وأغلقت دوننا أبوابه .

وكان من البدايات أن يبلغ المسلمون الأولون بعد بضعة عشر عاما أول نصر
يملكون له ، فإذا بدولتهم مكيمة البناء ، وإذا بدعوتهم خفاقة اللواء .

ومن الذي أحرز النصر؟ رجال قلة ، يتسع بهم مسجد صغير من مساجد القاهرة .
بل إنهم يتيهون في صحن مسجد من المساجد الكبيرة التي توجد هنا وهناك ،
وتردحم كل أسبوع بالآلاف .

ولكنه النصر العزيز ظفر به من استحقوه بأخلاقهم وبطولاتهم .
ولم تضن عليهم عناية الله به ، بل جملته لهم مكافأة باهرة ، ومعجزة القاهرة « قَدْ
كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الثَّقَاتِ فَمَثَلٌ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَأُخْرَى كَافِرَةٌ
يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً
لِأُولِي الْأَبْصَارِ » .

قلت لنفسى : ما أحوج المسلمين إلى من يعرفهم دينهم ! ثم فكرت مليا ، فإذا بي
أقول : بل ما أحوج المسلمين إلى من يعرفهم دنياهم !!

قد يكون للوعظ بالدين موضع بين قوم انشغلوا بإتقان حياتهم ، وانكبوا على
عاجل دنياهم ، فهم بحاجة إلى من يذكرهم بالله والدار الآخرة .

أما المسلمون فهم أحوج إلى من يعلمهم كيف يعيشون . .

والأفهل أحصيت ضحايا جرائم القتل التي حدثت من نحو ستين سنة ،
أى من بداية الاحتلال الإنجليزي إلى الآن .

إنها تبلغ عشرات الألوف .

فهل أحصيت عدد القتلى في موقعة التل الكبير ، وفي ما بعدها من محاولات لاسترداد سيادتنا القومية ؟ .

وهل رأيت بهذه المقارنة المادية كيف أن ضحايا النقص الخلقى والسقوط الاجتماعى أضعاف ضحايا الاستقلال المنشود ؟ ؟ .

وإن هذه الدماء التى سفكت للشيطان لو سُفِكَ مثلهما فى سبيل الله لئلتنا عزتنا وكرامتنا من زمن بعيد . . .

ولكننا لم نزل بحاجة إلى تعليم واسع ، وتربية عميقة ، وتوجيه سديد يفهمنا كيف نعيش ؟ وكيف نموت ؟ ولئن نعيش ؟ ولئن نموت ؟

غلط يجب أنه بحارب :

يوجد خطأ جسيم فى تفكيرنا الإسلامى ، وقع فيه القدامى ووقع فيه المحدثون ، وكان له أثر وخيم على وحدتنا الأولى ويوشك أن يكون له نفس الأثر على نهضتنا الحديثة . . .

هذا الخطأ يرجع إلى كثرة التفكير أو انعدامه فى حقائق الكون ، وخصائص مادته وأحوال المخلوقات المختلفة . مما جعل قسماً كبيراً من ميراثنا الثقافى الإسلامى بحوثاً لاهوتية نظرية خاض فيها المتصوفة والمعتزلة وساهم فيها علماء الكلام من سلف وخلف ، على حين قلت العلوم الطبيعية والمعارف الكونية العلمانية ..

مع أن منهج القرآن الكريم يقوم على عكس هذا الاتجاه تماماً ، فهو يصرف العقول عن البحث فى الخالق إلى البحث فى الخلق ، ويرفض الكلام عن الروح ويرد لسؤال عن حقيقتها ، ويلج فى لفت أنظار الناس إلى ما فى العالم من آيات وآثار وروائع وبدائع وما أكثر ما يقول : « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض . . . » « أولم يتفكروا فى أنفسهم . . . » « أولم يسيروا فى الأرض . . . »

لكننا — للأسف — لم نهتد بضوء الوحي فى مسلكنا ، ولم نحدد على منهجه الحلى خطتنا . . فما أسرع ما أصابتنا لوثة الأقدمين فى آرائهم وأفكارهم ، فإذا بفلسفة الإغريق الخرافية تترجم إلينا ، وإذا بالعقل الإسلامى النظيف يلوث بضروب من

السفسطة والجدل والأوهام المتصلة بذات الخالق وحقيقة الخلق ، واخترق المسلمون — حين عاجلوا ذلك — أسواراً مضاعفة القوة من نصوص القرآن والسنة حتى انتهى بنا المطاف أخيراً — ونحن أمام نصوص مؤولة شر تأويل ، وكتب فيها من حقائق الإسلام القليل ، ومن لغو أثينا وروما أكثر من هدى مكة والمدينة .

والمعجب أن عوام المسلمين الآن يعتقدون كثيراً من هذه الأفكار ، فمنهم من لا يحسن كسب قروش يقتات بها ويريد أن يكلمني عن وحدة الوجود ، ومنهم من لا يحسن أن يخط الألف ويريد الكلام في حقيقة الصفات العليا ، ومنهم من لا تميز بين تصرفه وتصرف الحيوان ، ومع ذلك يخوض في فلسفة الجبر والاختيار ، أو فلسفة المعرفة والعمل .

وليت شعري لو اتجه التفكير الإسلامي اتجاهها علمياً منتجاً .

أما جند هؤلاء وأمثالهم لخدمة الدولة ونفع المجتمع ، بدلاً من هذا الهذر البعيد عن نصوص الإسلام وعن روح الإسلام والذي يعتبر أصلاً هاماً من أصول تأخرنا المعيب ؟ .

إيمان طويل :

لقاء الله حق لا يعرفه شك ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يظلَّ في إيمانه بربه وعمله له حتى يدرك هذا اللقاء الذي لا محيص عنه . قال عز وجل . « وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » .

والحكم في النزاع الدائم بين الإيمان والكفر ، بين العدالة والظلم ، بين الرحمة والقسوة ، لا بد من إقراره وإن طال دونه المدى .

وهبه لم يصدر إلا بعد لقاء الله . فإن تأخره هذا لا يردُّ حقه باطلاً .

وبين الحاضر الذي يحتدم فيه هذا العراك ... والغد الذي يصدر فيه هذا الحكم بون واسع أو ضيق ، يُبتلى فيه البشر بما شاء الله من خير وشر . فمن الناس من يغره حاضره فيحسبه كل شيء .

ومنهم من يوقن بالله واليوم الآخر فيأخذ حذره ويُعد أهبطه .

على أن الله — سبحانه — يؤكد لنا في آياته أنه لن يدع الأمور بغير فصل

ولن يترك البشر من غير جزاء . لماذا ؟ قال :

« لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ »
ويومئذ تَمْخِضُ الْأَوْهَامُ الْكَبِيرَةُ فَإِذَا بِهَا هَبَاءٌ ، وَتَنْقَشِعُ السَّحَابُ الْخَادِعَةُ
فَإِذَا بِهَا جَهَامٌ .

« حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا .
قُلْ إِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا » .

في عهد ما قبل الهجرة الدعوة الإسلامية كان المؤمنون يتعرضون لفتن مقلحة
ومحن متردفة ويتقبلون بين البأساء والضراء ويسيرون في طريق خُفَّتْ بِالْكَارِهِ
وفرشت بالأشواك .

كان خصومهم شديدي الجرأة عليهم . وزادهم ضراوة في عدوانهم أن الحق
أعزل وأن ناصريه ضعاف وأن أشياعه قلائل :
والقوة المجرمة إذا أمنت العقاب واطمأنت إلى العاقبة انسابت في غيها
وأوغلت في إسائها لا يردها عن طغيانها شيء .

وقد كلف المسلمون أن يصبروا على هذا الحاضر المؤسف وأن يؤملوا في مستقبل
أكرم لدعوتهم ولأنفسهم .

وحذّر الكافرون من غد تتبدل فيه الأحوال وتفرغ فيه أيديهم من أسباب
البطش ، ويومئذ يكونون أذل جانباً وأقل عدداً .

على أن النفوس ليست سواء في تحمل ما يفرضه الإسلام من مصابرة وثبات .
وكثيراً ما تجيش بالأفئدة آلام مبرحة كلما اشتد الضغط وغام الأفق وطال البلاء .
وقد تطلق من النفوس همسات خافتة أو صيحات راعدة . متى يجيء هذا الغد
المرتب؟ متى تبدو معالم فجره وسط هذا الظلام؟ متى تقدم طوابع سمعه وسط
هذه التحوس؟ متى؟ . . .

يبد أن الله عز وجل يقطع هذا التساؤل ويرد المسالين إلى الصبر المربى على يومهم
ويجعل تعلقهم بالحق الذي يدفعون عنهم أشد من تعلقهم بالمستقبل الذي يتنفسون فيه .
ومن ثمَّ فهو يمكر عليهم الأمل في فوز قريب ونصر سريع . ويربهم على

أخلاق المجاهدين الذين يعملون حُبًّا في العمل وحده . وإن بعدت الثمرة أو طاحت بها الريح .

روى عن خباب بن الارت قال : شكونا إلى رسول الله وهو متوسد بردة في ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالنشار فيوضع على رأسه فيشق نصفين ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمة وعظمه ! ما يصده ذلك عن دينه . . . والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون .

في ميدان الكفاح لنصرة دين الله كان القلب الساقط للمؤمنين حقا لا ريب فيه . ولكن أقواما من المؤمنين ماتوا قبل أن تفر عيونهم برؤيته . من هؤلاء سيد الشهداء حمزة الذي مزق جسمه في الهزيمة الهائلة التي نزلت بالمسلمين على جبل أحد ومثله مئات الأبطال هلكوا قبل أن ترفع للحق راية ولم تكن هزيمة الأشخاص — ولن تكون — علامة على هزيمة المبادئ ولا سقوطها دون الغاية المأمولة لها . .

ومن ثم عالج القرآن بعنف ركوز أصحاب الدعوات إلى حلٍّ عاجل لما ينزل بهم أو لما يفعلهم أعداؤهم . وعلم الله نبيه أن يتعهد نفسه وصحابته بالأعمال الإيجابية البحتة وألا يشغلهم ربص السوء بأعداء الله عن ذلك الواجب « وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوْفِّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ . ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ » .

الذي ندرية تمام الدراية أن الإسلام حق وأن العمل له — أيًا كانت النتائج — حق . فإما عزة في الدنيا ، وإما فرحة يوم لقاء الله . .